أيـــا دوى الرعـــد اسمع صراخى

ميلدرد دى تايلور

JOHN NEWBERY MEDAL
FOR THE MOST DISTINGUISHED CONTRIBUTION TO AMERICAN LITERATURE FOR CHILDREN



أيا دوى الرعد
اسمع صراخى

Roll of Thunder, Hear My Cry

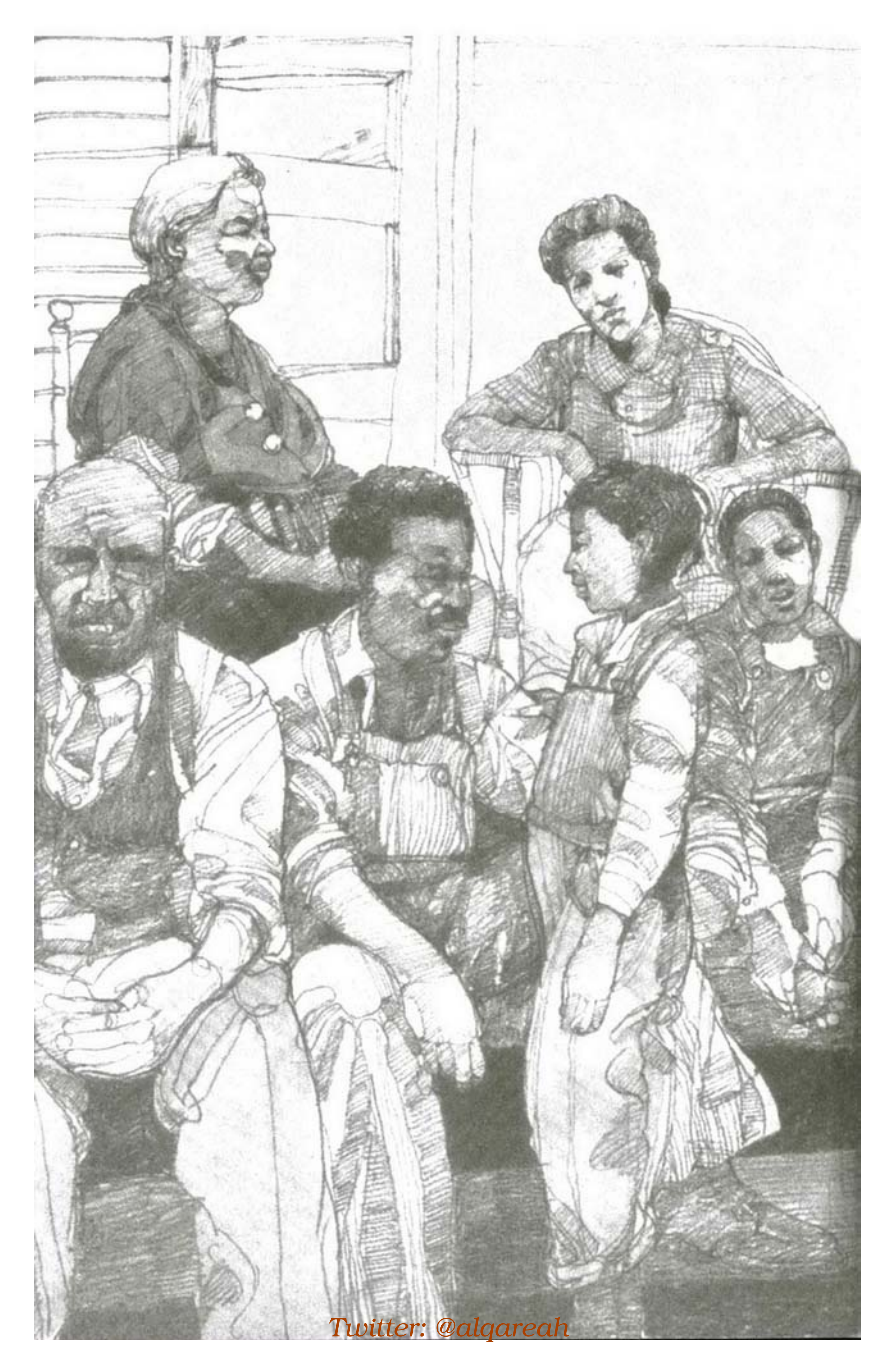
تأليف: ميلدرد دى تايلور





أيا دوى الرعد

اسمع صراخى



العنوان: أيا دوى الرعد اسمع صراخى
تأليف: ميلدرد د. تايلور
ترجمة: فيروز عبد السلام
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم

Original English title: Roll of Thunder, Hear My Cry

This edition published by Nahdet Misr for Printing, Publishing & Distribution, upon arrangement with Dial Books for Young Readers, a division of Penguin Young Readers Group, a member of Penguin Group (USA) Inc.
375 Hudson St., New York, NY, 10014, USA.

ترجمة كتاب Roll of Thunder, Hear My Cry تصدرها شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - بترخيص من شركة
Dial Books for Young Readers, a division of
Penguin Young Readers Group, a member of Penguin Group.



الترقيم الدولى: 977-14-4134-5
رقم الإيداع: 2007/20190
الطبعة 2: يونيو 2008

الإدارة العامة: 21 شارع أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02

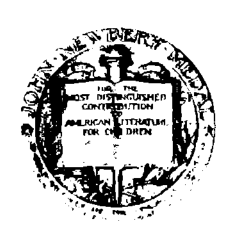
المركز الرئيسى: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - 6 أكتوبر
تليفون: 38330287 - 38330289 02
فاكس: 38330296 02

مركز التوزيع: 18 شارع كامل صدقى - الفجالة - القاهرة
تليفون: 25909827 - 25908895 02
فاكس: 25903395 02

فرع الإسكندرية: 408 طريق الحرية، رشدى
تليفون: 5462090 03

فرع المنصورة: 13 شارع المستشفى الدولى التخصصى - متفرع من شارع عبد السلام عارف - مدينة السلام
تليفون: 2221866 050

Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com — customerservice@nahdetmisr.com



جائزة نيوبرى

تقدم هذه الجائزة كل عام لأفضل كاتب للأطفال فى الولايات المتحدة الأمريكية.. والكاتب الذى يحصل عليها، يحجز لنفسه مكانًا فى قائمة أعظم الكتَّاب.. فهى أكبر وأقدم جائزة فى الولايات المتحدة.

وقد بدأ تقديمها عام 1922، عندما اقترح فريدريك ميلشر على اتحاد المكتبات الأمريكية إنشاء هذه الجائزة، على أن تقدم باسم جون بيرى، وهو أقدم بائع لكتب الأطفال فى القرن الثامن عشر فى إنجلترا.

يهدف الاتحاد من تقديم الجائزة إلى التشجيع على الابتكار والأفكار الخلاقة فى حقل الكتابة للشباب، سواء أكان شعرًا أم رواية أم مسرحية.. كما حدد لها شروطًا كثيرة منها: أن يكون العمل منشورًا فى نفس العام، ولم يسبق نشره، كما أن الكاتب يجب أن يكون مواطنًا أمريكيًّا.

ويفوز الكاتب بميدالية برونزية. صممها بول تشامبلان، محفور عليها اسم الكاتب، وتاريخ الفوز بها.

وفى عام 1973، اقترح فريدريك.ج. ميلشر تقديم جائزة كالديكوت لأفضل تصميم، أو رسم لكتاب الطفل، وسميت بهذا الاسم تكريمًا لرسام الأطفال الإنجليزى فى القرن التاسع عشر راندولف كالديكوت.

بعض الكتب الحائزة على جائزة نيوبرى

1 ـ صيف البجع.
2 ـ معجزات فوق التل.
3 ـ ساوندر.
4 ـ السفر فى الزمن.
5 ـ الأسير.
6 ـ راسكال.
7 ـ لعبة «ويستنج».
8 ـ سى بيسكيت.
9 ـ إيلا المسحورة.
10 ـ سارة فارعة الطول متوسطة الجمال.
11 ـ سلام منفصل.
12 ـ الواهب.
13 ـ كسرة من آنية فخارية.
14 ـ صور هوليس وودز.
15 ـ صوت البوم.
16 - الجانب الآخر من الجبل.
17 - الحفر.
18 - الواحد والعشرون منطادًا.
19 - أيا دوى الرعد اسمع صراخى.

قصص أخرى للشباب:

1 ـ الأعظم.. محمد على.
2 ـ الأخوان رايت.
3 ـ العصَّار.
4 ـ الخاسر.

إلى ذكرى أبى الحبيب،

الذى عاش المغامرات العديدة للصبى ستيسى

والذى كان فى جوهره الرجل ديفيد.



مقدمة بقلم
ميلدرد دى تايلور

كنت أغسل الملابس ببدروم منزل والدى فى اليوم الذى أتت كلمات خاصة جدًّا إلىَّ فى أغنية. فى البداية، علمت أن الكلمات - الأغنية - كانت مهمة وهرعت إلى الأعلى لأعثر على مسجل صوتى حتى أتمكن من الاحتفاظ بها. اليوم لا أعلم حتى أين هذا التسجيل، فلأنه كان جزءا منى قبلا، بقيت الأغنية معى. ولم أنسها أبدًا.

لما يقرب من عام قبل أن تأتى الأغنية لى، كنت أعمل بالكتاب الذى سيكون حينها «أيا دوى الرعد اسمع صراخى. خلال تلك الفترة كنت أقوم بتصحيح بروفات الطباعة والتحرير لحساب شركة ضرائب بالصباح، وكنت أكتب

بالأمسيات وفى عطلات نهاية الأسبوع. كانت الكتابة قد التهمتنى؛ وسيطر الكتاب على حياتى. كنت أعيش فى لوس أنجلس، لكن يبدو أن عقلى كان دومًا يمشى فى الطرق الخلفية للمسيسبى إلى حقبة زمنية أخرى ومكان آخر. وحينما اقترب الكتاب من خاتمته، وجدت أن الكتابة أصبحت أكثر صعوبة. كانت الأحداث التى تختم الكتاب أحداثا قوية وكان يجب أن يتم كتابتها بنفس القوة، لكننى لم أتمكن من صياغتها بشكل صحيح.

كان قد بقى لى فصلان كى أنتهى من الكتابة عندما طلب منى والدى العودة إلى المنزل. كانت أمى فى حاجة إلى عملية جراحية، وكان أبى قد تغيب عن العمل لعدة أسابيع بسبب إرهاق غير عادى وزكام كان لا يبدو أنه يستطيع التخلص منه. لذا أخذت إجازة من عمل تصحيح بروفات الطباعة وعدت إلى توليدو. كانت أمى قد تعافت بسرعة من عمليتها وكان أبى يبدو بخير حال. لكنه كان يقول إنه مرهق جدًّا. كان الأطباء يقومون بالاختبارات والمزيد من الاختبارات. لم يبد أن أحدًا من الأطباء على علم بعلته، أو حتى إذا كانوا يعلمون، لم يقولوا شيئًا.

فى اليوم الذى أتت فيه الأغنية إلىَّ، كان أبى يجلس بكرسيه المفضل، كرسى اتكاء كبير مصنوع من الجلد بجوار مدفأة غرفة المعيشة. بكلمات الأغنية وهى ترقص برأسى، ذهبت إلى أبى. قلت له كيف أتت الكلمات وكم كانت مميزة. قلت له إنه لم يبد أننى فكرت بها، لكنها هى التى أتت إلى رأسى لكى أدونها. قلت له ما تعنى الكلمات لى وما كانت تعنى بالنسبة للكتاب. ثم تشاركت معه شيئًا خاصًا جدًّا. قلت له عما قالته لى الكلمات،

قالت لى: بأن الكتاب الذى أكتبه سيفوز بمدالية نيوبيرى. قلت له إننى عرفت لحظة ما جاءت الأغنية.

لقد اعتقدت ذلك قبلا، لكننى أيقنت ذلك الآن. لم يكن أبى يعرف ما هى ميدالية نيوبيرى، وشرحتها له. ابتسم وقال إنه سيكون فخورا بذلك. ثم أنشدت الأغنية لأبى.

بعد ثمانية أشهر توفى أبى.

بعد ستة أشهر من وفاته جاء الإعلان بأن «أيا دوى الرعد اسمع صراخى» قد فازت بميدالية نيوبيرى للعام ١٩٧٧ كأكبر إنجاز بارز لأدب الأطفال الأمريكى. قدمت الجائزة لى لكننى لم أعتبر أبدًا أن الجائزة لى. اعتبرتها جائزة أبى لأننى بدون كلمات أبى وتعاليمه، وبدون تاريخ العائلة الذى تشاطره معى، وبدون كل القصص التى حكاها لى طوال حياتى، وبدون إصراره على أن أتعرف على الجنوب كما أعرف الشمال، فلم يمكن أن يقدر لـ «أيا دوى الرعد اسمع صراخى» أن تخلق.

خلال الخمسة والعشرين عامًا منذ نشر «أيا دوى الرعد اسمع صراخى»، استمررت بكتابة القصص التى حكاها أبى وأفراد آخرون من العائلة. وعلى حد ما أتذكر فإن القصص كانت تمثل على الشرفات المضاءة بنور القمر أو بجوار المدفآت الموقدة. كانت حكايات تقال باستمتاع ومهارات تمثيل لدرجة أن الأشخاص الذين ماتوا منذ زمن عاشوا مرة أخرى من خلال أصوات وحركات الرواة. كانت قصص عن جدى الأكبر الذى ولد عبدا لأب صاحب مزرعة أبيض وأم من أصل إفريقى هندى.

كانت قصص عن جدتى الكبيرة، والتى كانت قوتها تمسك العائلة ببعضها بعد وفاة جدى الأكبر، والتى لايزال كرمها مثارا للحديث إلى الآن فى العائلة. كانت قصص عن أعمامى الكبار، والذين ناضلوا ضد العنصرية فى الجنوب، كانت هناك قصص عن جدتى التى كانت مدرسة وجدى الذى كان رجل سكة حديد. كانت قصص عن أبى وإخوته وأخته الذين تربوا على أرض جدى الكبير التى اشتراها فى القرن التاسع عشر. كانت قصص عن العائلة، عن المجتمع الريفى، عن الظلم العنصرى. أحيانا كانت القصص مليئة بالضحك؛ وأحيانًا أخرى بالمآسى. كان هناك الكثير من التاريخ فى هذه القصص واستمررت فى سرد التاريخ فى «لا تدع الدائرة تنكسر»، ذا جولد كاديلاك، الصداقة، الطريق إلى ممفس، مسيسبى بريدج، وذا ول. كل هذه الكتب بما فيها ذا جولد كاديلاك هى جزء من ملحمة عائلة لوجان.

فى خلال سنوات كتابتى تراءى لى أن أقوم بتقديم وجه من التاريخ الأمريكى الذى كان خلال طفولتى، لم يكن مذكورا بكتب التاريخ. تراءى لى أن أقدم عائلة متحدة بالحب واحترام الذات، وأبوين قويين حساسين حاولا أن يرشدا أطفالهما بنجاح دون أن يخدشا أرواحهم خلال المتاهة الخطرة فى العيش فى مجتمع تمييزى. للقراء أن يتعرفوا بهذه العائلة، مبنية على عائلتى، أردت لهم أن يشعروا بالتجانس تجاههم وأن يمشوا بخطاهم.

كانت كتابة هذه الكتب المشتقة من قصص أبى وأفراد آخرين من العائلة، رحلة طويلة من طفولتى إلى الحاضر، لكننى حاولت دومًا أن أحافظ على مسارى. من أغنية الأشجار كتابى الأول إلى الأرض، عملى الحالى، حاولت أن أرسم صورة

صادقة للحياة فى أمريكا كما وصفها الأعضاء الأكبر سنا فى عائلتى، وكما أتذكرها قبل حركة الحقوق المدنية. فى كل هذه الكتب، لم أسرد فقط متعة الكبر فى عائلة كبيرة ومساندة، لكن بمشاعرى عن الإحساس بالتمييز والعنصرية. لم يكن من السهل أبدًا كتابة هذه المشاعر، لكن بعد نشر كتابى الأول، تم فهم هذه المشاعر وهذا التاريخ الذى كتبت عنه. نعم، هذا ما يقوله الناس. نحن نتذكر كيف كان الحال.

غير أن اليوم، الأجيال الأصغر سنا ليس لديهم خبرة بهذا الوقت عندما كانت اللافتات على أبواب المراحيض واللافتات على ماء السبيل للشرب وعلى نوافذ المطاعم والفنادق كتب عليها: البيض فقط، غير مسموح للملونين. إن أجيال اليوم من الأطفال بالإضافة إلى الكثير من المدرسين والآباء لم يضطروا إلى تحمل مثل هذه الإهانات أو أسوأ ألوان العنصرية التى انتشرت بأمريكا فى يوم من الأيام، وإننى شاكرة لذلك. لكن، للأسف، وكما نعرف كلنا، فإن العنصرية لا تزال موجودة.

فى كثير من الكتب حاولت تقديم تاريخ لعائلتى بالإضافة إلى تأثيرات العنصرية، ليس فقط على ضحايا العنصرية، لكن أيضًا على العنصريين أنفسهم. لقد أحصيت الأحداث المؤلمة كتابتها والمؤلمة قراءتها، لكننى كنت آمل منها أن تقوم بالتوضيح أكثر.

الآن وعلى الرغم من ذلك، فإن هناك من يفكرون أنه ربما تكون الروايات أكثر إيلاما، وهناك من يسعى إلى شطب كتب مثل كتبى من قائمات القراءة المدرسية. هناك من يقول إن هذه الكتب يجب إزالتها لوجود الكلمة التى تبدأ بحرف «ز»

بها. وهناك من يقول إن الأحداث التى سردت بكتبى وكتب مماثلة لم تحدث. هناك من لا يريد تذكر الماضى، أو من لا يريد أن يعلم أطفالهم عن الماضى، وهناك من يريد تمويه التاريخ.

عندما سمعت بهذه العواطف، انزعجت بشدة. انزعجت بشدة أيضًا من احتمال أن يكون أى طفل قد أوذى من كلماتى. كما أستطيع أن أفهم عدم رغبتى بتعرض طفلى لكلمات مؤلمة. لكن أيضًا لا أفهم محاولات منع الطفل من التعرف على تاريخه الذى هو جزء من أمريكا، تاريخ عائلة تمثل الملايين من العائلات القوية والمحبة، والتى ستظل موحدة وقوية، بالرغم من العقبات التى تواجهها.

فى الأعوام الأخيرة بسبب اهتمامى بمجتمع «صحيح سياسيا»، وجدت نفسى مترددة بشأن الكلمات التى سيتم تداولها أثناء عرض كتبى ووجودها. لكن بقدر ما يجب أن أكون صادقة مع نفسى فى سرد كل قصصى، أيقنت أنه يجب أن أكون صادقة تجاه مشاعر الأفراد الذين أكتب لهم، ويجب أن أكون صادقة تجاه القصص التى سردت. لقد سرد أبى والأفراد الآخرون بالعائلة تاريخ عائلتى بصدق، هذا التاريخ الذى ذكرته بكتبى، عندما كان هناك هزل، كانت عائلتى تتناقله. وعندما كانت هناك مأساة، كانت عائلتى تتناقله. إن قصصى لن تكون «صحيحة سياسيا»، لذا سيكون هناك من يشعر بالإهانة منها، لكن كما نعرف كلنا، فإن العنصرية مهينة.

إنه ليس مهذبًا، ومليئًا بالألم.

عندما تشارك أبى والرواة الآخرون آلام حياتهم وحياة آخرين معى، كنت غاضبة من أن شخصًا ما قد يعامل الآخر بهذه اللاإنسانية وعدم الاحترام،

وكبرت عن هذا الغضب، مصرة على تناقل قصصى. قد آثرت الآن القصص التى رواها أبى لى من وقت طفولتى على الكثير من الناس حول العالم، والذين رأوا أنفسهم فى عائلة لوجان. رأوا أنفسهم وألهموا. أتذكر فتاة على وجه التحديد. كانت فتاة من قبيلة الزولو بجنوب إفريقيا، والتى قرأت «أيا دوى الرعد اسمع صراخى» خلال أيام التمييز العنصرى. كتبت لى لأن نضالها كان شبيهًا جدًّا بنضال عائلة لوجان، ولأن عائلة لوجان كانت قد انتصرت بالنهاية، قد أعطاها إيمانًا بأنه فى يوم ما ستنتصر هى وشعبها أيضًا. كان أبى سيكون فخورا بذلك.

الآن بقى لى قصة واحدة لأسردها عن عائلة لوجان، إنها قصة العائلة فى الشمال، فى أيام الحرب العالمية الثانية، وأول بذور لحركة الحقوق المدنية. وفى حين كتابتى لهذا الكتاب الأخير فى ملحمة عائلة لوجان، سوف أحتفظ بنفس الخطوط الموجهة التى كنت دائمًا أتمسك بها.

وستبقى أيضًا بقلبى دائمًا هذه الكلمات المميزة التى ألهمتنى بكتابة «أيا دوى الرعد اسمع صراخى». إنها الأغنية التى غنيتها لأبى.

أيا دوى الرعد

اسمع صراخى

فوق المياه

هناك وهناك

إن الرجل آت

على الطريق

بسوط في يده

ليبرحني به

لكنني لن

أسمح له

أن يغيرني

ميلدرد دي تايلور

ملحوظة الكاتب

كان أبى خبيرا بسرد القصص. كان يستطيع أن يحكى قصة جميلة وجدية قد تجعلنى أمسك بخصرى من شدة الضحك وذرفت دموع السعادة على وجنتى، أو قصة من الواقع القاسى التى تجعل بدنى يقشعر وأكون شاكرة لمحيطى الدافئ والآمن. قد يحكى قصصا عن الجمال والرحمة، قصصا عن الأحلام اللطيفة، ويرسمها بوضوح مصورًا ببروز الشخصيات والحوار. كانت ذاكرته تفصل كل حدث مر من عشرة أو أربعين عاما أو قبل هذا، كأنه حدث بالأمس.

بالقرب من المدفأة فى منزلنا الشمالى أو فى الجنوب حيث ولدت، تعلمت التاريخ الذى لم يكن قد كتب فى ذلك الحين بالكتب، لكن تم تناقله من جيل إلى جيل على درج الشرفات تحت نور القمر وبجوار النيران الذابلة فى البيوت ذات الغرفة الواحدة.

تاريخ الأجداد العظماء، وعن الرق والأيام التى تلت الرق؛ عن الذين عاشوا بدون حرية، وفوق ذلك لم يسمحوا لأرواحهم بأن يتم استرقاقها. تعلمت من أبى الراوى أن أحترم الماضى، أن أحترم إرثى الخاص ونفسى. من أبى الرجل، تعلمت أكثر من هذا، لأنه كان قد منح بنعمة مميزة كانت تجعله يعلو فوق كل الرجال. كان دافئا وحازما، رجل لم تنحن مبادئه، وكانت له قوة نادرة تلك التى لم تكن تحافظ فقط علىَّ أنا وأختى والعائلة، ولكن على كل من كان يقصده للنصيحة ومال على حكمته.

كان شخصًا معقدا، ولكن علمنى الكثير من الأشياء البسيطة، أشياء من المهم أن يعرفها الطفل: كيف يمتطى حصانا وكيف يتزلج؛ كيف ينفخ رغاوى الصابون وكيف يربط عقدة للطائرة الورقية تتحدى رياح شهر مارس؛ وكيف أغسل كلبًا مهجنًا كبيرًا ووفيًا اسمه تاينى. ومع مرور الوقت علمنى الأشياء المعقدة أيضًا. علمنى عن نفسى والحياة. علمنى عن الأحلام والطموحات. وعلمنى حب الكلمات. بدون تعاليمه، بدون كلماته، لم يكن يقدر لكلماتى الظهور.

توفى أبى الأسبوع الماضى. وماتت معه القصص التى كان من الممكن هو فقط أن يحكيها. لكن صوته الملىء بالفرح والضحك، وقوة تحمله، مبادئه، وحكمته الدائمة تبقى، كجزء من كل من عرفهم وأحبهم كثيرًا. سيظلون أيضًا بصفحات هذا الكتاب، كروحه المرشدة وقوته التامة.

ميلدرد دى تايلور

إبريل 1976

أيا دوى الرعد
اسمع صراخى


Twitter: @alqareah

1

«هلا أسرعت يا ليتل مان؟ إذا استمررت هكذا فستتسبب فى تأخرنا».

لم يعرنى أخى الصغير أى اهتمام، واستمر فى تفحص غبار الدرب ممسكًا دفتره الدراسى المغلف بالصحيفة، وعلبة غدائه من خبز الذرة والمقانق. كان متأخرًا بعدة أقدام عنى وعن إخوتى الآخرين: ستيسى، وكريستوفر جون محاولاً عدم إثارة غبار المسيسيبى الصدئ مع كل خطوة حتى لا يلوث حذاءه اللامع وأساور بنطلونه كوردرى(*) برفعه لأقدامه عاليًا ووضعها بلطف مرة أخرى على الأرض.

(*) الكوردرى: نوع من قماش القطن المصنع يشبه القطيفة.

لم يسمح ليتل مان الشديد التأنق - البالغ من العمر ست سنوات - لأى أوساخ أو دموع أو بقع بإفساد أى شىء يمتلكه، ولم يكن هذا اليوم باستثناء.

هددته قائلة: «إذا استمررت على هذا الحال فسنتأخر عن المدرسة وستنال عقابًا من أمنا» ساحبة ياقة فستانى العالية بغضب، فستان يوم الأحد الذى جعلتنى أمى أرتديه أول يوم من أيام الدراسة - كأنه حدث مشهود. فقد كنت أعتبر الذهاب إلى المدرسة فى صباح يوم صيفى بشهر أكتوبر الأولى فيه الجرى فى ممرات الغابة ذات النسمات العذبة، والخوض حافية القدمين فى بركة الغابة - تنازلاً كافيًا، فجاء ارتداء لباس الأحد أمرًا يفوق الاحتمال، وما كان كريستوفر جون وستيسى أكثر حماسًا منى بشأن المدرسة أو اللباس أيضًا، لكن ليتل مان الذى بدأ لتوّه مستقبله الدراسى هو الوحيد الذى شعر بالإثارة من هاتين الفكرتين.

لكنه رد دون أن يحيد طرفه عن خطوات أقدامه المدروسة: «فلتمضوا أنتم وتلوثوا ملابسكم إن شئتم، أما أنا فسأحافظ على نظافتى».

فتذمرت قائلة: «أراهنك أن أمى ستحرص على تنظيفك، استمر فقط فيما أنت ماض فيه».

عاتبنى ستيسى مقطبًا حاجبيه وضاربًا الطريق بقدميه: «آه يا كيسى، اتركيه لحاله».

«لم أقل سوى...».

قاطعنى ستيسى بنظرة حادة أغرقتنى فى صمت؛ فقد كان مزاجه متعكرًا فى الآونة الأخيرة مما كان يسبب لنا إزعاجًا وضيقًا. ولو لم أكن ملمة بأسباب هذا التغيير لنسيت بسهولة أنه فى الثانية عشرة من عمره وأكبر منى بالإضافة إلى وعدى لأمى بأننى سأصل إلى المدرسة بمظهر نظيف يليق بالسيدات الراقيات، لكننى غمغمت أخيرًا «تبًا» غير قادرة على ردع نفسى:

من تعليق آخر «ليس ذنبى أنك فى الصف الذى تدرسه أمى هذا العام».

لم يقل ستيسى شيئًا لكن عبوسه زاد أكثر ودفع بقبضته فى جيوبه.

رمقنا كريستوفر جون باضطراب حيث كان يمشى بينى وبين ستيسى، لكنه لم يبدِ أى تدخل. كان كريستوفر جون صبيًا مستدير الهيئة فى السابعة من عمره ولم يكن له اهتمام كبير بالأشياء المثيرة للمتاعب مؤثرًا للسلامة مع الجميع. مع ذلك كان حساسًا جدًا تجاه مشاعر الآخرين، حتى الآن فقد بدل مقبض علبة غدائه من يده اليمنى إلى رسغه الأيمن ودفتره الملطخ من يده اليسرى إلى إبطه الأيسر ليحرر يديه كى يضعهما فى جيبه محاولاً أن يبدو بكآبة ستيسى وبنزقى. لكنه نسى بعد لحظات أنه من المفترض أن يكون عابسًا وأخذ يصفر بمرح. لم يكن هناك شيء أبدًا يستدعى تكدر كريستوفر جون طويلاً، حتى التفكير فى المدرسة.

سحبت ياقتى مرة أخرى بقوة وبدأت بسحب أقدامى فى الغبار لكى يعود ماحصا جواربى مثل الثلج الرملى الأحمر. كرهت الرداء وكرهت الحذاء. لم يكن هناك متسع من الأشياء التى أستطيع القيام بها وأنا مرتدية رداء، أما بالنسبة للحذاء فإنه كان يكبل قدمىَّ المحبتين للحرية، المعتادتين على ملمس الأرض الدافئة.

زجرنى ستيسى حين كان الغبار يدور فى سحب منتفخة حول قدمَىَّ قائلا: «توقفى عن ذلك يا كيسى»، رفعت عينى محتدة وعلى شفا الاعتراض فى حين زاد دوى صفير كريستوفر جون بتوتر وصخب، فأسلمت الأمر على مضض.

ومشيت بتثاقل وصمت كئيب، وزاد هدوئى وإخوتى مستغرقون فى التفكير.

كان الطريق الضيق أمامنا والمرقط بأشعة الشمس يبدو كأفعى كسول حمراء تفصل صف الغابة العالى من الأشجار العتيقة الهادئة على اليسار من حقول القطن المدرجة بسيقان خضراء وأرجوانية عملاقة على اليمين. كان هناك سياج

مدجج بسلك شائك ممتد بطول الحقل لمسافة تزيد على الربع ميل شرقًا حيث يلتقى بالمرج الأخضر المائل مشيرًا إلى نهاية الأربعمائة فدان؛ أملاك عائلتنا. كانت هناك شجرة بلوط مرئية حتى الآن على المنحدر وتعتبر الفاصل الرسمى بين أراضى عائلة لوجان وبداية غابة كثيفة. كانت أراضى هرلان جرينجر تقع بعد سياج الغابة الواقى، كانت هذه الأراضى عبارة عن حقل زراعى شاسع يغطى ثلثى بيارة تزيد على عشرة أميال مربعة ويعمل بها عائلات كثيرة يتقاسمون المحصول فيما بينهم.

كانت أراضينا جزءًا من أراضى آل جرينجر فيما مضى ولكنهم اضطروا إلى بيعها لأحد أبناء ذوى البشرة البيضاء أثناء فترة إعادة التشكيل لسداد الضرائب، وعندما عرضت الأرض للبيع مرة أخرى فى عام ١٨٨٧ قام جدى بشراء مائتى فدان منها، وبعد أن قام بسداد ثمنها فى عام ١٨١٩ اشترى مائتى فدان أخرى. كانت الأرض غنية بخيراتها وكان جزء كبير منها لا يزال غابة بكرًا لم يتم زراعته من قبل ولم يكن عليها أى ديون، لكن المائتى فدان التى تم شراؤها عام ١٨١٩ كانت لاتزال قيد الرهن بالإضافة إلى الضرائب على الأربعمائة فدان، ولم يكن هناك ما يكفى من محصول القطن فى ثلاثة الأعوام الأخيرة ليغطى تلك المصاريف وتكاليف المعيشة.

لهذا السبب اضطر أبى إلى العمل بالسكة الحديد.

وفى عام ١٩٣٠ انهارت أسعار القطن، فانطلق أبى يجوب المدن باحثًا عن عمل فى ربيع عام ١٩٣١، فقد ذهب شمالاً حتى مدينة ممفيس وجنوبًا حتى بلدة دلتا. حتى إنه ذهب غربًا أيضًا إلى لويزيانا، وهناك وجد وظيفة صنع طرق للسكة

الحديد. كان يعمل طيلة العام بعيدًا عنا وكنا لا نراه إلا عندما يشتد البرد فى الشتاء وتصبح الأرض باردة وقاحلة، وعندما يأتى الربيع وننتهى من الزراعة كان يعود أدراجه لعمله فى السكة الحديد. الآن وفى العام ١٩٣٣ ذهب أبى مجددًا لصنع طرق السكة الحديد فى لويزيانا.

سألته مرة عن سبب اضطراره إلى الذهاب بعيدًا للعمل ولماذا تمثل الأرض كل تلك الأهمية، فأمسك بيدى وقال بأسلوبه الهادئ: «ألقى بصرك للخارج يا ابنتى كيسى، فكل ما ترينه ملك لك. لن تضطرى إلى العيش فى مكان ملك لشخص آخر مادمت أنا على قيد الحياة ومادامت هذه العائلة فلن تضطرى إلى ذلك. ذلك هو ما يهم. قد لا تفهمين معنى كلامى الآن لكنه سيأتى اليوم لتفهمى ما أقصده، حينها ستعلمين».

نظرت لأبى باستغراب عندما قال لى هذا لأنى كنت أعلم أن الأرض كلها ليست ملكًا لى وحدى، فجزء منها لستيسى وكريستوفر جون وليتل مان، ناهيك عن الأجزاء الأخرى للجدة وأمى والعم هامر، شقيق أبى الذى يعيش فى مدينة شيكاجو. لكن أبى لم يدر فى خلده قط أن يقسم الأرض، كانت ببساطة بالنسبة له أرض عائلة لوجان. فمن أجلها كان يعمل فى فصول أيام الصيف الحارة الطويلة يطرق الحديد، فى حين كانت تعمل أمى بالتدريس وإدارة المزرعة، أما الجدة، فعلى الرغم من أنها كانت قد تجاوزت الستين، فإنها كانت تعمل فى الحقول كامرأة فى العشرينيات من عمرها وتدبر شئون المنزل، وأنا وإخوتى كنا نرتدى الملابس الرثة التى هلكت ألوانها من كثرة الغسيل، ومع كل هذا، كان هناك دومًا الضرائب والرهون التى لابد من دفعها.

قال أبى: يومًا ما سأفهم هذا.

عند انتهاء الحقول وانتشار غابة جرينجر على جانبى الطريق بفروعها الطويلة الوارفة ظهر فجأة صبى طويل القامة، هزيل البنية من طريق فى الغابة وعلق ذراعه النحيلة حول ستيسى. كان هذا الصبى يدعى تى جيه أفرى، ظهر بعده بلحظة أخوه الصغير كلود وعلى وجهه ابتسامة هزيلة كأنها تسبب له ألمًا. لم ينتعل كلا الصبيين أحذية وكانت ملابس الأحد التى يرتدونها بالية ومرقعة، وكانت متدلية وفضفاضة على أجسامهم الضعيفة. كانت عائلة أفرى إحدى العائلات التى تتقاسم المحصول فى أرض جرينجر.

قال تى جيه: ملتحقًا بخطوات ستيسى برشاقة، «حسنًا ها نحن فى بداية عام دراسى جديد».

تنهد ستيسى قائلاً: «نعم».

رَدَّ تى جيه ببهجة: «لا عليك يا رجل، لا تكن محبطًا هكذا، فحسب علمى أن أمك مدرسة عظيمة». كان عالمًا بذلك أكيد، فقد رسب العام الماضى فى صف أمى وها هو عائد إليها لمحاولة أخرى.

صرخ ستيسى: «تبًا، من السهل عليك أن تقول هذا، فأنت لست مضطرًا إلى أن تبقى طيلة اليوم فى صف واحد مع أمك».

رَدَّ تى جيه: «انظر إلى الجانب المشرق للموضوع، وفكر فقط فى ميزة ما لديك فستكون قد تعلمت كل شىء قبلنا جميعًا..». مضيفًا لكلماته ابتسامة ماكرة «مثل المواضيع التى ستكون محل الاختبار».

دفع ستيسى ذراع تى جيه من على كتفه: «إذا كان هذا ظنك فأنت لا تعلم من هى أمى».

أجاب تى جيه بشجاعة: «لا داعى لأن تثير غضبك».

كان صامتًا للحظة ثم أعلن: «إنها مجرد فكرة ما رأيكم فى أن أسرد عليكم تفاصيل حريق الأمس».

فسأل ستيسى: «حريق؟! أى حريق؟!».

ـ «ماذا بكم؟ ألا تعلمون شيئًا عما يحدث حولكم؟ كان هناك حريق عند عائلة بيرى. أعتقد أن جدتكم قد ذهبت إلى هناك لتتفقد حالهم».

كنا بالطبع نعلم أن الجدة ذهبت أمس لتعود مريضًا فى بيته؛ لأنها كان لها علم وافر فى المداواة، وكان كثير من الناس يلجئون إليها عند مرضهم بدلاً من الطبيب. لكن لم يكن لنا علم بالحريق وأنا لم يكن لى علم بوجود عائلة بيرى.

فسألت: «من هم آل بيرى الذين يتكلم عنهم يا ستيسى؟ لا أعلم أحدًا بهذا الاسم».

قال ستيسى ذاهلاً: «إنهم يعيشون على الضفة الأخرى من جدول سميلينجز، وأحيانًا يأتون إلى الكنيسة». ثم التفت إلى تى جيه: «لقد أتى السيد لاينر مصطحبًا جدتى فى وقت متأخر جدًا أمس وذكر أن السيد بيرى مريض جدًا ويحتاج الجدة لتمرضه، لكنه لم يذكر شيئًا عن أى حريق».

ـ «إنه مريض بحق لأنه احترق حتى كاد يلفظ أنفاسه الأخيرة هو وولدا أخيه، أوتعلمون من فعل ذلك؟».

سألت أنا وستيسى معًا: «من؟».

قال تى جيه بطريقته المعتادة كأنه يخبرنا بأنبائه السارة: «حسنًا، حيث إنكم لا تعلمون شيئًا ربما ليس على أن أخبركم حتى لا أوذى آذانكم الصغيرة بهذا الكلام».

قلت: «هيا يا ولد، لا تبدأ أسلوبك هذا الآن». لم أكن أحب تى جيه كثيرًا، ومماطلته هذه لم تساعد فى ذلك كثيرًا.

قال ستيسى: «هيا يا تى جيه هات ما عندك».

دمدم تى جيه ثم غرق فى صمته كأنه يعيد النظر فى أن يخبرنا أو لا: «حسنًا..».

وصلنا لأول تقاطع من اثنين فى طريقنا وانحرفنا تجاه الشمال، فبعد ميل آخر سنصل إلى التقاطع الثانى وننحرف تجاه الشرق مرة أخرى.

أخيرًا نطق تى جيه: «حسنًا. للعلم، لم يكن حريق آل بيرى حادثًا. قام بعض الرجال البيض بإشعال هذا الحريق».

تلعثم كريستوفر جون واتسعت عيناه غير مصدق لما يسمعه: «أ...أتعنى أنهم أشعلوا النار بهم كقطعة من الخشب؟».

سأل ستيسى: «لكن لماذا؟».

هز تى جيه كتفيه: «لا أعرف السبب، كل ما أعرفه أنهم فعلوا هذا، هذا كل شىء».

سألته بارتياب: «وكيف عرفت أنت؟».

ظهرت على وجهه ابتسامة تنم عن رضاه عن نفسه: «لأن أمكم وهى فى طريقها للمدرسة مرت على أمى وقصت عليها ما حدث».

ـ «هل فعلت ذلك حقًا؟».

ـ «نعم، وكان يجب أن تروا التعبير الذى كان على وجهها عندما خرجت من ذلك المنزل».

سأل ليتل مان متشوقًا بما يكفى ليرفع عينيه عن ملاحظة الدرب لأول مرة: «كيف كان شكلها؟».

التفت تى جيه حوله ثم همس متجهمًا: «مثل... الموت». انتظر ريثما تكون لكلماته وقع مروع ملائم. لكن أفسد هذا التأثير سؤال ليتل مان البسيط: «ما شكل الموت؟».

استدار تى جيه وهو يبدو عليه الانزعاج: «ألا يعرف أى شىء؟».

ـ «حسنًا، ما شكله؟». طالب ليتل مان بأن يعرف، فهو أيضًا لم يكن يحب تى جيه.

ـ «مثل شكل جدى قبل أن يدفنوه» كان هذا وصف تى جيه العالم بكل شىء.

ـ «حسنًا»، كان رد ليتل مان فاقدًا اهتمامه فى الموضوع محولاً تركيزه للدرب مرة أخرى.

قال تى جيه بتجهم: «أقول لك يا أخ ستيسى، أحيانًا يصعب على فهم عائلتك».

توقف ستيسى لوهلة محاولاً فهم ما إذا كانت كلمات تى جيه تحمل أى إهانة، لكن تى جيه محا هذا التفكير من رأس ستيسى باستكمال حواره بلطف: «لا تسئ فهمى يا ستيسى فعائلتك رائعة لكن كيسى كادت أن تتسبب فى ضربى هذا الصباح».

قلت له: «جيد».

فضحك ستيسى قائلاً: «ولكن كيف لها أن تفعل ذلك؟».

رد تى جيه: «لن تضحك إذا حدث لك هذا، ذهبت كيسى وأخبرت أمك عن ذهابى لقاعة الرقص فى متجر والاس وبدورها أخبرت السيدة لوجان أمى». رمقنى بازدراء ثم أكمل كلامه: «لكننى أفلت من ذلك فلا تقلق، فعندما سألتنى أمى قلت لها إن كلود دائمًا ما يتسلل إلى هناك ليحصل على بعض الحلوى المجانية التى يوزعها السيد كالب أحيانًا، وإنه كان علىَّ أن أذهب هناك لأحضره لأنى أعرف جيدًا أنها ستغضب إذا عرفت أننا ذهبنا إلى هناك. وكان يجب أن ترى كلود وهو ينال جزاء ذلك!». ضحك تى جيه: «كادت أمى أن تهلكه من الضرب».

حدقت فى كلود الصامت وصرخت فيه: «هل سمحت له أن يفعل هذا بك؟».

لكن كلود ابتسم ابتسامته الهزيلة وعرفت منها أنه سمح له بالفعل، فقد كان يخاف تى جيه أكثر مما كان يخاف أمه.

رفع ليتل مان بصره مرة أخرى وقرأت فى عينيه أنَّ كرهه لتى جيه يزيد. حملق كريستوفر جون الودود فى تى جيه ثم وضع ذراعه القصيرة على كتف كلود قائلاً له: «هيا يا كلود، دعنا نسبقهم». ثم عجلا من خطواتهما بعيدًا عن تى جيه.

ستيسى الذى دومًا ما يتغاضى عن خداعات تى جيه البهلوانية هز رأسه قائلاً: «كان هذا تصرفًا دنيئًا».

ـ «حسنًا، ما الذى كنت تتوقع منى أن أفعل؟ لا أستطيع أن أقول لها إننى أذهب هناك لأننى أحب ذلك، صحيح؟ إذا عرفت شيئًا كهذا ستقتلنى!».

«أفضل، لتخلصنا منك» كان ما يدور فى رأسى، معاهدة نفسى أنه إذا حاول أن يفعل شيئًا كهذا معى سأدق عنقه الأحمق. كنا نقترب من التقاطع الثانى فى الطريق حيث يصطف على جانبيه جدولان عميقان وحيث زحفت الغابة الكثيفة إلى أطراف الجداول العالية الممزقة المثبتة بالوحل. فجأة التفت ستيسى: «بسرعة!». كان يصرخ بنا: «ابتعدوا عن الطريق!». وبدون أن ننبس بكلمة اندفعنا نحو ضفة الجدول المنحدرة إلى الغابة.

ـ «تعال إلى هنا يا مان» كان أمرًا من ستيسى لكن ليتل مان استمر يحدق فى ضفة الجدول الوعرة المغطى تقريبًا بأشواك بنية هزيلة، واستكمل مشيه.

«هيا، افعل ما أقوله لك».

تذمر ليتل مان: «لكن ملابسى ستتسخ هكذا!!».

ـ «ستعرِّض ملابسك للاتساخ أكثر إذا بقيت حيث أنت. انظر!».

التفت ليتل مان خلفه، تنبه بعينين واسعتين لحافلة متجهة نحوه متسببة فى تناثر سحابة من الغبار الأحمر كأنه تنين أصفر ضخم ينفث لهبًا. اتجه ليتل مان نحو الضفة ولكنها كانت شديدة الانحدار، فاستمر يركض على الطريق محاولاً العثور على موطئ قدم، وحين عثر على واحد قفز إلى الضفة ولكن ليس قبل انطلاق الحافلة إلى جواره حيث غلفته بغيمة قرمزية اللون فى حين كانت الوجوه البيضاء المحتشدة بنافذة الحافلة تضحك.

هز ليتل مان قبضته الصغيرة مهددًا فى هذه الغيمة الغليظة ثم نظر إلى نفسه مهمومًا.

ـ ضحك تى جيه فى حين قفزنا كلنا من الضفة «أترون، لقد عرض ليتل مان ملابس الأحد للاتساخ». تفجرت دموع الغضب فى عيون ليتل مان لكنه محاها بسرعة قبل أن يستطيع تى جيه رؤيتهما.

زجر ستيسى تى جيه قائلاً: «هلا خرست يا تى جيه».

ورددت أنا وراءه: «نعم، اخرس يا تى جيه».

قال ستيسى: «هيا يا مان وفى المرة القادمة افعل ما أقوله لك».

قفز ليتل مان من الجدول وسأل وهو ينفض الغبار من على ملابسه: «كيف لهم أن يفعلوا هذا يا ستيسى، هه؟ لماذا لم يتوقفوا من أجلنا؟».

رد ستيسى مكورًا قبضتيه ودسهما بشدة فى جيوبه: «لكى يستمتعوا برؤيتنا ونحن نركض ولأنها ليست حافلتنا».

سأل ليتل مان مطالبًا: «حسنًا، أين حافلتنا إذن؟».

ـ «ليس لدينا حافلة».

ـ «ولماذا ليس لدينا واحدة؟».

رد ستيسى: «اسأل أمى» فى حين كان هناك صبى شاحب، كتانى الشعر، حافى القدمين يجرى نحونا من إحدى ممرات الغابة. سرعان ما وصل لنا الصبى ولحق بخطوات ستيسى وتى جيه.

قال بخجل: «أهلاً ستيسى».

رد ستيسى: «أهلاً جيرمى هل تبدءون كلكم المدرسة اليوم؟».

أجاب ستيسى: «نعم».

تحسر جيرمى: «أتمنى لو كنت أبدأ أنا أيضًا الدراسة..دراستنا مستمرة منذ نهاية أغسطس» كانت عين جيرمى مائلة للون الأزرق الثلجى وكانت تبدو كأنها تدمع إذا تكلم.

قال ستيسى مرة أخرى: «نعم».

ركل جيرمى الغبار بشدة ونظرت أنا تجاه الشمال. كان صبيًّا غريب الطبع. منذ بدأت الدراسة كنت أراه يمشى معنا بقدر تقاطع الطريق فى الصباح وكان يقابلنا هناك أيضًا بعد الظهيرة. كان كثيرًا ما يسخر منه الأطفال الآخرون فى مدرسته وكان كثيرًا ما يظهر وعلى يديه علامات عريضة حمراء من الحبار إثر الضرب، والتى أفشت أخته ليليان جين بفخر أنه بسبب مصاحبته لنا، لكن على الرغم من ذلك استمر جيرمى فى مصاحبتنا.

عندما وصلنا إلى التقاطع صادفنا فتاة فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها وولدين، كلهم شديدو الشبه بجيرمى، لكنهم مضوا مسرعين. كانت الفتاة ليليان جين.

قالت بدون أن تلتفت وراءها: «هيا يا جيرمى».

لوَّح لنا جيرمى على استحياء، وعلى وجهه ابتسامة خجولة، وتبعها ببطء.

وقفنا عند التقاطع نحدق خلفهم، التفت جيرمى مرة واحدة خلفه لكن ليليان جين صرخت به بحدة فلم ينظر بعدها خلفه. كانوا فى طريقهم إلى مدرسة مقاطعة جيفرسون ديفيس وهى عبارة عن مبنى خشبى طويل أبيض يلوح من بعد. كان هناك ملعب رياضى خلف المبنى وكانت تنتشر حوله مدرجات رمادية اللون ، أمامه حافلتان صفراوان أحدهما كان معذبنا والثانى يحضر الطلبة من الاتجاه الآخر، وكان هناك طلبة متسكعون فى انتظار أن يتم قرع جرس الصباح. كان هناك فى منتصف المرج الأمامى الأخضر الفسيح، علم المسيسبى بألوانه - الأحمر والأبيض والأزرق - المتموجة بشعار الولايات الإحدى عشرة التى انفصلت عن أمريكا المتوهج فى الزاوية العليا من يسار العلم. تحته كان العلم الأمريكى مباشرة. انعطفنا نحن نحو الشرق فى اتجاه مدرستنا فى حين أسرع جيرمى وإخوته نحو الأعلام الخفاقة.

كانت مدرسة جريت فيث (الإيمان العظيم) الابتدائية والثانوية، إحدى أكبر مدارس السود فى المقاطعة، نهاية بائسة لرحلة استغرقت أكثر من ساعة. كانت تتكون من أربعة بيوت بالية بسبب العوامل الجوية، مصنوعة من الخشب وركائزها من الطوب، ٣٢٠ طالبًا، سبعة مدرسين، ناظر، عامل النظافة وبقرة عامل النظافة التى كانت تهتم بالحفاظ على مرج العشب مقصوصًا على نحو كاف خلال فصول الربيع والصيف. كانت المدرسة تقع بالقرب من ثلاث مزارع، أكبرها وأكثرها قربًا من المدرسة كانت مزرعة جرينجر. كان معظم الطلبة ينتمون إلى

عائلات تعمل على تقاسم المحصول على أرض جرينجر والآخرون ينتمون فى الأساس إلى عائلات من مزارع مونتيير وهاريسون. قامت المدرسة بتعديل فصولها الدراسية بسبب أنه كان على الطلبة العمل فى الحقول أول الربيع مع زراعة القطن حتى يتم جمع أغلب المحصول فى الخريف، فأصبحت الدراسة تبدأ فى شهر أكتوبر وتنتهى فى مارس. ومع ذلك فلن نرى الكثير من الطلاب الأكبر سنًّا لمدة شهر أو اثنين آخرين إلى أن يتم التقاط آخر زهرة قطن من الحقول، وأخيرًا سيتسرب معظمهم من المدرسة فى النهاية. ولهذا السبب فإن فصول المراحل العليا تنكمش بمرور كل عام.

كانت مؤخرة مبانى الفصول ملتصقة عمليًّا بسور الغابة، مشكلة شكلاً نصف دائرى ووجهتهم نحو كنيسة صغيرة مكونة من غرفة واحدة فى الزاوية المواجهة للمجمع. كان ينتمى كثير من الطلبة وآباؤهم إلى تلك الكنيسة. كان الجرس الضخم المصنوع من الحديد ببرج الكنيسة يقرع بقوة عند وصولنا منذرًا الطلبة المتسكعين أنه باقٍ خمس دقائق على انتهاء الحرية.

اندفع ليتل مان فى طريقه فورًا عبر المرج إلى البئر، وتجاهل ستيسى وتى جيه بقيتنا لأنهما أصبحا فوق أرض المدرسة متجولين ليكونا بصحبة طلبة الصف السابع، وهرع كريستوفر جون مع كلود ليلتقوا بزملاء العام الماضى. انتهى الأمر بتركى وحدى، فسحبت نفسى إلى المبنى الذى به الصفوف الأربعة الأولى وجلست على أول درج.

بعد أن ألقيت بأقلامى ودفترى على الأرض، أسندت مرفقى على ركبتىَّ وأرحت ذقنى على راحتىَّ.

قالت ابنة المدير، مارى لو ولفر، وهى تختال مارة مرتدية رداء أصفر جديدًا: «أهلاً كيسى».

قلت متذمرة بشراسة شديدة لدرجة أنها استمرت فى سيرها: «أهلاً لنفسك» استمررت فى التحديق خلفها لبرهة ملاحظة أن لها أن ترتدى رداء جديدًا. لم يكن أحد آخر يرتدى شيئًا جديدًا بالتأكيد. زحزت الرقع على السراويل والملابس البالية للصبية والبنات الذين عانوا لتوهم من حرارة حقول القطن. كانت البنات يقفن بطريقة غريبة يخفن أن يجلسن، أما الصبية فكانوا يجذبون ياقاتهم ذوات الأزرار العالية المنشاة. كان هؤلاء الطلبة لهم حظ وفير بارتدائهم أحذية تجعلهم يحجلون على أقدامهم المقيدة. ستلف الليلة ملابس الأحد بأوراق الصحف وتعلق من أجل أيام الأحد، وسوف تخزن الأحذية ولن يتم ارتداؤها إلا إذا أصبح الطقس باردًا لدرجة لا تتمكن معها الأقدام الحافية من وطء الطرق المغطاة بالجليد، أما اليوم فعلينا جميعًا تحمل المعاناة.

فى الجانب البعيد من المرج لمحت «مو» تيرنر يهرع تجاه مبنى الصف السابع، وتعجبت لطاقته. هو كان أحد أصدقاء ستيسى وكان يقطن مزرعة مونتيير، وهى على مسافة ثلاث ساعات ونصف سيرًا على الأقدام من المدرسة. وبسبب المسافة لم يأتِ كثير من الأطفال مدرسة جريت فيث إلاَّ بعد إتمامهم للصف الرابع فى المدرسة قرب جدول سميلينجز. لكن كان هناك بعض الصبية والفتيات الذين كانوا يقومون بهذه الرحلة يوميًّا، تاركين منزلهم عندما تكون الظلمة فى السماء ولا يعودون حتى يحل الظلام مرة أخرى. كنت سعيدة لأنى لم أكن أعيش بعيدًا لهذه الدرجة. لا أعتقد أنَّ قدمىَّ كانتا تريدان تعليمى إلى هذا الحد.

بدأت دقات الجرس الثانى. وقفت وقمت بتنفيض الغبار عن مَقْعَدِى فى حين تزاحم طلبة الصف الأول والثانى والثالث والرابع إلى الرواق. انطلق ليتل مان بسرعة البرق أمامى ويداه نظيفتان ووجهه نظيف وحذاؤه الأسود يلمع من جديد. ألقيت نظرة سريعة على حذائى المرشوش بالغبار الأحمر، فقمت برفع قدمى اليمنى وفركتها فى ظهر ساقى اليسرى، وعكست العملية. انقضضت على أقلامى ودفترى مع آخر دوى للجرس فى المجمع وركضت إلى الداخل.

كان هناك رواق ممتد بين البابين الخلفى والأمامى للمبنى. كان هناك مدخلان على جانبى الرواق وكلاهما يؤدى لذات الغرفة الضخمة المقسمة فَصْلَين باستخدام ستار من قماش ذى نسيج غليظ كان الصفان الثانى والثالث على اليسار والصفان الأول والرابع على اليمين. هرعت إلى الجزء الخلفى من المبنى وانحرفت يمينًا، ثم انزلقت إلى مقعد فى الصف الثالث تشغله جريسى بيرسون وألما سكوت.

اعترضت جريسى قائلة: «لا يمكنك الجلوس هنا، فأنا أحجزه لمارى لو».

ألقيت نظرة سريعة خلفى فرأيت مارى لو ويلفر تضع وعاء غدائها بنظام على الرف فى آخر الغرفة وكان جوابى: «لكنه لم يعد محجوزًا بعد الآن».

حدقت الآنسة ديزى كروكر ذات البشرة المصفرة تجاهى بعينيها اللتين تشبهان عينى ذكر الظبى البرى من مكانها فى منتصف الغرفة بنظرة تقول: «هذا أنت إذن، كيسى لوجان»، ثم زمت شفتيها وسحبت الستار على القضيب الحديدى الصدئ ودستها فى حلقة واسعة بالحائط الخلفى.

حدق طلبة الصف الأول نحونا بتهكم عندما شد الستار وهم منتظرون بصبر حتى تتكلم الآنسة كروكر.

وكزتنى مارى لو قائلة: «هذا مكانى يا كيسى لوجان».

صاحت الآنسة كروكر بتصنع: «مارى لو ويلفر، اجلسى».

ردت مارى لو وهى تحدق فىَّ بنظرة تمتلئ كراهيةً قبل أن تنصرف: «نعم، سيدتى».

مشت الآنسة كروكر بتصلب حتى مكتبها الذى كان مستقرًّا على منصة، مكدسًا بأشياء ضخمة ومغطاة بمشمع. طرقت المكتب بمسطرة مع أن الغرفة كانت ساكنة تمامًا، وقالت: «أهلاً بكم يا أطفال إلى مدرسة جريت فيث الابتدائية».

التفتت جزئيًّا حتى تحدق بالجانب الأيسر من الغرفة وأكملت حديثها: «إلى كل طلبة الصف الرابع، إنه من الجيد أن تكونوا فى الصف الذى أدرسه. سأتوقع أشياء جيدة ومثيرة كثيرة منكم».

ثم التفتت لتخاطب الجزء الأيمن من الغرفة: «وإلى كل الأصدقاء الصغار فى الصف الأول الذين بدءوا اليوم لتوهم درب المعرفة والتعليم، ادعوا من أجل أن تجد أقدامكم الصغيرة سبيلاً مستقرًّا ودائمًا أمامكم للتعليم».

تملكنى الضجر من الآن، فقمت ببسط ذراعى اليمنى على المكتب وأسندت رأسى على يدى المعتدلة.

ابتسمت الآنسة كروكر ابتسامة آلية ثم طرقت المكتب بالمسطرة مرة أخرى. قالت مستمرة فى توجيه كلامها للصف الأول: «الآن أيها الصغار»، «إن الآنسة ديفيس، مدرستكم، تعطلت فى مدينة جاكسون لعدة أيام؛ لذا سيكون من دواعى سرورى أن أنثر أول بصيص للمعرفة فى عقولكم».

ابتسمت بابتهاج للطلبة كأنها منتظرة إطراءً منهم على هذه الأخبار وباستدارة من تضمن طلبة الصف الرابع استمرت فى كلامها:

«وحيث إنه الآن يوجد واحدة مثلى سنقوم ببعض التضحية هذه الأيام القليلة المقبلة. سوف نعمل ونعمل ونعمل مثل الصبية والفتيات الملتزمين الصغار وتشاركوا، تشاركوا، تشاركوا. هل نحن على استعداد للقيام بذلك؟».

تلازم الأطفال فى صوت واحد: «نعم يا آنسة كروكر».

لكننى التزمت الصمت. لم أكن أستحسن الردود الجماعية أبدًا. تنهدت بثقل وقمت بضبط رأسى فى يدى، كل ما كان يدور فى بالى هو حريق عائلة بيرى.

ـ «كيسى لوجان؟».

اعتدلت بإجفال.

ـ «كيسى لوجان!».

نهضت مسرعة لأدير وجهى تجاه الآنسة كروكر: نعم، آنستى؟

«ألست على استعداد للعمل والمشاركة؟».

ـ «نعم، آنستى».

ـ «إذن قوليها».

همهمت قائلة: «نعم، آنستى». وانزلقت مستندة إلى مقعدى حيث مارى لو وجريسى وألما كانوا يقهقهون. ها أنا تخطيت أول خمس دقائق من عامى الدراسى الجديد وقد وقعت فى مشكلة.

بحلول الساعة العاشرة كانت الآنسة كروكر قد رتبت أماكن جلوسنا وكتبت أسماءنا على لوحة المقاعد. كنت مازلت أجلس بجوار جريسى وألما لكنها نقلتنا من المقعد الثالث إلى المقعد الأول أمام موقد صغير له بطن كبير وواسع.

على الرغم من أن التصاقنا بالآنسة كروكر على هذا النحو لم يكن هو ما نتطلع إليه، لكن الأمل فى أن نحظى بالدفء حين يبدأ البرد، فالجو لم يكن شيئًا بسيطًا، لذا قررت أن أستفيد من هذا الوضع الملتبس.

قامت الآنسة كروكر الآن بتصريح مدهش: سوف نحصل جميعنا على كتب هذا العام.

انبهر الجميع، حيث إن كثيرًا من الطلبة لم يتعاملوا مع أى كتب إلا الكتاب المقدس لعائلاتهم، وأعترف أنه حتى أنا كنت متحمسة بشكل ما، على الرغم من أن أمى كانت تمتلك كتبًا كثيرة لكننى لم يكن لى كتاب خاص بى.

شرحت الآنسة كروكر فى حين انتظرنا متلهفين لحظة كشف الستار عن الكتب. «نحن نعتبر محظوظين جدًّا لحصولنا على كتب المطالعة تلك، قام المشرف العام للمدارس بالمقاطعة بإحضار الكتب بنفسها إلى هنا لنستخدمها، لذا علينا أن نعتنى بشدة بهذه الكتب». وتحركت تجاه مكتبها «دعونا نقطع وعدا على أنفسنا أن نهتم بهذه الكتب الجديدة بأفضل طريقة ممكنة».

أطالت التحديق بنا فى انتظار ردنا.

«حسنًا، هيا بنا نردد جميعا: نعد بأن نحافظ على كتبنا الجديدة بطريقة جيدة». ونظرت إلىَّ بحدة خلال كلامها. «نعد بأن نحافظ على كتبنا الجديدة بطريقة جيدة!».

ابتسمت الآنسة كروكر ببهجة ثم أزالت غطاء المشمع بفخر: «حسنًا».

بسبب موقع جلوسى القريب من مكتبها، استطعت أن أرى أن أغلفة الكتب من درجات الأحمر المتناقضة، كانت مستهلكة على نحو ردىء، وأن حدود

الصفحات الرمادية كانت مشوهة بأقلام الرصاص وأقلام الألوان والحبر. انحصرت توقعاتى فى الحصول على كتاب خاص بى إلى خيبة أمل كبيرة.

لكن الآنسة كروكر استمرت فى الابتسام ببهجة بينما هى تواصل استدعاء كل طالب من الصف الرابع إلى مكتبها ليحصل على كتابه، فى حين قامت بإعطاء كلٍّ منهم رقمًا فى دفتر سجلاتها.

حين عدت من رحلتى إلى مكتبها لاحظت أن طلاب الصف الأول يراقبون هذه الكومة المتلاشية بقلق وتشوق. لابد أن الآنسة كروكر لاحظت هذا أيضًا لأنها قالت حين جلست: «لا تقلقوا أيها الصغار، هناك الكثير من كتب المطالعة لكم أيضًا. انظروا إلى مكتب الآنسة ديفيس». التفتت العيون اليقظة إلى منصة التدريس المغطاة أمامهم مباشرة وانتشرت فى الغرفة تنهدات ارتياح مسموعة بوضوح.

وجدت أن وجه ليتل مان قد أضاء تلهفا وإثارة عندما وجهت نظرة خاطفة إليه. عرفت أنه لا يستطيع رؤية الأغلفة المتسخة أو الصفحات المشوهة من المكان الذى يجلس به، وبالرغم من أن ولعه بالنظافة أمر مزعج فلم أكن أريد التفكير فى الإحباط الذى سينتابه عندما يرى الكتب على حقيقتها. لكن لم يكن بيدى شىء أفعله، لذا فتحت كتابى فى منتصفه وبدأت أستعرض صفحاته المتسخة. حدق فى فتيات بضفائر شقراء وأولاد بعيون زرقاء من الكتاب. وجدت قصة تحكى عن ولد وكلبه مفقودين فى كهف فبدأت أقرؤها فى حين استمرت نبرة صوت الآنسة كروكر الرتيبة.

فجأة أدركنى الوعى عندما انقطعت هذه النبرة الرتيبة وانتبهت. كانت الآنسة كروكر تجلس على مكتب الآنسة ديفيس المكدس أمامها وهى تنظر بشراسة إلى ليتل مان الذى كان يعيد كتابًا إلى المكتب.

سألت الآنسة كروكر: «ما هذا الذى قلته يا كليتون تشستر لوجان؟».

صمتت الغرفة صمتًا مميتًا، وعرف الجميع فورًا أن ليتل مان وقع فى مشكلة كبيرة لأنه لا أحد يخاطب ليتل مان باسم «كليتون تشستر» إلا إذا كان يقصد أمرًا جللاً.

كان ليتل مان يعرف هذا أيضًا. انفرجت شفتاه جزئيًّا فى حين سحب يديه بعيدًا عن الكتاب. ارتجف، لكنه لم يحد بعينيه بعيدًا عن الآنسة كروكر. «قل ... قلت إنى أريد كتابًا آخر إذا سمحت لى سيدتى لأن هذا الكتاب متسخ» كان صوته أقرب إلى الصرير.

دوى صوت الآنسة كروكر، حيث صعقتها هذه الجرأة: «متسخ!». وقفت وهى تحدق فى ليتل مان مثل عملاق ناتئ العظام، لكن ليتل مان رفع رأسه واستمر ينظر فى عينيها.

«متسخ! ومن تظن نفسك يا كليتون تشستر؟ ها هى المقاطعة تعطينا هذه الكتب الرائعة خلال هذه الأوقات الصعبة وتقف أنت لتقول لى إن هذا الكتاب متسخ؟ إما أن تأخذ هذا الكتاب وإما لا تحصل على أى شىء مطلقًا!».

خفض ليتل مان عينيه ولم يقل شيئًا بينما حدق فى الكتاب. ظل واقفًا لمدة قصيرة حيث كان وجه بالكاد ظاهرًا من المكتب، ثم التفت ونظر إلى بقية الكتب، مدركًا أنهم أيضًا بنفس مستوى اتساخ الكتاب الذى أعطته إياه الآنسة كروكر، نظر إلى عبر الغرفة. حركت رأسى موافقة، وحدق ليتل مان فى الآنسة كروكر مرة أخرى، سحب الكتاب من طرف المكتب، عاد إلى مكان جلوسه بظهر مستقيم ورأس مرفوعة.

جلست الآنسة كروكر مرة أخرى. قالت بتجهم: «يبدو أن بعض الناس هنا يعطون لأنفسهم مظهرًا وقيمة. لن أتحمل مثل هذا السلوك بعد الآن، إرون ليك، تعالى خذى كتابك».

راقبت ليتل مان وهو ينطلق بسرعة إلى مكانه بجوار ولدين صغيرين آخرين. ظل جالسًا لفترة ووجهه أقرب لمظهر الحجر ينظر من خلال النافذة، من الواضح بعدها، أنه تقبل حقيقة أن الكتاب الذى أمامه هو أفضل ما يمكن أن يتوقع، التفت وفتحه. ولكن غمامة بدأت تظهر على وجهه حين كان يحدق فى الغلاف الداخلى للكتاب، متغيرًا من التقبل على مضض إلى الارتباك. تجعد حاجباه، ثم زادت عيناه اتساعًا، وفجأة شهق شهقةً وقفز من على مقعده مثل حيوان مجروح، طارحًا الكتاب أرضًا.

اندفعت الآنسة كروكر ناحية ليتل مان رفعته لأعلى بأيدٍ قوية، هزته بشدة، ثم أجلسته على الأرضية ثانية، والآن ماذا دهاك، يا كليتون شيستر.

لكن ليتل مان لم يقل شيئًا. فقط وقف محملقًا إلى الأرض، يرتعش من غضب شديد.

أمرته قائلة: «ارفعه».

قال ليتل مان فى إصرار: «لا».

لا؟ أمامك عشر ثوان لترفع هذا الكتاب يا ولد، وإلا سأعاقبك.

عض ليتل مان على شفته السفلى، وعرفت أنه لن يرفع الكتاب من الأرض. اتجهت بسرعة إلى الغلاف الداخلى للكتاب ورأيت فورًا ما أثار جنون ليتل مان. كانت هناك قائمة ملصقة على الغلاف الداخلى للكتاب، وكان محتواها:

ملك لمجلس التعليم

مقاطعة سبوكين، مسيسيبى

سبتمبر، 1922م

الترتيب الزمنى للإصدار	تاريخ الإصدار	حالة الكتاب	عرق الطالب
1	سبتمبر، 1922م	جديد	أبيض
2	سبتمبر، 1923م	ممتاز	أبيض
3	سبتمبر، 1924م	ممتاز	أبيض
4	سبتمبر، 1925م	جيد جدًا	أبيض
5	سبتمبر، 1926م	جيد	أبيض
6	سبتمبر، 1927م	جيد	أبيض
7	سبتمبر، 1928م	متوسط	أبيض
8	سبتمبر، 1929م	متوسط	أبيض
9	سبتمبر، 1930م	متوسط	أبيض
10	سبتمبر، 1931م	ضعيف	أبيض
11	سبتمبر، 1932م	ضعيف	أبيض
12	سبتمبر، 1933م	ضعيف جدًا	زنجى
13			
14			
15			

استمرت السطور الخالية حتى السطر ٢٠ وعرفت أنّها جميعًا محجوزة للطلبة الزنوج. تضخمت فى حلقى كتلة من الغضب ولم تتحرك. لكن الآنسة كروكر وجهت ليتل مان إلى الانحناء على مقعد «الضرب»، فوثبت إليه ضاربة بغضبى عرض الحائط.

قلت صارخة: «أرجوك آنسة كروكر لا تفعلى ذلك!». حذرتنى عينا الآنسة كروكر الداكنتان من التفوه بكلمة أخرى.

«أعرف لماذا قام ليتل مان بفعل هذا!».

ـ «هل تريدين طريحة من هذه العصا أيضًا يا كيسى؟».

قلت بعجلة: «لا يا سيدتى أريد فقط أن أخبرك لماذا فعل ليتل مان ما فعله».

أمرتنى بينما أسرعت تجاهها بالكتاب مفتوحًا فى يدى: «اجلسى!».

قلت لها وأنا ممسكة بالكتاب لتقرأه، «أترين يا آنسة كروكر، أترين ما المكتوب به. لقد أعطونا هذه الكتب القديمة لأنهم لا يريدونها بعد ذلك».

نظرت إلى بنفاد صبر، لكنها لم تنظر للكتاب. «كيف له أن يلم بالمكتوب فى الكتاب؟ إنه لا يستطيع القراءة».

ـ «بلى، سيدتى، يستطيع. إنه بدأ القراءة منذ أن كان فى الرابعة من عمره. إنه لا يستطيع قراءة تلك الكلمات الكبيرة لكنه يستطيع قراءة العواميد. انظرى إلى المكتوب فى الصف الأخير، أرجوك آنسة كروكر».

هذه المرة نظرت الآنسة كروكر إلى الكتاب لكن تعبيرات وجهها لم تتغير، ثم حدقت بى دون أن ترمش عيناها وهى رافعة رأسها.

ـ «أ...أترين كيف يلقبوننا» قلت ذلك، خائفة من أنها لم ترَ.

قالت ببرود: «هذا هو ما أنت عليه، الآن اذهبى إلى مكانك».

هززت رأسى، مدركة الآن أن الآنسة كروكر لم تعرف حتى ما أتحدث عنه. لقد نظرت إلى الصفحة ولكنها لم تعِ شيئًا.

قالت: «اجلسى مكانك يا كيسى!».

اتجهت ببطء تجاه مكتبى، لكن حين بدأت عصا الجوز فى قطع هواء الغرفة الملىء بالتوتر، التفت عائدة إلى حيث كنت. قلت: «آنسة كروكر، أنا أيضًا لا أريد كتابى».

نزلت العصا على مؤخرة ليتل مان المنقلبة. نظرت الآنسة كروكر إلىَّ بتساؤل حينما وصلت إلى مكتبها ووضعت الكتاب عليه، ثم هزت عصاها خمس مرات أخرى ومكتشفة أن ليتل مان لم يكن لديه النية للبكاء، أمرته بالاعتدال.

تنهدت ملتفتة إلى: «حسبك يا كيسى! تعالى وخذى حظك».

قررت مع نهاية اليوم الدراسى أن علىَّ أن أخبر أمى بكل شىء قبل أن تحظى الآنسة كروكر بذلك. تعلمت خلال تسع سنوات من التجربة والخطأ، أن العقوبة تكون أقل حدة عندما أسكب الحقيقة كلها عند أمى من تلقاء نفسى قبل أن تسمع أى شىء من أى شخص آخر. عرفت أن الآنسة كروكر لم تحظ بفرصة لتحكى لأمى خلال فترة الغداء لأنها قضت كل تلك الفترة فى التحضير لحصة ما بعد الظهيرة.

بمجرد أن انتهى الصف، ركضت من الغرفة، أشق طريقى خلال جماهير الطلاب السعداء بالحرية. لكن قبل وصولى إلى مبنى الصف السابع، حدث لى اصطدام شؤم بوالد مارى لو.

نظر السيد ويليفير إلىَّ بدهشة لأننى اصطدمت به فعلاً، وراح يحاضرنى عن فضائل أن ينظر المرء أين هو ذاهب. فى هذه الأثناء عبرت الآنسة كروكر المرج إلى

مبنى أمى. كانت قد اختفت فى بهو المبنى فى الوقت الذى استطعت فيه الفرار من السيد ويليفير.

كان صف أمى فى آخر المبنى. زحفت فى هدوء عبر البهو الصامت واسترقت النظر بحذر إلى مدخل الباب المفتوح. سحبت أمى خصلة من شعرها الطويل المجعد المتدلى إلى تسريحة الشنيون فى آخر رقبتها الهيفاء. كانت أمى جالسة فى مكتبها وهى تراقب الآنسة كروكر تزج بكتاب أمامها.

ـ «انظرى إلى هذا يا مارى» قالت الآنسة كروكر ذلك وهى تنقر الكتاب مرتين بسبابتها.

ـ «كتاب جيد جدًّا تم تدميره. انظرى إلى كعب الكتاب المكسور وكل علامات الأقدام التى عليه».

لم تتكلم أمى خلال دراستها للكتاب.

ـ «وها هو الكتاب الذى رفضت كيسى استلامه» قالت ذلك وهى تضع الكتاب الثانى على مكتب أمى بخبطة غضب.

«على الأقل لم تُصِبْها نوبة غضب وراحت تدهس كتابها هى الأخرى. أقول لك يا مارى، لا أعرف ما أصاب هؤلاء الأطفال اليوم. كنت دائمًا أعلم أن كيسى صعبة المراس، لكن ليتل مان! هو دائمًا مثال للرجل المهذب».

ألقت أمى نظرة سريعة على الكتاب الذى رفضته أنا وفتحت الغلاف الأمامى لكى تكون كلتا الصفحتين المنتهيتين للكتابين نصب عينيها. سألت أمى بهدوء: «ذكرت أن كيسى رفضته بسبب الغلاف الأمامى وأنها هى وليتل مان لا يريدان الكتب؟».

«نعم، أليس هذا شيئًا؟».

ردت الآنسة كروكر متناسية أسلوب مدرسة تدريب المعلمين فى تعبيرها عن غضبها. «هى ذات الفكرة! ذلك موجود فى كل الكتب، ولن أعرف أبدًا لماذا استاء هكذا من المذكور».

سألت أمى وهى تنظر إلى الآنسة كروكر: «هل عاقبتهما؟».

أضافت دفاعا عن نفسها عندما لم تجب أمى «بالطبع قمت بذلك! ضربت كليهما جيدا بعصا الجوز. ألم تكونى لتفعلى ذلك لو كنت مكانى؟، كان لى الحق الكامل لأفعل ذلك».

قالت أمى موجهة اهتمامها مرة أخرى للكتب: «بالطبع لك الحق يا ديزى، لقد تمردا عليك». لكن نبرة صوتها كانت هادئة جدًّا ومراوغة حتى إنه وضح لى أن الآنسة كروكر لم ترضَ برد فعلها.

ـ «حسنًا، اعتقدت أنك تريدين أن تعلمى بما حدث يا مارى فى حال إذا أردت توبيخهم أيضًا».

ابتسمت أمى للآنسة كروكر وقالت بشرود: «أجل، بالطبع يا ديزى. شكرا». ثم فتحت درج مكتبها وأخرجت بعض الورق ومقصًا وزجاجة صغيرة بنية اللون. تحيرت الآنسة كروكر من مظهر أمى غير المبالى لجدية الموضوع، فدفعت بكتفيها للخلف وبدأت تتحرك بعيدا عن المكتب. «أنت تعنى أنهم إذا لم يكن معهم هذه الكتب للدراسة منها، فسأضطر إلى إعطائهم درجات رسوب فى كلٍّ من مادتى القراءة والتعبير لأننى أنوى أن أبنى كل دروسى على منهج الـــ». توقفت فجأة وراحت تحدق بذهول بأمى «مارى، بحقك ما الذى تفعلينه؟».

لم تجب أمى. قامت بتسوية الورق إلى حجم الكتب وكانت الآن تغمس صمغًا رمادى اللون

من الزجاجة البنية على الغلاف الداخلى لأحد الكتب. ثم أخذت الورقة ووضعتها على الصمغ.

«مارى لوجان، هل أنت على وعى بما تفعلينه؟ هذا الكتاب ملك للمقاطعة. إذا حضر إلى المدرسة شخص من مكتب المشرف ورأى هذا الكتاب، ستكونين فى مأزق كبير».

ضحكت أمى والتقطت الكتاب الآخر. «فى المقام الأول، لا أحد يهتم بأن يأتى إلى هنا، وفى المقام الثانى، إذا حضر أحد إلى هنا، فربما يستطيع أن يرى كل الأشياء التى نحتاجها - كتبًا معاصرة لجميع المواد وليس فقط نفايات الآخرين القديمة من مكاتب وورق وسبورات ومحايات وخرائط وطباشير..». خمد صوتها فى حين كانت تلصق الكتاب الثانى.

ـ «تعضين اليد التى تطعمك، هذا هو ما تفعلينه يا مارى لوجان، تعضين اليد التى تطعمك».

ضحكت أمى مرة أخرى: «إذا كان هذا هو الوضع يا ديزى، فإنى لا أحتاج إلى فتات الطعام هذا». وبانتهائها من الكتاب الثانى، بدأت برزمة صغيرة من كتب الصف السابع التى كانت على مكتبها.

«حسنًا، أعتقد أنك تفسدين سلوك هؤلاء الأطفال يا مارى. يجب أن يعلموا بالأمور كما هى فى وقت ما».

قالت أمى: «ربما، لكن هذا لا يعنى أنه عليهم تقبلها... وربما علينا نحن أيضًا».

حدقت الآنسة كروكر بشك فى أمى. بالرغم من أن أمى كانت تدرس بمدرسة جريت فيث طيلة أربعة عشر عاما، ومنذ تخرجها من مدرسة كراندون

لتدريب المدرسين منذ كانت فى التاسعة عشرة من عمرها، كان كثير من المدرسين لايزالون يعتبرونها كشخص مزعج خارج عن تفكير مجموعته.

أفكارها كانت ثورية أكثر من اللازم وكانت تصريحاتها واضحة أكثر من اللازم. وكان واقع أنها لم تكبر فى مقاطعة سبوكين ولكن فى بلده دلتا جعلها أكثر عرضة للشكوك، وكان أصحاب الفكر التقليدى أمثال الآنسة كروكر أكثر وعيًا بها.

قالت الآنسة كروكر: «حسنًا، إذا صادف حضور شخص ما من المقاطعة ورأى كتب ليتل مان وكيسى مشوهة هكذا؛ فإنى بالطبع لن أقبل مسئوليتهم».

«سيكون من السهل جدًّا لأى أحد أن يميز من تقع عليه هذه المسئولية، يا ديزى، إذا قاموا بفتح أى كتاب للصف السابع. لأننى غدا سأقوم بتشويه جميع كتب الصف السابع بهذا الشكل أيضا».

التفتت الآنسة كروكر بتغطرس بعد أن لم تجد أى شىء آخر تستطيع قوله واتجهت إلى الباب. انطلقت بسرعة عبر الرواق وانتظرت خروجها ثم انسلت عائدة.

مكثت أمى بمكتبها جالسة بلا حراك. لم تتحرك لفترة طويلة. عندما تحركت، رفعت أحد كتب الصف السابع وبدأت تكمل لصقه. أردت أن أذهب لأساعدها لكن شيئًا ما أنذرنى أن الآن ليس الوقت المناسب لأعلمها بوجودى، فغادرت.

سأنتظر حتى المساء كى أحادثها؛ لا يوجد داعٍ للعجلة الآن فقد تفهمت.

2

حذرتنى الجدة الكبيرة واضعة يدًا كبيرة خشنة وراء ظهرى لتتأكد أنى لن أقع «كيسى، من الأفضل أن تنتبهى لنفسك يا فتاة».

نظرت إلى جدتى. نظرت إليها من على إحدى الأعمدة التى نصبها أبى ليحدد بها طول حقل القطن. كانت الجدة الكبيرة والدة أبى طويلة مثله وذات بنية صلبة. كانت بشرتها الناعمة الصافية بلون قشرة البيكان(*) البنية. تهكمت: «آه يا جدة لا تقلقى، لن أقع» ثم تسلقت المسمار التالى ووصلت إلى انتفاخ طفيف بأعلى ساق نبتة قطن طويلة.

(*) البيكان: ثمرة لها قشرة، مثل البندق واللوز .

تذمرت الجدة الكبيرة: «من الأفضل أن لا تقعى يا فتاة، أتمنى أحيانا أن يكون لدينا قطن منخفض حول فيكس-برج».

نظرت حولها ويدها فى خصرها: «لا أحب أن أراكم يا أطفالى تتسلقون تلك الأشياء» كان كريستوفر جون وليتل مان على مسافة أبعد فى الحقل، وكانوا محافظين على توازنهم بمهارة عالية على المسامير السفلى لعاموديهما نازعين آخر زهور القطن، لكن ستيسى لعدم استطاعته تسلق العامود بسبب ثقل وزنه، كان مرغما على أن يبقى على الأرض. راقبتنا الجدة الكبيرة مرة أخرى، وبكيس من الخيش محمول على كتفها اليمنى ومتدلٍ عند خاصرتها اليسرى، تحركت تجاه أمى: «مارى يا طفلتى، أظن أن ما جمعناه من القطن اليوم يستحق رزمة أخرى».

كانت أمى منحنية على فرع قصير من القطن. حشت زهرة أخيرة من القطن فى كيسها واستقامت. كانت بشرتها بلون السمار الفاتح وكانت رشيقة وقوية البنية، بملامح دقيقة فى وجه ذى فك قوى، وبالرغم من أن طولها كان مماثلاً لطول الجدة الكبيرة فإنها كانت تبدو كالقزم بجوارها. قالت أمى: «أعتقد أنك على حق يا أمى، هيا يا منداى، يجب أن ننقله بالعربة إلى مكان جرينجر حتى يتم حلجه. ثم نستطيع بعدها - كيسى، ما الأمر؟».

لم أرد على أمى. كنت قد تحركت إلى أقصى قمة لعامودى وبذلك استطعت أن أرى ما وراء الحقل حتى الطريق، حيث كان يمشى به شخصان بخفة، أحدهما أطول بكثير من الآخر. أصبحت معالم الرجلين أكثر وضوحا عندما دارا عند منحنى الطريق. كانت فى طريقة المشى السلسة للرجل القصير شيئًا مألوفا جعلنى أشهق. أغمضت عينى قليلا وأظللت عينى من الشمس، ثم انزلقت بسرعة البرق من على العامود.

ـ «كيسى؟».

ـ «إنه أبى!».

تساءلت أمى غير مصدقة فى حين نزل ليتل مان وكريستوفر جون وركضا ورائى أنا وستيسى بشغف نحو سياج السلك الشائك «ديفيد؟».

نادت الجدة الكبيرة وراءنا: «لا تعبروا كلكم خلال هذا السياج!».

لكننا تظاهرنا بأننا لم نسمع. أمسكنا بالصفين الثانى والثالث من السلك الشائك كى نعبر خلاله، ثم انطلقنا نحن الأربعة على الطريق نحو أبى.

حين رآنا، بدأ أبى يركض بسرعة وبخفة مثل الريح. ليتل مان، أول من وصله، وبما أن ليتل مان هو أول من وصل لأبى، فقد حمله من الأرض بيديه القويتين، فى حين تجمعنا أنا وكريستوفر جون وستيسى حوله.

سأل ليتل مان: «أبى، ماذا أتى بك عائدا إلى البيت؟».

قال أبى، واضعا ليتل مان أرضا: «كان على أن أعود لأتفقد أطفالى». وقام باحتضان كل واحد منا ثم رجع إلى الخلف خطوة. «انظروا إلى شكلكم كلكم»، قال بفخر: «ألم تتغيروا؟ من الصعب أن أناديكم بأطفال الآن». التفت: «ما رأيك يا سيد موريسون بأطفالى؟».

لم نلتفت للرجل الآخر الذى كان يقف على جانب الطريق فى خضم إثارتنا. لكن الآن ونحن ننظر إلى أكبر مخلوق رأيناه فى حياتنا، تجمعنا حول أبى.

كان الرجل يمثل شجرة بشرية بطوله، وهو يتعدى طول أبى من ٦ أقدام وبوصتين بمراحل. كان جسد هذا الطول الشاهق منتفخًا بالعضلات، وكانت بشرته ذات لون الأبانوس القاتم بها ندبات بوجهه ورقبته، كما لو كانت بفعل الحرق. كان وجهه مشققًا بخطوط عميقة.

وكان شعره ملطخًا باللون الرمادى، لكن عينيه كانتا صافيتين وثاقبتين. رمقت الأولاد ورأيت أنهم أيضًا يتساءلون عن نفس الشىء مثلى: من أين أتى هذا المخلوق؟

قال أبى: «يا أطفال، أعرفكم بالسيد تى إل موريسون».

همس كل منا بـ(أهلا) ضعيفة للعملاق، ثم بدأنا نحن الستة نمشى فى الطريق نحو البيت. قابلتنا أمى والجدة الكبيرة قبل وصولنا للمنزل. عندما رأى أبى أمى، تحول وجهه المربع ذو عظم الخد المرتفع، إلى ابتسامة عريضة ثم رفع أمى بحيوية بالغة ودار بها مرتين قبل أن يعيدها للأرض ويقبلها.

سألت أمى: «ديفيد، ما الخطب؟».

ضحك أبى: «أيجب أن يكون هناك خطب يا امرأة عندما أعود لأراكم؟».

ـ «هل وصلتك رسالتى؟».

أومأ أبى برأسه، ثم احتضن الجدة الكبيرة وقبلها قبل أن يعرفهم بالسيد موريسون.

عندما وصلنا إلى البيت، تسلقنا المرجة الطويلة المائلة إلى الشرفة، ثم دخلنا إلى غرفة أبى وأمى التى كانت أيضًا تعتبر غرفة المعيشة. قدمت أمى كرسى جدى لوجان للسيد موريسون كى يجلس وكان عبارة عن كرسى هزاز ذى وسائد من خشب البلوط وكان جدى صنعه بيده بمهارة؛ لكن السيد لوجان لم يجلس فورًا. بدلا من ذلك وقف يتفرس الغرفة.

كانت غرفة دافئة ومريحة بها أبواب وخشب وصور. يستطيع المرء أن يخرج منها للشرفة الأمامية أو الجانبية، للمطبخ، وغرفتى نوم أخريين. كانت حوائطهما مصنوعة من البلوط الأملس، وكانت هناك لوحات ضخمة معلقة لجدى والجدة

الكبيرة، أبى والعم هامر عندما كانا أطفالاً، أخوا أبى الكبيران، ولكنهم توفوا الآن، وصور لعائلة أمى. كان الأثاث صنع آل لوجان من خشب البلوط والجوز، من ضمنه سرير مصنوع من خشب الجوز بظهر مزخرف يصل طوله لنصف الحائط ذى السقف العالى، وشيفونية لها مرآة بطول الأرض، ومكتب ضخم كان فيما مضى ملكا لجدى لكنه الآن لأمى، وأربعة كراسى من البلوط، اثنان منهما هزازان، صنعهما جدى كهدية زفاف لجدتى.

أومأ السيد موريسون عندما استوعب كل هذا، كأنه يوافق عليه، ثم جلس من الجانب الآخر لأبى أمام موقد النار المطفأ. سحبت أنا والأولاد كراسى ذات ظهر مستقيم إلى جانب أبى حين سألت الجدة الكبيرة: «كم ستبقى هنا يا ولدى؟».

نظر أبى تجاهها، قال بهدوء: «حتى مساء الأحد».

«الأحد!» تعجبت أمى. «لكن اليوم السبت».

قال أبى ممسكا يدها فى يده: «أعرف يا عزيزتى، لكننى يجب أن أستقل القطار الليلى القادم من فيكسبرج حتى أستطيع أن أعود للعمل صباح الاثنين».

تذمرت أنا وكريستوفر جون وليتل مان بصوت عالٍ والتفت أبى نحونا. قلت له: «أبى، ألا تستطيع أن تبقى مدة أطول من هذا؟ آخر مرة عدت فيها للمنزل، مكثت معنا أسبوعًا».

سحب أبى إحدى جدائلى برفق: «آسف يا فتاتى كيسى، لكن إن مكثت أطول من هذا، فقد أفقد عملى».

ــ «لكن، أبى...».

قال أبى وهو ينظر لى وللأولاد وأمى والجدة الكبيرة: «اسمعوا كلكم لقد عدت للبيت خصيصًا لأحضر السيد موريسون. سيبقى معنا لفترة».

إذا كانت أمى والجدة الكبيرة قد صدمتا من كلمات أبى، فإنهما لم يظهرا ذلك، لكن أنا والأولاد نظرنا لبعضنا بعيون واسعة، ثم إلى العملاق.

استمر أبى فى الكلام «لقد فقد السيد موريسون عمله بالسكة الحديد منذ فترة، ولم يستطع منذ ذلك الحين الحصول على عمل آخر. وعندما سألته إذا كان يحب أن يعمل هنا كأجير، أبدى استعدادا. أخبرته أننا لا نستطيع أن نقدم له الكثير - الطعام والمأوى وبعض الدولارات عندما أعود فى الشتاء».

التفتت أمى نحو السيد موريسون وتفحصته قليلا، وقالت: «أهلا بك فى منزلنا يا سيد موريسون».

قال السيد لوجان بصوت عميق وهادئ مثل دوى الرعد: «يا سيدة لوجان! أعتقد أن عليك أن تعرفى سبب فقدى لعملى. لقد دخلت فى عراك مع بعض الرجال ... وضربتهم ضربًا مبرحًا».

حدقت أمى بعينى السيد موريسون العميقتين: «غلطة من كانت؟».

حدق السيد موريسون بها أيضًا: «أنا أقول إنها كانت غلطتهم».

«هل طرد رجال آخرون غيرك؟».

أجاب السيد موريسون: «لا يا سيدتى؛ كانوا ذوى بشرة بيضاء».

أومأت أمى ثم وقفت: «شكرًا لإخبارى يا سيد موريسون. من حظك أنه لم يحدث ما هو أسوأ ونحن مسرورون لكونك معنا هنا ... وخاصة فى هذا الوقت».

ثم التفت وذهبت تجاه المطبخ مع الجدة الكبيرة لتحضير طعام العشاء، تاركة الأولاد وأنا أتساءل عن معنى كلماته الأخيرة.

سألته حين كنا نحلب الأبقار فى المساء: «ستيسى، ما رأيك؟ لماذا عاد أبى إلى البيت وأحضر السيد موريسون؟».

هز ستيسى كتفيه: «كما قال على ما أعتقد».

فكرت فى ذلك للحظة: «لم يحدث من قبل أن أحضر أبى أحدًا إلى هنا».

لم يجب ستيسى.

ـ «هل تعتقد ... ستيسى، هل تعتقد أنه بسبب الحرائق التى كان يتحدث تى جيه عنها؟».

ـ «حرائق؟!» جاء صوت ليتل مان الرفيع، والذى قاطع إطعامه للدجاج ليزورنا مع ليدى، فرستنا الذهبية اللون.

ـ «ما دخل الحرائق بأى شىء آخر؟».

ـ «الحرائق التى حدثت عند رافد سميلينج».

قال ستيسى ببطء متجاهلا ليتل مان: «أبى ليس بحاجة ليفكر ..». خمد صوته وتوقف عن حلب البقرة.

سألت: «يفكر بماذا؟».

همهم ستيسى، عائدا إلى البقرة «لا شىء لا تقلقى بهذا الشأن».

حملقت به: «إنى لست قلقة. أريد فقط أن أعرف، هذا كل شىء، أراهنك أن حضور السيد موريسون هنا ليس فقط للعمل. إنى حقًا أتمنى لو كنت أعرف».

لم يجب ستيسى، لكن كريستوفر جون بيديه القصيرة والبدينة مملوءة بالذرة الجافة للدجاج، قال: «أ - أنا أعرف ما أتمناه. أتمنى ألا يكون أبى مضطرًا أبدًا إلى العودة إلى هناك. أتمنى فقط أن يبقى ... ويبقى ..».

فى صباح اليوم التالى بالكنيسة، مالت السيدة سيلاس لينر علىَّ وهمست بأذن الجدة الكبيرة: «توفى جون هنرى بيرى ليلة أمس». قام شماسو الكنيسة بالصلاة لروح جون هنرى بيرى عندما أعلن الخبر لجماعة المصلين، والدعاء لأخيه بيكون، وعمه السيد صامويل بيرى بالشفاء. لكن بعد انتهاء مراسم الكنيسة، وعندما عرج بعض الأعضاء على البيت للزيارة، قيل الكثير من الكلمات مليئة باليأس والغضب.

قال السيد لينر: «حسب علمى إنهم كانوا يسعون وراء جون هنرى منذ أن عاد من الحرب واستقر محل أبيه فى سميلينجز كريك. كان له مكان صغير وجميل هناك أيضًا وكانت حياته تسير على ما يرام. لقد ترك خلفه زوجة وستة أطفال».

هزت الجدة الكبيرة رأسها «إنه مجرد مكان غير مناسب فى الوقت غير المناسب».

جلست أنا والأولاد على طاولة الدراسة نتظاهر بأننا لا نسمع، ولكننا ما زلنا نستمع لكل كلمة.

قالت السيدة لينرهنريتا توجينز: تعرفون أخت كلارا ديفيس التى تعيش هناك فى ستروبيرى؟ حسنًا، هى على قرابة لآل بيرى وكانت مع جون هنرى وبيكون عندما نشبت المشاكل. كانوا فى طريقهم لتوصيلها للمنزل. تعرفون أن جون هنرى لديه شاحنة صغيرة قديمة - لكنهم كانوا بحاجة للتزود بالوقود فتوقفوا عند محطة وقود هناك فى ستروبيرى. كانوا هناك منتظرين أن يتزودوا بالوقود حين أتى نحوهم رجال بيض يحاولون التحرش بهم - وكانوا ثملين،أنتم تعلمون. وسمعتهم هنريتا يقولون، هذا هو الزنجى الذى قالت سالى إنه كان يغازلها. وعندما

سمعت هذا، قالت لجون هنرى : «هيا بنا نذهب من هنا». كان يريد أن ينتظر حتى يتزود بالوقود، لكنها جعلته هو وبيكون يرجعان إلى السيارة، ولكن هؤلاء الرجال كانوا يراقبونهم وهم يبتعدون ولم يعبئوا معهم حينها.

«أوصلها جون هنرى إلى المنزل وتوجه نحو منزله، لكن من الواضح أن هؤلاء الرجال لحقوا به وبيكون مرة أخرى وبدءوا يصدمون مؤخرة سيارتهم بقوة - هذا ما قاله جون هنرى لعمه وعمته حين رأوهم. كان جون هنرى يعلم أن الوقود بدأ ينفد منه وكان خائفًا ألا يصل إلى بيته، لذا توقف عند منزل عمه. لكن هؤلاء الرجال جروه هو وبيكون من المنزل ، وعندما حاول الرجل الكبير بيرى أن يوقف ما يحدث، قاموا بإشعال النار به مع هؤلاء الأولاد».

قال والدتى جيه،وهو رجل هزيل ومريض بسعال جاف: «هذا حقا مخز للغاية، هؤلاء الأشخاص أصبحوا فى شدة السوء هنا، سمعت أنهم قاموا بإعدام فتى دون محاكمة قبل عدة أيام فى كروستون».

قال السيد لينر: «ولن نقوم بفعل شىء تجاه ما يحدث، هذا أسوأ ما فى الموضوع! عندما ذهبت هنريتا لتخبر عميد الشرطة بما رأت، نعتها بالكاذبة وأرسلها إلى المنزل. والآن أسمع حكايات أن الرجال الذين قاموا بذلك يتباهون بالحديث عما فعلوه. قالوا إنهم سيفعلون ذلك مرة أخرى إذا خرج زنجى آخر معتد بنفسه عن حدوده».

قامت السيدة أفرى بزم شفتيها: «فليرحمنا الرب!».

جلس أبى بمنتهى الهدوء طوال حديثه إلى أفرى ولينر، وهو يرمقهم بعيون جادة. أخيرا أخرج الغليون من فمه وقام بتصريح بدا لى وللأولاد غير مرتبط بتاتا بالحوار الجارى: «نحن فى هذه العائلة، لا نتبضع من متجر والاس».

أصبحت الغرفة صامتة تمامًا. حدقت أنا والأولاد البالغون متعجبين لهذا. نظر آل لينر وأفرى إلى بعضهم بارتباك وعندما كسر الصمت، كان موضوع الحديث قد تغير إلى خطبة اليوم.

نادانا أبى، بعد أن غادر آل لينر وأفرى: «قالت لى أمكم إن كثيرًا من الأطفال الأكبر سنًّا بالمدرسة يذهبون إلى متجر والاس هذا بعد المدرسة للرقص ولشراء شراب كحولى غير شرعى ولتدخين السجائر. قالت أمكم إنها حدثتكم عن هذا قبلا، لكننى سأقولها لكم مرة أخرى، فاستمعوا جيدا. نحن لا نريدكم أن تذهبوا إلى ذلك المكان. إن الأطفال الذين يذهبون إلى هناك سوف يوقعون أنفسهم فى مشاكل كبيرة يوما ما. هناك سكر كثير فى هذا المكان وأنا لا أحب ذلك - ولا أحب آل والاس أيضًا. وإذا جاء إلى علمى فى يوم من الأيام أنكم ذهبتم إلى ذلك المكان، لأى سبب من الأسباب، فسوف أضربكم ضربًا مبرحًا. أتسمعوننى جيدًا؟».

كان رد كريستوفر جون جاهزًا: «نعم، أبى لن أذهب إلى ذلك المكان أبدًا فى حياتى».

وافقنا جميعًا على هذا الكلام، كان أبى دائمًا يعنى ما يقوله - ولوح بعصا مخيفة.

3

مع نهاية شهر أكتوبر، تساقط المطر بغزارة على طبقة من الغبار سمكها ست بوصات، والتى كانت لها طريقتها لأكثر من شهرين. فى البداية كانت الأمطار تلطخ الغبار قليلاً، والذى كان يبدو أنه مبتهج بمرونته وضاحك على القطرات الثقيلة التى تجلجل فوقه؛ لكن أخيرًا اضطر الغبار إلى الاستسلام لسيادة المطر وتحول إلى زبد من طين أحمر كان ينز من بين أصابع أقدامنا وتمرغ على كاهلنا أثناء مسيرتنا البائسة من المدرسة وإليها.

وزعت أمنا جلود العجل الجافة علينا لحمايتنا من الأمطار، وكنا نطرحها على أكتافنا ورءوسنا مثل العباءات المتصلبة. لم نكن مغرمين بتلك الجلود، لأنها كانت ما تلبث أن تبتل، كما كانت تصدر عنها رائحة عفن ترشح على ملابسنا وتلتصق بأجسادنا. كنا نفضل أن نقضى الشتاء بدونها ،لكن لسوء الحظ كانت أمى تهتم قليلا لما نفضله نحن.

بما أننا كنا نغادر للمدرسة بعد أمى، فقد حللنا هذه المشكلة بارتدائنا هذه العباءات طاعة لها قبل مغادرتنا للمنزل. لكن حالما كنا نبعد عن نظر الجدة الكبيرة الحاد كنا نقوم بخلع هذه العباءات واعتمدنا على فروع أشجار الغابة الوارفة لتحافظ علينا من المطر. ولدى وصولنا للمدرسة ارتدينا العباءات مرة أخرى وسرنا نحو فصولنا بكامل هيئتنا.

لو كانت العقبة الوحيدة التى تواجهنا كل صباح ومساء هى تشبع ملابسنا بالأمطار، لتحملنا الرحلة بين البيت والمدرسة كل يوم. لكن كما هو الحال، علينا أن نقلق بشأن حافلة مدرسة جيفرسون ديفيس وهى تطير مسرعة من ورائنا وتلطيخها لنا بماء الطريق الموحل. وعلمنا أن سائق الحافلة كان يسلى ركابه بدفعنا للانزلاق من الطريق إلى جدول النهر الذى يصعب الوصول إليه بسبب هذه الأمطار المستمرة، فكان يجب علينا أن ننظر وراء ظهرنا عند وصولنا لتقاطع الطريق حتى نرى إمكانية وصولنا للجدول قبل أن تدركنا الحافلة، لكن أحيانًا كانت الأمطار تهطل بغزارة لدرجة أن كل ما نستطيع أن نفعله هو الوقوف مستقيمين، فلا نستطيع أن ننظر خلفنا كثيرًا أو أن نستمع بحرص كما ينبغى علينا؛ وبالتالى وجدنا أنفسنا عرضة للسخرية من عيون المشاهدين القاسية التى لم تضع أى اعتبار لمأساتنا.

لم يستثط غضب أحد لهذا الإذلال أكثر من ليتل مان. بالرغم من أنه سأل أمى بعد أول يوم دراسة له عن سبب وجود حافلتين خاصتين بمدرسة جيفرسون ديفيس وعدم وجود واحدة حتى لمدرسة جريت فيث،فإنه لم يكن أبدًا مقتنعا بإجابتها. قد شرحت أمى له، كما شرحت لكريستوفر جون العام الذى سبقه ولى بعامين قبل ذلك، بأن المقاطعة لم توفر حافلات لطلابها من الزنوج. قالت: «فى الواقع،إن المقاطعة كانت توفر القليل جدًّا وإن معظم الأموال كانت تأتى من الكنائس التى يرتادها الزنوج. ولأن كنيسة جريت فيث كان يصعب عليها توفير حافلة لنا، فقد كان علينا أن نلتزم بالمشى».

هذه المعلومات أثرت فى تفكير ليتل مان كثيرًا، وكان يزيده مرارة حين يجد ملابسه النظيفة كل يوم ملطخة بالطين الأحمر من جراء الحافلة، حتى انفجر فى يوم حين دخل إلى المطبخ قائلاً: «لقد فعلوها مرة أخرى يا جدة! انظرى إلى ملابسى!».

غمغمت الجدة الكبيرة بلسانها حين كانت تتفحصنا. «حسنًا، اذهبوا وبدلوا هذه الملابس يا أحبائى، واغسلوها. هيا كلكم، بدلوا تلك الملابس وجففوا أنفسكم»، قالت هذا عائدة بانتباهها إلى الموقد لتحرك يخنتها.

شكا ليتل مان: «لكن يا جدة، هذا ليس عدلا! إنه ليس عدلا».

ذهب كريستوفر جون وستيسى ليبدلوا ملابسهم ويرتدوا ملابس العمل، لكن ليتل مان جلس على مقعد جانبى فى كآبة شديدة وهو يحدق بسرواله الأزرق الباهت المكسو بقشرة من الطين من ركبتيه لأسفل. مع أن الجدة الكبيرة كانت كل ليلة تحضر قدرًا مليئًا بماء ساخن به صابون من أجله لتغسل له ملابسه، فقد كان يصل كل يوم إلى المنزل كأن سرواله لم يغسل منذ أكثر من شهر.

لم تكن الجدة لتدلل أيًّا منا، لكنها الآن تركت الموقد ومسحت يديها بمئزرها الأبيض، وجلست على المقعد واضعة يديها حول ليتل مان: « الآن انظر إلى يا صغيرى إنها ليست نهاية العالم. بالله عليك يا غلام، ألا تعلم أن الشمس ستشرق مرة أخرى ولن تلطخ بالطين مرة أخرى؟».

احتج ليتل مان: «لكن يا جدة إذا أبطأ سائق الحافلة هذه، ما كان ليحدث لى هذا!». ثم عبس بشدة وأضاف: «أو لو كان لدينا حافلة مثلهم؟».

قالت الجدة الكبيرة وهى تنهض: «حسنًا لن يتغير شيء كهذا لا من ناحيتك ولا من قبلهم، لذا ليس هناك من فائدة من الغضب تجاه ذلك. سيكون لك فى يوم من الأيام الكثير من الملابس وحتى سيارة ملك لك تسير بها فى كل مكان، لذا لا تعر هؤلاء الجهلة البيض اهتماما. استمر فى دراستك واحصل على تعليم جيد ليكون كل شيء على ما يرام. الآن اذهب واغسل ملابسك وانشرها بجوار الموقد حتى أستطيع أن أكويها لك قبل أن أذهب للنوم».

لحتنى الجدة الكبيرة وهى تستدير: «كيسى، ماذا تريدين يا فتاة؟ اذهبى وارتدى سروالك وعودى مسرعة إلى هنا حتى تساعدينى فى إعداد طعام العشاء هذا ووضعه على المائدة قبل أن تعود أمك إلى المنزل».

فى هذه الليلة عندما كنت متدثرة فى السرير المنجد بالريش بجوار الجدة الكبيرة، تحول نقر المطر البسيط على السطح الصفيح إلى زئير أصم حيث كان يبدو كأن آلاف الأحجار الكبيرة تهوى على الأرض. تحول المطر الغزير فى الصباح إلى رذاذ، لكن الأرض كانت مخضلة بشكل سيئ من جراء انهمار المطر بالأمس. كانت هناك تدفقات عالية من الماء الممزوج بالوحل فى الجداول العميقة،

وبحيرات رحيبة تتلألأ على الطريق خلال استعدادنا للذهاب للمدرسة، حاول ضوء الشمس أن يخترق السحب العاصفة، لكن في الوقت الذى انعطفنا شمالا تجاه التقاطع الثانى، كانت قد استسلمت الشمس، وانسلت بتواضع خلف السحب السوداء. حَالمًا دوى الرعد عبر السماء، وتساقطت الأمطار كأنها البرد على رءوسنا المنحنية.

تى جيه يشكو: «آه، تبا! إننى فعلا سئمت هذه الفوضى».

لم ينبس أحد آخر بكلمة. كنا ننصت لصوت الحافلة. بالرغم من أننا غادرنا المنزل فى وقت مبكر عن العادة، لكننا لم نكن على ثقة بأننا سنتجنبها، لأننا حاولنا اتباع هذه الاستراتيجية من قبل وأحيانًا كان لها تأثيرها؛ وكثيرًا لم يكن منها فائدة. كان الأمر أشبه بأن الحافلة كائن حى، تعذبنا وتهزمنا فى كل دور. لم نكن نستطيع أن نفوقها دهاء.

مشينا بتثاقل متحسسين الطين البارد بأقدامنا ونحن نمشى أسرع وأسرع نحو التقاطع. ثم توقف كريستوفر جون. قال منذرا: «يا جماعة، انتبهوا، أظن أننى أستطيع سماعه».

التفتنا كلنا، لكننا لم نر شيئًا.

قلت أنا: «لا يوجد شىء بعد».

واستمررنا فى المشى.

قال كريستوفر جون، متوقفا للمرة الثانية: «انتظروا دقيقة، ها هو الصوت مرة أخرى».

التفتنا لكننا لم نر شيئًا بعد.

هتف تى جيه: «لماذا لا تحاول أن تنظف أذنيك؟».

قال ستيسى: «انتظروا، أظن أننى أسمعه أيضًا».

أسرعنا بخطانا فى الطريق إلى حيث كان الجدول ضيقًا ويسهل علينا أن ننزلق على جانبه نحو الغابة.

اقترب بعد قليل صوت أزيز المحرك وظهرت سيارة السيد جرينجر الباكار اللامعة ذات اللون الفضى أمامنا. كانت سيارة فخمة وكان الكروم الموجود بها يسطع حتى فى المطر، والفريدة من نوعها فى المقاطعة بأكملها، كما كان يقال.

تذمرنا. قال تى جيه بتهكم: «إنه مجرد هزل» فى حين دارت السيارة عند منحنى واختفت، ثم توجه هو وكلود نحو ضفة الجدول.

أوقفهم ستيسى: «مادمنا هنا الآن فلم لا ننتظر لفترة؟» واصل اقتراحه: «ستكون الحافلة هنا قريبًا وسيكون الوصول إلى الضفة أصعب علينا إذا مشينا أبعد على الطريق».

قال تى جيه: «دعك يا رجل،لن تأتى الحافلة إلا بعد فترة طويلة، لقد غادرنا باكرا هذا الصباح، تذكر؟».

نظر ستيسى نحو الجنوب وهو يفكر. انتظرت أنا وليتل مان وكريستوفر جون قراره.

قال تى جيه محاولاً إقناعه: «هيا يا رجل لِمَ نظل هنا منتظرين هذه الحافلة الشيطانية فى حين يمكننا أن نكون بالمدرسة فى هذا الوقت وبعيدا عن هذا المأزق؟».

ـ «حسنًا ..».

قفز تى جيه وكلود من ضفة الجدول. ثم قفز ستيسى بعدهم وهو مقطب الحاجبين كأنه يقوم بعكس رشده.تبعناه أنا وليتل مان وكريستوفر جون.

بعدها بخمس دقائق كنا ننزلق مثل الجراء المذعورة نحو الضفة مرة أخرى فى حين كانت الحافلة تزيد من سرعتها على الطريق الضيق المشبع بالأمطار؛ لكن للأسف كان ستيسى على حق، لم يكن هناك مكان نركض نحوه. كان الجدول فى هذه المنطقة عريضًا جدًّا ويكاد يفيض بالماء الذى يجرى به، ولم يكن هناك أى شجيرات أو أشجار ورد صغيرة نستطيع أن نتعلق بها على الضفة.

أخيرا، عندما كانت الحافلة على مقربة منا بأقل من خمسين قدمًا، قامت بالانحراف بطريقة خطيرة نحو الطرف الأيمن للطريق حيث كنا نركض، محاولة بذلك أن تجبرنا على القفز إلى الضفة؛ لكننا كلنا هبطنا بعدها بمسافة قصيرة على وحل الجدول.

مد ليتل مان، وصدره مشبع بالوحل، يده يملؤها بالكثير من الوحل، وبغضب عارم، اندفع عائدا على الطريق وراح يركض وراء الحافلة المنسحبة. فى حين كانت الضحكات والصرخات البلهاء تشدو بـ «يا زنوج، يا زنوج، يا آكلى الوحل»، من النوافذ المفتوحة، قام ليتل مان بقذف كتلة الطين التى كانت بيده نحوهم مخطئا العجل بعدة أقدام. فى ذلك الحين، وفى قنوط تام مما حدث، دفن رأسه فى يديه وبدأ يبكى.

تسلق تى جيه الجدول عائدا إلى الطريق وهو يبتسم نحو ليتل مان، لكن ستيسى الذى كان وجهه يتوهج حمرة تحت بشرته الداكنة، حملق فى تى جيه بشراسة لدرجة أنه وقع على ظهره قال مشددا: «كلمة واحدة فقط تخرج من فمك يا تى جيه، كلمة واحدة فقط».

نظرت أنا وتى جيه إلى بعضنا البعض. لم نرَ ستيسى أبدًا بهذا الشكل من قبل، حتى تى جيه.

«ما بك يا رجل، إننى لم أنبس بكلمة! إننى أشتعل غضبا لذلك مثلك تمامًا».

حملق ستيسى فى تى جيه للحظة أطول، ثم اتجه مسرعا نحو ليتل مان ووضع ذراعه الطويلة على كتفيه، وقال برفق: «هيا يا ليتل مان، لن يحدث هذا مرة أخرى، على الأقل ليس لفترة طويلة. أعدك بذلك».

نظرت أنا وكريستوفر جون إلى بعضنا البعض مرة أخرى متسائلين، متعجبين لقدرة ستيسى على القيام بقطع وعد طائش كهذا. ثم رافعين أكتافنا، أسرعنا وراءه.

عندما لمحنا جيرمى سيمس من مجثمه العالى بمر الغابة، جرى بعجالة نحونا وانضم إلينا.

«أهلا»، قال ذلك ووجهه يشع بابتسامة ودود. لكن لم يتحدث إليه أحد.

تلاشت الابتسامة، ولاحظ ملابسنا المكسوة بالوحل، سأل: «مـ - ماذا حدث يا سـ - ستيسى، هه؟».

التفت ستيسى، محدقا بعينيه الزرقاوين وقال ببرود: «لماذا لا تتركنا لحالنا؟ وكيف لا تزال مستمرًا بصحبتنا على أية حال؟».

أخذ شحوب جيرمى يزيد عن ذى قبل: «لا-لأننى أحبكم كلكم»، قالها بتلعثم. ثم قال هامسا: «هـ-هل كانت الحافلة مرة أخرى؟».

لم يجبه أحد ولم يزد هو فى السؤال. عندما وصلنا إلى تقاطع الطريق، نظر إلينا بأمل كأننا سنتراجع عن موقفنا ونقول له وداعا. لكننا لم نتراجع، وحين نظرت إلى الوراء نظرة خاطفة وجدته واقفا وحده عند تقاطع الطريق، وكان يبدو كأن العالم كله معلق برقبته. حينها أيقنت أن جيرمى لم يركب الحافلة أبدًا، مهما كان الطقس سيئًا.

عندما عبرنا مرجة المدرسة، دعانا أنا وكريستوفر جون وليتل مان ستيسى إلى جانب، همس إلينا: «انظروا، قابلونى عند مخزن الآلات تمامًا عند الظهيرة».

سألناه: «لماذا؟».

حدق بنا كالمشارك بمؤامرة: «سأريكم جميعا كيف لنا أن نوقف هذه الحافلة عن تلطيخنا بالوحل».

سأل ليتل مان متطلعا للانتقام: «كيف؟».

ـ «ليس هناك وقت لأشرح لكم الآن. فقط قابلونى. وأوفوا بميعادكم. سوف يكلفنا هذا طيلة ساعة الغداء».

صرخ كريستوفر جون فى فزع: «أ-أتعنى أننا لن نتناول طعام غدائنا!».

قال ستيسى، راحلاً بعيدًا: «يمكن أن نؤجل طعام الغداء ليوم آخر»، لكن كريستوفر جون نظر وراءه نظرة مرارة كأنه يتساءل عن مدى أهمية هذه الخطة حتى تستقصى الغداء.

سألته: «هل ستخبر تى جيه وكلود؟».

هز ستيسى رأسه: «تى جيه صديقى العزيز، لكنه لا يستطيع تحمل مثل تلك الأمور. إنه يتكلم كثيرًا، ولن نستطيعَ أن نشمل كلود دون تى جيه».

«جيد». قالها ليتل مان.

التقينا فى الظهيرة كما كان مقررًا سابقًا وتوارينا بمخزن الآلات غير المغلق حيث كانت هناك كل آلات حديقة المدرسة والكنيسة. قام ستيسى بدراسة الآلات الموجودة فى حين كان بقيتنا يشاهد تفرسه. ثم بعد أن التقط المجارف فقط، قام بإعطائى أحدها، محتفظا بالآخر لنفسه وموجها كريستوفر جون وليتل مان لأن يمسكا بدلوين.

خرجنا خلسة من مخزن الآلات لنواجه رذاذ المطر المتساقط، وقمنا بالمشى على أطراف الغابة خلف مبانى الفصول حتى نتجنب أن يرانا أحد. أخذ ستيسى يركض ما إن وصلنا الطريق أمرنا ستيسى: «هيا، أسرعوا، ليس أمامنا متسع من الوقت».

سأل كريستوفر جون: «إلى أين نحن ذاهبون؟».

وهو لا يزال غير مستوعب إمكانية الانصراف عن وجبة الغداء.

ـ «إلى حيث أجبرتنا الحافلة على الخروج عن الطريق. كونوا على حذر الآن». قالها لكريستوفر جون الذى كان فى ذلك الحين يلتقط أنفاسه بصعوبة لكى يلحق بنا.

توقف ستيسى عندما وصلنا إلى المكان الذى سقطنا عنده فى الجدول. قال ستيسى: «حسنًا،ابدءوا بالحفر».

بدون أن يتفوه بكلمة أخرى، قام بوضع قدمه العارية على حافة المجرف وأغرقها بعمق فى الطريق اللين: «هيا، هيا»، أمرنا ستيسى وهو ينظر إلى كريستوفر جون وأنا وليتل مان، حيث كنا نتساءل عما إذا كان قد فقد عقله أخيرًا.

«كيسى، ابدئى بالحفر هناك على ذلك الجانب من الطريق المقابل لى. نعم هكذا، لا تقتربى كثيرًا من الحافة. يجب أن تبدو كأن الأمطار جرفتها. كريستوفر جون، ابدأ أنت وليتل مان بغرف الوحل من منتصف الطريق. أسرعوا الآن». قالها وهو لا يزال يحفر فى حين بدأنا نحن باتباع أوامره.

«لدينا ما يقرب من الثلاثين دقيقة فقط حتى نستطيع أن نعود إلى المدرسة فى الوقت المناسب».

لم نسأل أى أسئلة أخرى. فى حين كنا أنا وستيسى نجرف حفرًا وعرة تقارب الياردة فى العرض والقدم فى العمق تجاه بعضنا الآخر، ملقين الوحل

الفائض فى الجدول المليء بالماء، كان ليتل مان وكريستوفر جون يقومان بغرف الطين الأحمر من منتصف الطريق. ولمرة فى حياته كان ليتل مان سعيدًا ومتناسيًا للوحل المتناثر عليه.

عندما اندمجت الحفر التى حفرناها أنا وستيسى وكريستوفر جون وليتل مان إلى حفرة واحدة كبيرة، قمت أنا وستيسى بإلقاء الجارف وأمسكنا بالدلاء الإضافية.

ثم قمنا أربعتنا بالركض من وإلى الجدول، نملأ الدلاء على عجالة بالمياه الموحلة ونلقى بها فى الحفرة.

الآن، وبعد أن فهمنا خطة ستيسى، قمنا بالعمل بدون كلمة حتى أصبحت المياه مساوية لمستوى الطريق. ثم خاض ستيسى فى مياه الجدول ورفع نفسه على ضفة الغابة. عندما وجد ثلاث صخور، كدسها على بعض حتى يستطيع التعرف على البقعة.

شرح لنا، وهو يقفز عائدًا إلينا «قد تبدو مختلفة ظهيرة اليوم».

نظر كريستوفر جون إلى السماء: «انظروا، إنها سوف تمطر مزيدا من الأمطار الغزيرة».

قال ستيسى: «لنتمن ذلك، كلما زادت الأمطار كان الوضع أفضل. هذا سيجعل الطريق يبدو كأن الأمطار جرفته هكذا. وسيبعد السيارات والعربات عن هذا الطريق».

نظر حوله متفقدًا الطريق: «ولنتمنى ألا يأتى أحد إلى الطريق قبل الحافلة. هيا بنا».

لمنا دلاءنا ومجارفنا بسرعة وهرعنا عائدين إلى المدرسة. بعد أن عدنا بالعدد إلى مخزن الآلات، قمنا بالتوقف عند البئر لنغتسل من الوحل الذى كان طال

أذرعتنا وأقدامنا، ثم هرولنا إلى فصولنا، آملين أن لا يلاحظ أحد الوحل المكسو على ثيابنا. عندما اندسست خلسة إلى مقعدى، نظرت إلىَّ الآنسة كروكر بغرابة وهزت رأسها، لكنها عندما فعلت نفس الشىء عند جلوس مارى لو وألما، فهمت أن الوحل على ملابسى لم يكن ملفتا بقدر أى شخص آخر.

بعد أن استسلمت بفترة بسيطة إلى ملل الآنسة كروكر، بدأ المطر ينهمر بقوة مرة أخرى.

وكان يطرق بشدة على السطح المصنوع من الصفيح. كانت السماء لا تزال تمطر بعد أن انتهينا من المدرسة حين هرعت أنا والأولاد، محاولين تفادى تى جيه وكلود، على الطريق الزلق متجنبين باستهتار الطلبة الحذرين الآخرين.

سألته: «هل تعتقد أننا سنصل فى الوقت المناسب لنشاهده يا ستيسى؟».

«من المفترض. أنهم يبقون بالمدرسة لربع ساعة أخرى حتى تحملهم الحافلة».

عندما وصلنا إلى التقاطع،ألقينا نظرة سريعة على جيفرسون ديفيس. كانت الحافلات هناك لكن لم يتم صرف الطلبة بعد. استمررنا فى إسراعنا.

كنا نتوقع أن نجد الحفرة التى حفرناها بعرض ياردة فى الظهيرة، لكن تفاجأنا البحيرة ذات الاثنى عشر قدما التى كانت تتسع أمامنا.

صرخت: «يا إلهى! ماذا حدث؟».

قال ستيسى: «إنه المطر، هيا أسرعوا واصعدوا إلى الضفة». جلسنا ننتظر على أرض الغابة الموحلة وكلنا حماس.

قلت له: «يا ستيسى، ألن تزيد هذه البركة الكبيرة من حذر ذلك السائق العجوز؟».

قطب ستيسى حاجبيه، وقال بنبرة مترددة: «لا أعلم. آمل ألا تسترعى انتباهه. هناك بريكات كبيرة على طول الطريق ولكن ليس لها عمق كبير، فقط مليئة بالماء».

اقترحت أنا: «إذا خرجت لأمشى هناك عند قدوم الحافلة، فهذا سيدفع السائق لأن يسرع حتى يغرقنى بالوحل».

تطوع ليتل مان، مستعدًا لفعل أى شىء لينتقم: «أو أستطيع أنا ذلك».

فكر ستيسى للحظة، لكنه لم يبد تأييده: «لا، من الأفضل ألا يظهر أحد منا على الطريق عند وقوع الحافلة. قد يثير ذلك ريبتهم».

سأل كريستوفر جون بتوتر: «ستيسى، ما الذى سيحدث إذا علموا أننا كنا وراء ذلك؟».

أكد له ستيسى: «لا تقلق، لن يعرفوا».

همس ليتل مان: «انظروا، أعتقد أن الحافلة قادمة».

استوينا كلنا على الأرض تمامًا وتلصصنا النظر من خلال الشجيرات.

ملأ صوت قعقعة الحافلة الطريق، لكنها كانت تسير أبطأ مما كنا نأمل. تدحرجت بحذر خلال بركة عريضة تسبقنا بعشرين قدمًا، ثم، فيما بدا أنه جرأة لدى اقترابها من بحيرتنا الصناعية، بدأت تستجمع سرعتها التى خلفت شلالات مياه عالية امتدت إلى الغابة. كان صراخهم الملىء بالبهجة عاليًا لدرجة أنه وصل إلى أسماعنا. لكن على عكس الانزلاق السريع خلال البركة الذى كان يتوقعه راكبو الحافلة، أصدرت الحافلة فرقعة هائلة وخرت مترنحة فى فخنا. تأرجحت الحافلة لدرجة أننا خفنا من أن تطيح جانبا. لفظت آخر خرير لها احتجاجا على الوضع ثم استسلمت، حيث كانت عجلتها اليسرى الأمامية فى بركتنا واليمنى فى الجدول، مثل ذكر الماعز المقيد الجاثى على ركبتيه.

انهمرت الأمطار على رأس السائق الفزع حين كان يفتح باب الطوارئ الخلفى، وكانت قطرات المطر أشبه بالرماح المسنونة تدق على رأسه. وقف على المدخل غير مصدق ما حدث لوديعته الغارقة؛ ثم غرز إحدى قدميه متشبثا بالحافلة فى الماء حتى وصل بها إلى الأرض الصلبة بحذر شديد قبل أن ينزل بثقله. نظر تحت الحافلة. نظر إلى غطاء محرك السيارة. نظر إلى الماء. ثم حك رأسه وأخذ يلعن.

سأل صبى ضخم البنية ذو وجه مليء بالنمش، ضاغطا على إحدى النوافذ المكسورة بارزا رأسه. «ما مدى سوء الوضع يا سيد جريمز؟ هل نستطيع دفعها لنخرجها ونقوم بإصلاحها؟».

ردد سائق الحافلة بغضب: «دفعها؟ إصلاحها؟ لدى محور العجلة مكسور هنا ومحرك مشبع بالماء بدون شك، وما خفى كان أعظم وها أنت تتحدث عن إصلاحها! هيا كلكم، اخرجوا من عندكم! ستضطرون جميعا للعودة إلى بيوتكم مشيًا على الأقدام».

تجرأت فتاة على الكلام، تخطو بتردد من آخر الحافلة، «يا سيد جريمز هل ستستطيع أن تقلنا فى الصباح؟».

حدق السائق بها غير مصدق: «أقول لك يا فتاة إنكم سوف تسيرون لمدة أسبوعين على الأقل إلى أن أستطيع أن أسحب تلك الحافلة وآخذها إلى ستروبيرى لإصلاحها. اذهبوا كلكم الآن إلى منازلكم». ركل العجلة الخلفية ثم أضاف، «وقوموا بإحضار كل آبائكم إلى هنا حتى يساعدونى فى هذا المأزق».

استدار الطلبة بحزن بعيدًا عن الحافلة. لم يعلموا عرض الحفرة الحقيقى، فقام البعض منهم بتخمين مجازف وحاولوا القفز من فوقها؛ لكن لم يصب معظمهم فى

حسابها ووقعوا بها، مما كان مصدر بهجتنا المستمرة. حاول الآخرون القفز من فوق الجدول لكن، من خبرتنا الطويلة، كنا نعلم أنهم لن يفلحوا.

فى الوقت الذى تمكن به معظم الطلبة من العبور إلى الجانب الآخر من الحفرة، كانت ملابسهم تقطر المياه الموحلة. تحركوا، ولم تعد الابتسامات تعلو وجوههم، محبطين نحو منازلهم فى حين كان السيد جريمز الساخط ينحنى مكتئبا نحو الطرف الخلفى المرفوع للحافلة.

ياه، ما أحلى الانتقام المتقن دهاؤه!

بهذه الفكرة فى بالنا، تحركنا بسلاسة وأخذنا طريقنا خلال الغابة الكثيفة صوب المنزل.

أخبرت أمى الجدة الكبيرة فى وقت العشاء أن حافلة جيفرسون ديفيس غرزت بالحفرة. «أتعلمين، إنه لشىء مضحك أن تتكون حفرة بهذا الحجم فى يوم، إننى لم ألاحظ تكونها هذا الصباح - ألاحظتموها أنتم يا أطفال؟».

قلنا بصوت واحد: «لا يا سيدتى».

ـ «لم تقعوا بها، أليس كذلك؟».

قال ستيسى بصدق: «قفزنا نحو الضفة عندما شعرنا أن الحافلة قادمة».

أَطْرَت أمى: «حسنًا، هذا لصالحكم، إن لم تكن الحافلة هناك فى ذلك الوقت لكنت وقعت أنا بها».

نظرت أنا والأولاد إلى بعضنا البعض. لم يتراءَ إلى أذهاننا هذا.

سأل ستيسى: «كيف عبرت يا أمى؟».

ـ «قرر أحدهم أن يضع لوحا فوق الحفرة».

تساءلت الجدة الكبيرة: «هل سيقومون بجر الحافلة من الحفرة الليلة؟».

قالت أمى: «لا يا سيدتى، سمعت السيد جرينجر يقول لتيد جريمز - سائق الحافلة - إنهم لن يستطيعوا سحبها إلا بعد أن تتوقف الأمطار وتجف الأرض قليلا. إنها موحلة جدًّا الآن».

وضعنا أيدينا على أفواهنا لنوارى ابتساماتنا. وتمنيت بين نفسى أن تستمر الأمطار حتى عيد الميلاد.

ابتسمت أمى: «أتعلمون أننى سعيدة لأنه لم يصب أحد بأذى - كان من السهل حدوث هذا فى ظل وجود هذه الحفرة العميقة - لكننى أيضًا مسرورة لحدوث هذا».

صرخت الجدة الكبيرة: «مارى!».

قالت أمى بجرأة، وهى تبتسم راضية عن نفسها: «لكننى فعلاً مسرورة»، وتحولت ملامحها لتماثل فى سرورها ملامح فتاة صغيرة: «إننى حقا سعيدة».

بدأت الجدة الكبيرة تبتسم: «أتعلمين شيئًا؟ أنا أيضًا مسرورة».

ثم بدأنا جميعا بالضحك وكنا سعداء.

فى وقت لاحق ذلك المساء جلست أنا والأولاد على طاولة المذاكرة بغرفة أبى وأمى محاولين التركيز بدروسنا؛ لكن لم يفلح أحد منا لأكثر من دقائق قبل أن ينفجر ضحكا لنشوة الانتصار. عنفتنا أمنا أكثر من مرة، لافتةً انتباهنا إلى مذاكرتنا. كنا فى كل مرة عنفتنا فيها نحول تعبيرات وجوهنا إلى الجدية مصرين على أن نتعامل مع الوضع كالراشدين وألا نبالغ فى ابتهاجنا بنشوة الانتصار. لكن بمجرد تبادلنا لنظرة خاطفة، ننسى ذلك وننهار على الطاولة عاجزين عن تملك الضحكات المعدية.

قالت أمى أخيرًا: «حسنًا، لا أدرى بما يحدث هنا، لكن من الأفضل أن أتخذ إجراء نحوه وإلا فلن تستطيعوا إنجاز أى عمل».

خطر ببالنا أن أمى قد تستعد لضربنا.

ووجهنا لبعضنا الآخر نظرات تحذير. لكن حتى تلك الفكرة لم تخمد ضحكنا، والتى كانت قد خرجت عن السيطرة بهذا الوقت، حيث كانت تتفجر الضحكات من أعماقنا وتجبر سيولاً من الدموع على التدفق من أعيننا. التفت ستيسى ممسكا جانبيه نحو الحائط، محاولا التحكم بنفسه. وضع ليتل مان رأسه تحت الطاولة. لكن تضاعفت نوبة الضحك بى وبكريستوفر جون حتى سقطنا على الأرض.

أخذت أمى بذراعى ورفعتنى، قالت وهى توجهنى نحو مقعد بجوار الموقد وخلف الجدة الكبيرة، التى كانت تقوم بكى ملابسنا لليوم التالى: «إلى هنا يا كيسى».

اختلست النظر من وراء التنورة الطويلة للجدة الكبيرة ورأيت أمى ترشد ستيسى إلى مكتبها. ثم عادت لتحضر ليتل مان، رفعته بجرأة، ووضعته على مقعد بجوار الكرسى الهزاز الخاص بها. تركت كريستوفر جون وحده على طاولة المذاكرة. ثم جمعت كل أدوات مذاكرتنا وأعطتها لنا بنظرة تعبر عن أنها لن تحتمل المزيد من هذه الحماقة.

لم أستطع، والجدة الكبيرة تقف أمامى، أن أرى أى شىء آخر ونما جدى بما يكفى لأتم فرض الحساب. توانيت عندما انتهيت من هذا، قبل أن أفتح كتاب القراءة، أشاهد الجدة الكبيرة وهى تعلق ردائى المكوى، ثم وضعت مكواتها الثقيلة على كومة صغيرة من الجمر الملتهب فى جانب الموقد ورفعت مكواة ثانية تدفأ من على الجمر. تحسست المكواة بنقرة من أصبعها ووضعتها مكانها مرة أخرى.

فى حين كانت الجدة الكبيرة تنتظر تسخين المكواة، استطعت أن أرى أمى تنحنى فوق ورق الصحف المنشور وهى تحاول فرك الوحل الجاف من حذاء الحقل الخاص بأبى الذى كانت ترتديه يوميًّا، محشوًّا بورق الصحف، تنتعله فوق حذائها الخاص لحمايته من الوحل والمطر. كان ليتل مان بجوارها مندمجًا جدًّا فى كتاب القراءة الخاص بالصف الأول، وزوى ما بين حاجبيه مركزًا. منذ اليوم الذى أحضرت فيه أمى كتاب القراءة وغلافه الداخلى المهين لم يعد مرئيًّا إلى المنزل، تقبله ليتل مان كأداة أساسية للنجاح بالصف الأول. لكنه لم يكن فخورًا به. عندما رفع نظره، لاحظ أن الجدة الكبيرة تستعد لكىّ ملابسه ، وابتسم بسرور. ثم التقت عيناه بعينى وارتسمت على وجهه ضحكة صامتة. كتمت قهقهتى مما جعل أمى تنتبه لى.

أنذرتنى أمى: «إن بدأت من جديد يا كيسى سأرسلك إلى المطبخ لتدرسى هناك».

قلت معتدلة فى جلوسى على المقعد وبدأت بالقراءة «نعم يا سيدتى». بالطبع لم أكن أريد أن يتم إرسالى إلى المطبخ. لم تعد هناك نار مشتعلة بالموقد فبالطبع الجو بارد هناك.

غرقت الغرفة فى صمتها الأول، إلا من دندنة صوت الجدة الكبيرة الجهورى الغنى، وطقطقة الموقد بخشب الجوز المحترق، وضرب المطر فوق سطح المنزل. روعت فجأة حين كنت مستغرقة بلغز عندما تصدعت هذه الأصوات الوثيرة إثر ثلاث قرعات سريعة بالباب الجانبى.

نهضت أمى مسرعة نحو الباب وهتفت، «من بالباب؟».

جاء صوت رجل أجش: «إنه أنا يا سيدتى؛ جو أفرى».

فتحت أمى الباب ودخل السيد أفرى إلى الغرفة والمطر يقطر من ملابسه.

قالت أمى: «ماذا أخو أفرى؟ ماذا تفعل بالخارج فى ليلة كهذه؟ تعال، ادخل. اخلع معطفك واجلس بالقرب من النار. ستيسى، أحضر مقعدًا للسيد أفرى».

قال السيد أفرى وهو ينظر بتوتر وراءه نحو الظلام: «لا يا سيدتى، ليس لدى سوى دقيقة». دخل إلى الغرفة فقط بما يكفى ليغلق الباب خلفه، ثم أومأ لبقيتنا: «مساء الخير سيدة كارولين، كيف حالك الليلة؟».

قالت الجدة الكبيرة وهى مستمرة فى كى الملابس: «بخير على ما أعتقد كيف حال السيدة فانى؟».

ـ «بخير» قالها بدون أن يسهب بالتفكير فى زوجته «سيدة لوجان... آه، جئت لأخبرك شيئًا... شيئًا مهمًا - هل السيد موريسون هنا؟».

تيبست أمى: «ديفيد. هل سمعت خبرا عن ديفيد؟».

أجاب السيد أفرى بسرعة: «أوه، لا يا سيدتى؛ لم أسمع أى أخبار عن زوجك يا سيدتى».

نظرت إليه أمى باستغراب.

«إنهم... إنهم هم مرة أخرى. خرجوا الليلة».

نظرت أمى، ووجهها شاحب وعليه علامات الخوف، إلى الجدة الكبيرة نظرة خاطفة، فى حين أمسكت الجدة الكبيرة مكواتها فى الهواء.

قالت أمى: «آه ... يا أطفالى، أعتقد أن موعد نومكم قد حان».

قلنا بصوت واحد محتجين، طامعين فى أن نسمع ونرى من الذين خرجوا الليلة: «لكن، يا أمى...».

قالت أمى بصرامة: «سكوت، قلت إن موعد النوم قد حان. اذهبوا الآن».

كان صوت تذمرنا عاليًا ليعبر عن استيائنا، لكن ليس بالعلو الكافى لإثارة غضب أمى، فقمنا بجمع كتبنا على طاولة المذاكرة وهممنا نحو غرفة الأولاد.

ـ «كيسى، قلت لك أن تخلدى إلى سريرك. هذه ليست غرفتك».

قلبت شفتى مستاءة: «لكن أمى، الجو بارد هناك»، كان مسموحًا لنا عادة بإشعال نار بالغرف لتدفئتها قبل خلودنا للنوم بساعة.

«سوف تشعرين بالدفء يا كيسى حالما تدخلين تحت الغطاء. ستيسى، خذ المصباح اليدوى معك وأشعل الفانوس فى غرفتك. كيسى، خذى المصباح من على المكتب».

عدت لأخذ مصباح الكيروسين، ثم دخلت إلى غرفتى، تاركة الباب مفتوحًا جزئيًّا.

«أغلقى ذاك الباب يا كيسى!».

فورا، كان الباب مغلقًا.

وضعت المصباح على طاولة التزيين، ثم سحبت قفل الباب الخارجى فى صمت، اندسست خلسة إلى الشرفة الأمامية المبللة. عبرت إلى غرفة الأولاد. نقرت بأطراف أصابعى بخفة وهمست: «هيا، أدخلونى».

صَرَّ البابُ مفتوحًا وانقضضت إلى الداخل. كانت الغرفة غارقة فى الظلام.

سألت: «ماذا يقولون؟».

جاء الجواب: «ششششش!».

انسللت نحو الباب المؤدى إلى غرفة أمى واحتشدت بالأولاد.

خف نقر المطر على السقف مما جعلنا قادرين على سماع أمى تسأل: «لكن لماذا؟ لماذا خرجوا الليلة؟ ماذا حدث؟».

قال السيد أفرى: «أنا لا أعرف تمامًا، لكنكم بالتأكيد تعرفون طباعهم. فكل مرة يشعرون فيها أننا تعدينا حدودنا، يدركون أنهم يجب أن يضعونا فى حجمنا. تعلمون ما الذى فعله البعض منهم بآل بيرى». صمت للحظة، ثم تابع بمرارة واضحة فى كلامه: «فقط يلزمهم القليل من لا شىء لإثارة شياطين رجال الليل لديهم».

قالت الجدة الكبيرة: «أكيد حدث شىء ما،كيف عرفت بما يحدث؟».

«كل ما أستطيع قوله لك يا سيدة كارولين، هو ما سمعته فانى وهى عائدة من عند آل جرينجر هذا المساء. كانت قد انتهت لتوها من غسيل صحون طعام العشاء عندما عاد السيد جرينجر ومعه السيد جريمز - تعرفونه، ذلك الرجل الأبيض سائق حافلة المدرسة - ورجلان آخران...».

غرقت كلمات السيد أفرى مع قصفة رعدية تَصُمُّ الآذان، ثم تزايد سيلان الأمطار وضاع الحوار وسط كل ذلك.

قبضت على ذراع ستيسى: «ستيسى، إنهم قادمون وراءنا!».

صرخ كريستوفر جون: «ماذا!».

قال ستيسى بصرامة: «سكوت، وأنت يا كيسى أفلتى ذراعى. إنك تؤلميننى».

أصررت على موقفى: «ستيسى، بالتأكيد رآنا ووشى بنا».

رد ستيسى بعدم إقناع: «لا.. لا يمكن أن يحدث هذا، لا يمكن أن يكون».

صرخ كريستوفر جون والرعب متملك منه: «ماذا تعنى بأنه لا يمكن أن يكون؟».

قال ليتل مان بإثارة: «ستيسى، ما الذى تعتقد أنهم سيفعلونه بنا؟ هل سيقومون بإحراقنا؟».

صرخ ستيسى، وَهَمٌ واقفا فجأة: «لا شيء! لماذا لا تأوون جميعًا للفراش كما هو مفروض عليكم؟».

دهشنا كلنا من موقف ستيسى. سلوكه كان مشابها لأمى وهذا ما قلته له.

انطوى ستيسى فى صمته بجوار الباب، وَنَفَسُهُ يتصاعد، وبالرغم من أنى لم أكن قادرة على رؤيته إلا أنى كنت على يقين بأن وجهه الْتَحَفَه الشحوب وأن عينيه بدتا مجهدتين. لمست ذراعه بخفة. قلت له: «ما من فائدة إذا بدأت بلوم نفسك، لقد كان كل واحد منا جزءا من هذا».

قال بفتور: «لكنه أنا من أقحمتكم فى هذا الموقف».

قلت له مواسية: «لكننا كنا نريد أن نقوم بهذا».

أنكر كريستوفر جون: «لكن ليس أنا! كل ما كنت أريده هو تناول وجبة غدائى!».

همس ليتل مان: «ششششش، أستطيع الآن سماعهم مرة أخرى».

ـ «من الأفضل أن أذهب لأبلغ السيد موريسون» كان هذا ما قاله السيد أفرى «هل هو موجود بالخلف؟».

قالت أمى: «سوف أقوم بإخباره».

سمعنا الباب الجانبى يفتح وتدافعنا لنقف.

همس ستيسى: «كيسى، عودى إلى غرفتك بسرعة».

ـ «سوف يأتون فى الغالب ليتفقدوا حالنا الآن».

ـ «لكن ماذا سنفعل؟».

ـ «لا شيء الآن يا كيسى. من المحتمل ألا يقترب هؤلاء الرجال من هنا فى المقام الأول».

سأل كريستوفر جون والأمل فى كلامه: «هل تؤمن بما تقوله فعلا؟».

سألت: «لكن أليس من الأحرى أن نخبر أمى؟».

أعلن ستيسى بتصلب: «لا! لا يمكننا أن نخبر أحدًا أبدًا! أما الآن فأسرعى إلى غرفتك!».

اقتربت خطوات الأقدام من الباب. انطلقت مندفعة نحو الشرفة وأسرعت عائدة إلى غرفتى، حيث قفزت تحت أغطية الفراش بملابسى دون أن أبدلها. سحبت الألحفة حتى ذقنى وأنا أرتعد.

دخلت الجدة الكبيرة إلى الغرفة بعد لحظات قليلة، تاركة الباب المؤدى إلى غرفة أمى مفتوحًا. مدركة أنها لن تنخدع بفكرة أننى استسلمت للنوم بهذه السرعة، تنهدت بلطف مصدرة أصواتًا خاملة تدل على النوم، تقلبت لأنام على بطنى، حريصة على عدم كشفى لأكمام قميصى. من الواضح أن أدائى لقى تقديرا من الجدة الكبيرة، فقامت بدس الأغطية من حولى ولمست شعرى برفق. بعدها انحنت وبدت كأنها تنقب عن شيء تحت سريرنا.

فتحت عينى. ما الذى تبحث عنه بالأسفل هنا بحق الجحيم؟ بينما كانت تبحث سمعت أمى تقترب وقمت بإغلاق عينى مرة أخرى.

ـ «أمى؟».

ـ «ستيسى، ماذا تفعل الآن مستيقظا؟».

ـ «دعينى أساعد».

ـ «تساعد بماذا؟».

ـ «بـ... بهما كان ما يجرى».

كانت أمى صامتة للحظة، ثم قالت بحنانٍ: «شكرا لك يا ستيسى، لكن بإمكانى أنا والجدة الكبيرة تدبر الأمر».

ـ «لكن أبى قال لى أن أساعدكم».

ـ «إنك فعلا تقوم بذلك، أكثر مما تتصور. لكنك ممكن أن تساعدنى بأكثر شيء الآن بأن تأوى إلى الفراش. غدا يوم دراسى، أتتذكر؟».

ـ «لكن، أمى ـــ»

ـ «سأستدعيك إذا احتجت إليك. أعدك بذلك».

سمعت خطوات ستيسى تبتعد ببطء، ثم همسات أمى تقول: «أنامت كيسى؟».

قالت الجدة الكبيرة: «نعم يا عزيزتى؛ اذهبى واجلسى هناك. سأوافيك بعد لحظة».وقفت الجدة وخفضت فتيل مصباح الكيروسين. فتحت عينى مرة أخرى حالما تركت الغرفة فرأيت رسمها على مدخل الباب، ممسكة ببندقية فى يدها. أغلقت الباب وراءها، وتركت أنا وحيدة فى الظلام.

انتظرت دقائق طويلة، فى يقظة تامة، متأملة عما ستكون خطوتى التالية. أخيرًا بعدما قررت أن أستشير الأولاد، أدليت قدمى من على حافة السرير، لكن كان على أن أقلبهما مرة أخرى إلى السرير لأن الجدة الكبيرة دخلت الغرفة مرة أخرى. تجاوزت السرير وقامت بسحب كرسى مستقيم الظهر نحو النافذة. قامت بفرق الستائر حيث امتزجت ظلمة الليل بظلام الغرفة، جلست هناك دون أن تصدر صوتا.

سمعت الباب المؤدى إلى غرفة الأولاد يفتح ويغلق وعرفت بذلك أن أمى دخلت هناك. انتظرت سماع باب الغرفة يفتح مرة أخرى، لكن هذا لم يحدث.

تلاشت بعد قليل برودة الأغطية القطن من تحتى وساهم وجود الجدة الكبيرة فى تهدئتى بإحساس أمان لم أكن حقًّا أشعر به، ونمت.

كان الظلام ما زال دامسًا عندما استيقظت. صرخت: «يا جدة، هل أنت هنا يا جدة؟». لكن لم يصدر أى رد من الكرسى المجاور للنافذة. معتقدة أن الجدة الكبيرة قد استولى عليها النوم، نزلت من السرير وتحسست طريقى نحو الكرسى.

لم تكن هناك.

كانت هناك بومة تنعب بالخارج، وكان الليل ساكنا إلا من قطرات المياه المتساقطة من سطح المنزل. وقفت متحجرة بجوار الكرسى، خائفة أن أتحرك.

بعدها سمعت جلبة على الشرفة. لم أستطع التحكم فى رعدتى. حدثت الجلبة مرة أخرى، لكن هذه المرة قريبا من الباب، وخطر فى بالى أنه قد يكون الأولاد قادمين للتشاور معى. بالتأكيد تركتهم أمى وحدهم أيضًا.

أسرعت إلى الشرفة ضاحكة بصمت فى نفسى، همست: «ستيسى، كريستوفر جون؟». كانت هناك حركة مفاجئة فى نهاية الشرفة، فاتجهت نحوها، متحسسة جدران المنزل: «ليتل مان؟ هيه، توقفوا عن العبث معى وردوا على».

زحفت متزعزعة بالقرب من حافة الشرفة المرتفعة، محاولة خرق ظلام الليل بعينى. وثبت علىَّ من الأسفل خربشة خشنة أفقدتنى توازنى، ووقعت وأنا أتجلجل بمشتل الأزهار الموحل. رقدت هناك والرعب يشل حركتى. ثم لعق وجهى لسان طويل مبلل. «جيسون؟ جيسون، هل هذا أنت؟».

رد كلبنا بصوت أقرب إلى الانتحاب.

احتضنته، وتركته فورًا. «أكان هذا أنت طوال ذاك الوقت؟ انظر إلى ما فعلت بى الآن»، تذمرت متأملة الورطة التى وقعت بها بسبب اكتسائى الوحل.

انتحب جيسون مرة أخرى، ووقفت على قدمى.

بدأت أتسلق مرة أخرى إلى الشرفة لكننى سرعان ما تسمرت مكانى فى حين ظهرت قافلة من المصابيح الأمامية للسيارات فجأة من ناحية الشرق، مسرعة فى قدومها على الطريق المشبع بالأمطار مثل عيون القطط فى الظلام. علا صوت نحيب جيسون وزاد فزعه كلما اقتربت الأضواء، وانسل خلسة تحت الشرفة عندما أبطأوا وفرملوا أمام المنزل. أردت أن أتبعه لكننى لم أستطع. لم تتحرك قدماى البتة.

انحرفت السيارة الرمادية إلى الدرب الخاص الموحل للمنزل وخرج منها قامة مظللة حددتها الأضواء الأمامية للسيارة الموجودة خلفه.

توقفت عن التنفس.

خرج سائق السيارة الأخرى منتظرا. توقف الرجل الأول وحدق بالمنزل للحظات طويلة كأنه غير متيقن مما إذا كانت هذه وجهته الصحيحة. هز رأسه بعدها، ودون أن ينبس بكلمة عاد إلى سيارته. بإشارة من يده أرسل السائق الآخر عائدًا إلى سيارته، وفى أقل من دقيقة كانت السيارة الرمادية قد عادت إلى الطريق، مواجهة السيارات الأخرى بأضوائها الأمامية. استخدمت كل السيارات المدخل الخاص بنا لتعود إلى الطريق، ثم أسرعت القافلة بعيدًا كما جاءت، بأزواج الأنوار السبعة الخلفية تتوهج مثل جمرات حمراء بعيدة حتى ابتلعتهم غابة جرينجر عن الرؤية.

بدأ جيسون بالنباح الآن بعد أن ابتعد الخطر، لكنه لم يخرج من مكانه. شعرت وأنا أحاول البلوغ إلى الشرفة بحركة هادئة فى الظلام. تحرك القمر من حجابه المظلم، مغطيًا الأرض بضوء أبيض ظليل، فاستطعت أن أرى السيد

موريسون بوضوح، يتحرك بصمت، مثل سنور فى الأدغال، من جانب البيت إلى الطريق، وبيده بندقية. زحفت إلى الشرفة وأنا أشعر بالغثيان وانسللت مرتعدة نحو الباب.

عندما كنت داخل المنزل، اتكأت على القفل بينما غمرتنى موجات من الرعب السقيم. حين أيقنت أنه يجب أن أكون بالسرير قبل أن تأتى أمى أو الجدة الكبيرة من الغرفة الأخرى، قمت بنزع ملابسى الموحلة، وقلبتها على الوجه الأخر لأمسح الوحل من جسدى، وارتديت بعدها ملابس النوم. بعدها تسلقت إلى نعومة السرير. رقدت بدون حركة لفترة طويلة، دون أن أسمح لنفسى بفرصة للتفكير. لكن سرعان ما ـ دون إرادتى ـ غمرت عقلى رؤية الأضواء المخيفة وعذبتنى رجفة يصعب التحكم بها. استمرت حتى طلع الفجر، عندما سكنت إلى نوم مضطرب.

4

سألت الجدة الكبيرة: «كيسى، ماذا بك يا فتاة؟». فى حين كانت تدفع بثلاثة أعواد من خشب الصنوبر بالموقد لتضرم شعلة الصباح من جديد. «أنت بالتأكيد تأخذين وقتا طويلا فى مخضة هذا الزبد».

تمتمت: «لا شىء».

التفتت الجدة الكبيرة لتنظر إلى مباشرة «لا شىء؟ إنك تتصرفين بتثاقل طوال هذا الأسبوع كأن أصابك سعال ديكى ورشح والحصبة فى آن واحد».

تنهدت بعمق وأنا مستمرة فى خض الزبد.

مدت الجدة الكبيرة يدها نحوى لتتحسس جبهتى، ثم وجنتى. قطبت حاجبيها فى حين أبعدت يديها فى الوقت الذى دخلت فيه أمى إلى المطبخ. قالت الجدة الكبيرة: «مارى، تعالى وتحسسى وجه هذه الطفلة هل يبدو عليها بوادر حرارة؟».

احتوت أمى وجهى فى يديها النحيلتين. «هل تشعرين بعلة يا كيسى؟».

ـ «لا يا سيدتى».

ـ «إذن بم تشعرين؟».

كان ردى وأنا مستمرة بمخضة الزبد: «بخير».

حدقت فىَّ أمى بنفس النظرة القلقة التى كانت على وجه الجدة الكبيرة وظهر على حاجبيها عبوس دقيق. قالت بحنان مركزة عينيها الداكنتين علىَّ: «كيسى أهناك شىء تريدين أن تطلعينى عليه؟».

كنت على وشك أن أفشى بالحقيقة المروعة من غير تفكير عن الحافلة والرجال الذين رأيتهم بالليل، لكننى تذكرت المعاهدة التى جعلنا ستيسى نقسم عليها عندما أخبرته هو وكريستوفر جون وليتل مان عن قافلة السيارات، وبدلا من ذلك قلت: «لا يا سيدتى»، وبدأت أمخض الزبد مرة أخرى. قبضت أمى على عصا المخض مباغتة، وبدأت عيناها تستكشف عينى. كانت تبدو أثناء ما كانت تحدق بى كأنها تسألنى عن شىء، لكن السؤال تلاشى وابتعدت، كاشفة الغطاء عن الزبد. قالت بتنهد: «يبدو أنه جاهز الآن، اغرفى الزبد كما علمتك واغسليه. سأهتم أنا بأمر الحليب».

غرفت الزبد من غطاء المخض إلى طبق وعبرت الستار المؤدى إلى غرفة المؤن بجانب المطبخ لإحضار طبق التشكيل. كان الطبق موضوعًا على رفٍّ عالٍ تحت

أطباق أخرى عديدة، فاضطررت إلى الوقوف على مقعد لأصل إليه. بينما أقوم بسحبه، سمعت أمى والجدة الكبيرة تتهامسان بنبرات تنم عن القلق بالجانب الآخر من الستار.

ـ «هناك خطب ما بهذه الطفلة يا مارى».

ـ «إنها ليست مريضة يا أمى».

ـ «هناك كل الأمراض. إنها لا تأكل جيدا لأكثر من أسبوع الآن. إنها لا تنام جيدًا أيضًا. مضطربة فى نومها وتتمتم طوال الليل. تذهب للعب بالخارج قليلاً، وتفضل أن تبقى بالداخل لتساعدنا. تعرفين أن هذا السلوك بعيد جدًّا عن هذه الطفلة».

كان هناك صمت لفترة قصيرة، ثم همست أمى لدرجة أننى استطعت أن أسمعها بصعوبة. «أتعتقدين ..... أمى، أتعتقدين أنها رأت ـــــ»

هتفت الجدة بسرعة: «بالله لا يا طفلتى، لقد تحققت من الغرفة فور مغادرتهم وكانت غارقة فى نومها. من الصعب أن تكون رأت هؤلاء الشياطين. ولا حتى الأولاد».

تنهدت أمى: «الأولاد، هم الآخرون ليسوا على طبيعتهم أيضًا. كلهم، يستولى عليهم الصمت. ها هى صبيحة السبت وهم بهدوء فئران الكنيسة. لا يعجبنى ما يجرى، ولا أستطيع استبعاد فكرة أن ذلك له علاقة بـ - كيسى!».

دون سابق إنذار، فقدت توازنى وطحت من الكرسى على علو ركبة إلى الأرض بطبق التشكيل. سألت أمى منحنية إلى جوارى: «كيسى، هل تأذيت؟».

قلت بغير وضوح، وأنا أشعر بالغباء والدموع تكاد تذرف من عينى «لا يا سيدتى». علمت أننى إذا سمحت للدموع أن تنهمر، فستتأكد ظنون أمى بأنه يوجد شىء ليس على ما يرام؛ لأننى أبدًا ما بكيت على شىء تافه مثل الوقوع؛

فى الواقع نادرًا ما كنت أبكى. فبدلاً من البكاء نهضت على قدمى وبدأت أجمع أجزاء الطبق المكسور.

قلت لها: «آسفة يا أمى».

قالت أمى وهى تساعدنى: «لا بأس»، عندما قمنا بكنس الشظايا بالمكنسة المصنوعة من القش، قالت لى: «اتركى الزبد يا كيسى واذهبى لتكونى مع الأولاد».

ـ «لكن يا أمى -».

ـ «سأكمل أنا الزبد. اذهبى الآن وافعلى كما قلت لك».

نظرت طويلاً إلى أمى متسائلة عما إذا كانت ستعرف بما قمنا به، ثم انضممت إلى الأولاد حيث كانوا يجلسون بفتور حول الموقد يستمعون إلى تى جيه بشرود.

كان تى جيه يشرح حينما كنت أجلس: «انظروا يا رفاق، هنا نظام للخروج من العمل، فقط لا تكونوا حاضرين عندما يجب القيام به. الشىء الوحيد هو أنه يجب ألا تطلعوا أهليكم على ما تفعلونه. انظروا، يجب أن تفعلوا مثلى. مثل هذا الصباح، عندما أرادت أمى إحضار المقص الذى استعارته من السيدة لوجان، تقدمت وتطوعت كى لا تقوم هى بالرحلة الطويلة إلى هنا، بما أنها مشغولة بالإضافة إلى أشياء أخرى. وطبيعى بما أننى أتيت إلى هنا فكلكم رغبتم بأن أبقى معكم لفترة لنتكلم، وما عساى إذن أن أفعل؟ لا أستطيع أن أكون فظ الأخلاق، صحيح؟ وعندما يحين الوقت الذى أقنعكم فيه أنه علىَّ الذهاب، تكون كل الأعمال بالمنزل قد انتهت». ضحك تى جيه ضحكة مكتومة تنم عن الرضا بنفسه. «نعم، كل ما عليكم هو أن تستخدموا ذلك المخ لديكم، هذا كل ما فى الموضوع».

هدأ تى جيه للحظة، متوقعا تعليقًا منا على خطابه، لكن لم ينبس أحد منا بكلمة.

طاف تى جيه بعينيه فى الغرفة، ثم قال معاتبًا: «أترى يا ستيسى، لو كنت بمثل ذكائى لكنت استخدمت مخك هذا فى الحصول على أسئلة الامتحان الكبير القادم».

ـ «فكر فيها، يحتمل أن تكون الأسئلة قابعة فى هذه الغرفة منتظرة أن يكتشفها أحد».

رمى ستيسى تى جيه بنظرة تنم عن غضب، لكنه لم يتكلم.

أبدى تى جيه ملاحظته: «إنكم تبدون كأنكم صحبة كئيبة هذا الصباح، إن المرء ليهدر خبرته بالتحدث إليكم كلكم».

قال ستيسى: «لم يطلب منك أحد أن تهبها لنا».

ردَّ تى جيه بغطرسة: «حسنًا، ليس عليك أن تنفعل بهذا الشأن» عم الصمت مرة أخرى، لكن هذا لا يناسب تى جيه. «قل ما رأيك بأن نتسلل إلى متجر والاس هذا ونتعلم كيفية القيام بهذه الرقصات الجديدة؟».

قال ستيسى: «أمى قالت لنا ألا نذهب إلى هناك».

ـ «هل أنت تابع أمك أم ماذا؟ أتفعل كل شىء تقوله أمك لك -»

قال ستيسى بهدوء، دون أن ينصاع لإغواء تى جيه: «اذهب أنت إن كنت تريد، لكننا سنبقى هنا».

مرة أخرى، ساد الصمت.

ثم قال تى جيه: «أسمعتم بآخر أخبار رجال الليل ؟». فجأة تحولت كل العيون من النار إلىَّ وثبتت نفسها على تى جيه. كانت وجوهنا عبارة عن علامات استفهام شغوفة؛ كنا ملك تى جيه تمامًا.

سأل ستيسى بهدوء تقريبا: «ماذا عنهم؟».

بالطبع حاول تى جيه أن يبقى الفكرة فى الذهن لأطول فترة ممكنة «أترون، عندما يكون المرء فى مثل ذكائى، فإنه يكون محيطا بأمور ليس للآخرين علم بها. الآن، هذه المعلومات ليست مناسبة لآذان الصغار فلا أعتقد أنه يجب على أن أخبركم -».

قال ستيسى خاتمًا بهدوء، ملتفتًا إلى النار كأنه لا يكترث البتة برجال الليل: «إذن لا تخبرنا».

آخذة بإشارته ووكزتُ كريستوفر جون الذى وكز بدوره ليتل مان، وأُرغم ثلاثتنا على التحديق بالنار بلامبالاة مصطنعة.

بدون جمهور يتملكه تى جيه، كان مضطرًا إلى أن يجذب انتباهنا بأن يدخل فى الموضوع مباشرة. «حسنًا، منذ قرابة أسبوع، ذهبوا إلى منزل السيد سام تاتوم - تعرفون، عند طريق جاكسون نحو ستروبيرى - أوتعرفون ماذا فعلوا؟».

أنا وستيسى وليتل مان لزمنا النظر إلى النار، لكن كريستوفر جون قال بصوت صغير متلهفًا: «ماذا؟».

وكزت كريستوفر جون والتفتُ شاعرًا بالذنب، لكن تى جيه منتصرًا بجمهور من فرد واحد، استقر بكرسيه مستعدًّا لإطالة التشويق. «تعرفون أن أمى ستقتلنى إذا علمت بأنى أخبرتكم بهذا. سمعتها هى والسيدة كلير تومسون يتحدثون بالأمر. كانوا خائفين جدًّا. لا أعلم لماذا. رجال الليل هؤلاء لا يخيفوننى بالتأكيد. مثلما قلت لكلود ».

قال ستيسى، واقفًا ومشيرًا إلينا بالوقوف: «هيه اسمعوا، قالت أمى إنها تريدنا أن نأخذ بعض الحليب والزبد إلى السيدة جاكسون قبل الظهيرة. من الأفضل لنا أن نستعد».

أومأت وقمت أنا وكريستوفر جون وليتل مان.

أعلن تى جيه بسرعة: «طلاه بالقار وكساه بالريش! قاموا بصب أكحل قار استطاعوا أن يجدوه عليه كله ثم دكوه بريش الدجاج». ضحك تى جيه: «أتتخيلون ذلك؟».

سأل ليتل مان ناسيا خدعتنا: «لكن لماذا؟».

فى هذه المرة لم يتباطأ تى جيه: «لا أعلم إن كانت آذانكم الصغيرة تتحمل هذا الكلام، لكنه يبدو أن الرجل الذى يدعى السيد جيم لى بارنيت كاذب - إنه الرجل الذى يدير التجارة فى ستروبيرى. من المفترض أن السيد تاتوم لم يقم بطلب الأشياء التى يطالبه السيد بارنت بدفع ثمنها. وقال السيد بارنت إن الأشياء التى طلبها السيد تاتوم مدونة عنده، وعندما طالب السيد تاتوم برؤية قائمته قال السيد بارنت أتنعتنى بالكاذب يا ولد؟» ورد السيد تاتوم: «نعم يا سيدى، أظن أننى فاعل!» وكانت هذه هى الطامة!».

أفشى كريستوفر جون دون تفكير: «إذن لم تكن الحافلة هى السبب؟».

«الحافلة؟ ما علاقة الحافلة بأمر كهذا؟».

قال ستيسى بسرعة: «لا شىء، لا شىء على الإطلاق».

قال تى جيه بتسلط: «حسنًا، إذا قال أحد إن رجال الليل أتوا إلى هنا بسبب حافلة تافهة، فإنهم مخبولون، لأن معلوماتى تأتى مباشرة من السيدة كلير تومسون التى رأت السيد تاتوم بنفسها».

سأل ستيسى: «هل أنت متأكد؟».

«متأكد؟ بالطبع أنا متأكد. منذ متى وأنا أتحدث عن شىء لست متأكدًا منه؟».

ابتسم ستيسى بارتياح: «هيا نذهب لنحضر الحليب».

ذهبنا جميعا إلى المطبخ، ثم إلى غرفة النوم لنحضر معاطفنا. تذكر تى جيه عندما خرجنا أنه نسى قبعته بجوار الموقد فعاد ليستعيدها. حينما كنا بمفردنا، سأل

ليتل مان، «ستيسى، هل تعتقد أن رجال الليل هؤلاء وضعوا الريش فعلا على السيد تاتوم؟».

قال ستيسى: «أعتقد ذلك».

قَطَّبَ ليتل مان حَاجبيه، لكن كريستوفر جون هو من تحدث،هامسًا بدوى كأنما شبح النهار يسمعه مصادفة: «أتعتقد أنهم إذا اكتشفوا أمر الحافلة، فسيقومون بإغراقنا بالقار والريش نحن أيضًا؟».

زاد عمق عبوس ليتل مان وتأمل بغموض: «إذا فعلوا ذلك فلن يمكننا أن نصبح نظيفين أبدًا بعد ذلك».

قال كريستوفر جون وعيناه تتسعان: «كيسى، هـ-هل خفت فعلا عـ-عندما رأيتهم؟».

ارتعد ليتل مان: «أتمنى لو أنى رأيتهم».

أعلن كريستوفر جون: «حسنًا، لم أكن لأحب ذلك، فى الواقع أتمنى أننى لم أكن لأسمع برجال الليل هؤلاء أو أى حافلات أو أى أسرار أو أى حفر فى الطريق!». وبهذا الانفجار وضع يديه المنتفختين بسترته، وزم شفتيه بشدة، ورفض التحدث بكلمة أخرى.

قال ستيسى بعد لحظات قليلة: «ما الذى يؤخر تى جيه؟». هز بقيتنا أكتافنا، ثم تبعنا ستيسى عائدين نحو الشرفة إلى غرفة أمى. قفز تى جيه حين دخلنا. كان يقف عند مكتب أمى ممسكا بكتاب أمى «ذا نجرو» (الزنجى) لـ و.ى.ب. دو بوا فى يديه.

قال ستيسى: «هذه لا يبدو أنها قبعتك».

وضع الكتاب وهو مستمر فى الكلام بطريقة عفوية وأخذ قبعته: «هيا يا رجل، أنا لم أفعل شيئًا. إننى فقط ألقى نظرة على كتاب التاريخ الخاص بالسيدة لوجان،

هذا كل ما فى الأمر. إننى مهتم جدًّا بالمكان الذى يدعى مصر الذى كنت تحكى لنا عنه وعن الملوك السود الذين كانوا يحكمون فى ذلك الزمان».

نظرنا نحن الأربعة إلى تى جيه باتهام فتعثر. «ما هذا؟ ما معنى تسللكم على بهذه الطريقة على أية حال تعتقدون كلكم أننى كنت أبحث عن أسئلة الامتحان تلك أو ما شابه؟ تبًّا، قد يعتقد المرء أنكم لا تثقون به». ثم رفع ذراعه حول كتف ستيسى، ووَبَّخَه قائلاً: «يجب على الأصدقاء أن يثقوا بعضهم ببعض يا ستيسى، لأنه لا يوجد شىء فى العالم مثل الصديق المخلص».

وغادر الغرفة بكلمات الحكمة تلك، تركنا نتعجب كيف أفلت من هذه المشكلة.

استقر السيد موريسون يوم الاثنين بعد وصوله فى الكوخ المستأجر المهجور الموجود جنوبى المرج. كان هذا البيت بحال يرثى لها. كان بابه معلقًا بكآبة من مفصلة مكسورة؛ وكانت أرضية شرفته تسودها العفونة؛ وداخله المكون من غرفة واحدة مسكون على نحو مفرط بالجرذان والعناكب وكائنات الحقول الأخرى. لكن السيد موريسون كان رجلا هادئ الطبع، خجولاً، وبالرغم من أن أمى عرضت عليه السكن فى بيتنا، لكنه فضل هذا الكوخ القديم. شعرت أمى بأن السيد موريسون شخص متحفظ ولم تعترض على انتقاله، لكنها أرسلتنى أنا والأولاد لمساعدته فى تنظيف المكان.

ذهبت أنا وكريستوفر جون وليتل مان إلى السيد موريسون فورا لمساعدته ولم يكن لدينا اعتراض على التنظيف. كان مرحبا بأى شخص، لأنه كان صديقا لأبى، ووجود السيد موريسون بالقرب منا بالإضافة إلى ذلك، كان وراء تضاؤل

رجال الليل والحرائق وهجمات ما بعد منتصف الليل بعيدا عنا. لكن ستيسى ظل يتعامل بسلوك متحفظ وكأنه ليس هناك شىء يتشارك معه.

سألت أمى بعد أن انتهينا من التنظيف إذا كان بإمكاننا زيارة السيد موريسون، لكنها أجابت بالرفض.

أوضحت لها: «لكن يا أمى، أريد أن أعرف المزيد عنه».

«أريد أن أعرف كيف له أن يكون بهذه الضخامة».

قررت أمى: «إنك تعرفين بقدر ما يجب أن تعرفى، ومادام السيد موريسون مقيمًا هنا، فإن هذا بيته. إذا كان يريدك أن تذهبى هناك، فسيدعوك».

قال ستيسى بكآبة عندما كانت أمى بعيدة عن مجال سمعنا: «لا أعرف سبب رغبتكم كلكم فى الذهاب هناك على أية حال».

أجبته وأنا أشعر بالسأم من تصرفاته غير الودودة تجاه السيد موريسون: «لأننا نحبه، هذا هو السبب». ثم قلت بأقصى ما لدى من تكتم: «ماذا بك يا ولد، لماذا لا تحب السيد موريسون؟».

هز ستيسى كتفيه: «إننى أحبه، لا مانع لدى».

أشاح ستيسى بنظره بعيدا عنى: «لا تتصرف بهذا الأسلوب، إننا لسنا بحاجة إليه هنا، إن كل الأعمال التى يقوم بها أستطيع أنا القيام بها بنفسى».

«ها، بالطبع لا يمكنك القيام بما يقوم هو به، إلى جانب أن -» نظرت حولى لأتأكد أن الجدة الكبيرة وأمى ليست على مقربة منا، إلى جانب أن أبى لم يأت به إلى هنا ليقوم بهذه الأعمال، أنت تعلم السبب الرئيسى وراء استقراره هنا».

التفت ستيسى نحوى بغطرسة: «كان بإمكانى تولى هذا الأمر أيضًا».

نظرت إليه ساخطة، لكننى آثرت السلام. لم أكن أشعر بأننى أريد أن أخوض عراكا، مادام السيد موريسون على مسافة تسمح له بسماع صراخنا من الشرفة الخلفية، فإن معتقدات ستيسى بقدرته الخاصة لم تكن تشكل لدى فارقًا كبيرًا».

قال تى جيه فى الطريق إلى المدرسة: «إننى بالتأكد غير راغب فى بقاء هذا الرجل الكبير عندنا».

«أراهنكم أنه إذا استشاط غضبه فى مرة، فسيأخذ ليتل مان المسكين ويلوح به فى هذه الشجرة هناك كأنه لا يزيد بالنسبة له عن فرع شجرة». ثم ضحك فى حين قام ليتل مان بزم شفتيه وحدق فيه بغضب: «بالطبع قد أستطيع القيام بذلك بنفسى».

قال ستيسى: «لا أحد يجرؤ على القيام بهذا!. هش يا مان، اصمت، تى جيه، اترك مان لحاله».

«ياه، أنا لا أضايقه، إن ليتل مان صديقى، أليس كذلك يا ليتل مان؟». تجهم ليتل مان لكنه لم يجب. رجع تى جيه والتفت نحو ستيسى: «هل أنت مستعد لاختبار التاريخ؟».

قال ستيسى: «أتمنى ذلك لكننى ما أفتأ أنسى التواريخ».

ـ «أعتقد أننى أستطيع مساعدتك إذا كنت لطيفًا معى».

ـ «كيف هذا وأنت أسوأ منى فى التواريخ؟».

ابتسم تى جيه، ثم بمكر سحب ورقة مطوية من جيبه وأعطاها لستيسى. قام ستيسى بفردها ونظر إليها بفضول ثم قطب حاجبيه: «هل أنت عازم على الغش؟».

قال ستيسى بجدية: «لا، لست عازما، لكن قد أغش إذا اضطررت إلى ذلك».

قال ستيسى وهو يمزق الورقة إلى نصفين: «حسنًا، إنك لن تقوم بذلك».

صرخ تى جيه محاولاً انتزاع الورقة: «هيه، ما الأمر بك يا رجل!». لكن ستيسى أولاه ظهره ومزق الورقة إلى قطع صغيرة، ثم تخلص منها فى الجدول.

«يا رجل، هذا ليس بتصرف سديد! لم أكن لأقوم بذلك تجاهك!».

رد ستيسى: «ربما لا، لكن على الأقل بهذه الطريقة لن تواجه المشاكل».

غمغم تى جيه: «إذا لم يكن الرسوب مشكلة، فإنى لا أعرف ما قد تكون».

كنت جالسة أنا وكريستوفر جون وليتل مان وكلود على الدرج السفلى لمبنى الصف السابع بعد المدرسة فى انتظار تى جيه وستيسى عندما فتح الباب وانطلق تى جيه عبر الفناء. سأل كريستوفر جون: «ماذا به؟ ألن ينتظر خروج ستيسى؟».

خرج بقية الصف السابع من المبنى بأعداد كبيرة وفى مقدمتهم ليتل ويلى ويجنز ومو تيرنر. هتف ليتل ويلى: «ها هو ذا ينطلق!». فى حين اختفى تى جيه فى طريق الغابة. صاح مو تيرنر قائلاً: «هيا لِتَرَى إلى أين هو ذاهب!». وانطلق هو وثلاثة فتية آخرون لملاحقة تى جيه لكن الآخرين وقفوا مضطربين بالقرب من الدرج كأنما اليوم الدراسى لم ينتهِ.

سألت ليتل ويلى: «هيه، مالذى يحدث؟ لماذا ينتظر الجميع هنا؟».

طالب ليتل مان: «وأين ستيسى؟».

ابتسم ليتل ويلى «ستيسى بالداخل مع السيدة لوجان. لقد ضرب بالسوط اليوم».

صرخت: «ضرب بالسوط؟ لا أحد يجرؤ على ضرب ستيسى. من قام بهذا؟».

ضحك ليتل ويلى: «أمك».

هتفت أنا وليتل مان وكريستوفر جون: «أمى!».

أومأ ليتل ويلى: «نعم، وأمام الجميع».

تحملت الإهانة بشدة، وشعرت بالأسى الشديد لأخى الكبير. كان الأمر سيئًا بما يكفى لتعرض المرء للضرب من مدرسة أمام ثلاثين فردا آخرين، لكن أن تضربه أمه - هذا هو الإحراج بحق.

سأل كريستوفر جون: «لماذا فعلت أمى هذا؟».

ـ «ضبطته بورق غش أثناء امتحان التاريخ».

أكدت قائلة: «أمى تعرف أن ستيسى لا يغش أبدًا!».

هز ليتل ويلى كتفيه «حسنًا، سواء أكانت تعلم أم لا، فقد أعطته نصيبا من الضرب.... وبالتأكيد أعطته فرصة عندما قالت إنه لم يكن يغش وسألته كيف وصل إليه ورق الغش هذا. لكن ستيسى لم يكن يشى بصديقه تى جيه، وتعلمون علم اليقين أن تى جيه ليس لديه أدنى استعداد بأن يقر أن هذا الورق له».

«ورق غش! لكن كيف حصل تى جيه على ورق الغش؟ لقد تخلص منهم تى جيه هذا الصباح!».

رد ليتل ويلى: «حدث فى وقت الظهيرة أن تى جيه كان بالغابة مشغولاً بكتابة مجموعة أخرى لنفسه. رأيته أنا ومو».

«حسنًا، وماذا كان ستيسى يفعل بهم؟».

«حسنًا، كنا فى منتصف الاختبار عندما أخرج تى جيه هذه الأوراق خلسة - كنت أنا وكلارنس نجلس وراءه هو وتى جيه ورأينا الأمر كله. كان ستيسى يجلس على الجانب الأيمن من تى جيه وعندما رأى هذه الأوراق، أشار إلى تى جيه بأن يضعها بعيدا. فى البداية لم ينصع تى جيه لكلام ستيسى، لكنه رأى السيدة لوجان تدنو منه قام بدس الورق إلى ستيسى. حسنًا، لم يرَ ستيسى السيدة لوجان تقترب عندما أخذ الورق، وفى الوقت الذى رآها كان التخلص منه متأخرًا جدًّا . لم يكن بيد السيدة لوجان أى شىء آخر إلا أن تضربه. جعلته يرسب بالإضافة إلى ذلك».

أقحم كلارنس نفسه فى الحديث، ضاحكا: «وجلس تى جيه هناك دون أن ينطق بكلمة».

ضحك ليتل ويلى ضحكة مكتومة: «لكن على حد علمى بستيسى، أراهنك أن تى جيه لن يفلت بفعلته، وتى جيه على يقين بذلك أيضًا. لهذا السبب انطلق من هنا بهذا السلوك، وأراهنك - هيه، ستيسى!».

التفت الجميع فى حين وثب على الدرج نزولا. كانت لا تعتلى وجهه المربع ابتسامة، لكن لم يكن بصوته نبرة غضب عندما سأل بهدوء: «أرأى أحدكم تى جيه؟». أجاب كل الطلبة فورا، مشيرين أن تى جيه اتجه غربا نحو منزله، ثم أحاطوا بستيسى عندما بدأ يأخذ طريقه عبر الفناء. لحقته أنا وكريستوفر جون وليتل مان وكلود.

كان مو تيرنر فى انتظارنا عندما وصلنا إلى تقاطع الطريق. أعلن لنا: «ذهب تى جيه إلى متجر والاس».

توقف ستيسى وبالتالى توقف الجميع. حدق ستيسى إلى ما بعد مدرسة جيفرسون ديفيس، ثم إلى الطريق المؤدى إلى مدرسة جريت فيث. عندما نظر وراء كتفه وجدنى وقال آمرا: «كيسى، اذهبى أنت وكريستوفر جون ومان إلى المنزل».

قلت له قلقة عليه بشأن المكان الذى سيذهب إليه: «تعال أنت أيضًا».

قال ومشى مبتعدا: «لدى شأن يجب أن أعتنى به أولا».

صرخت وراءه: «ستهتم أمى بك أيضًا! أنت تعرف أنها حذرتنا من الذهاب إلى هناك، وإذا اكتشفت هذا فستوسعك ضربا! وأبى أيضًا!». لكن ستيسى لم يعد. للحظة، وقفت أنا وليتل مان وكريستوفر جون وكلود نراقب ستيسى والآخرين وهم يتجهون شمالا مسرعين. ثم قال ليتل مان: «أريد أن أرى ما الذى سيقوم به».

أعلن كريستوفر جون: «أنا لا أريد».

قلت لهم منطلقة وراء ستيسى وكان ليتل مان وكلود إلى جوارى: «هيا بنا».

احتج كريستوفر جون، واقفًا وحيدًا عند تقاطع الطريق: «إننى لا أريد أن أضرب بالسوط!». لكنه عندما رأى أننا لن نعود، لهث لكى يلحق بنا، متذمرا طوال الوقت.

كان متجر والاس يبعد عن مدرسة جيفرسون ديفيس قرابة ربع ميل، على قطعة أرض مثلثة تواجه تقاطع سولدجرز بريدج. كان هذا متجرا لمزرعة جرينجر، لكن آل والاس كانوا يديرونه منذ أمد طويل، ومعظم الناس الموجودين فى مجال أربعين ميلاً بين سميلينجز كريك وستروبيرى كانوا يتسوقون هناك. كانت الأركان الثلاثة الأخرى عبارة عن أرض غابات، مظلمة وكثيفة. كان المتجر يتكون من مبنى صغير ومضخة بنزين أمامه ومخزن خلفه. وراء المتجر على حافة الغابة،

كان يوجد بيتان رماديًّا اللون وحديقة صغيرة. لكن لم يكن هناك حقول. آل والاس لم يكونوا يعملون بالزراعة.

كان ستيسى والطلبة الآخرون يقفون عند مدخل المتجر عندما لحقنا بهم أنا وليتل مان وكريستوفر جون وكلود. شققنا طريقنا بصعوبة لنتمكن من رؤية المحل من الداخل. وقف رجل خلف منضدة المتجر وكنا نعرفه باسم كالب والاس. جلس رجال آخرون حول الموقد يلعبون الشطرنج، مال إخوة جيرمى الكبار، آر دبليو وملفن الذين تسربوا من المدرسة منذ وقت طويل مضى، على المنضدة يحدقون نحونا بعيون كليلة.

قال كالب والاس: «هيا اذهبوا جميعكم إلى الخلف إلا إذا كنتم تريدون شراء شىء. لقد بدأ السيد ديوبيرى بالعزف الآن».

فى حين كنا نلتفت لنذهب بعيدا عن المدخل، تكلم ملفن سيمز قائلاً: «انظر إلى كل هؤلاء الزنوج الصغار الذين أتوا ليرقصوا»، وملأت ضحكات الرجال المكان.

سحب كريستوفر جون ذراعى: «أنا لا أحب ذلك المكان يا كيسى. هيا بنا نعود أدراجنا إلى المنزل».

قالت له: «لا يمكننا المغادرة من دون ستيسى».

بدأت إغراءات الموسيقى تصدر من المخزن حيث وضع ديوبيرى والاس زجاجات مستديرة بنية اللون على طاولة مستديرة فى حين تزاحمنا إلى الداخل. لم يكن هناك أى أثاث آخر غير الطاولة فى الغرفة. كانت هناك صناديق مصطفة إلى الحائط ونظفت الأرضية من كل شىء للرقص - كان هناك بعض الطلبة الأكبر سنا من مدرسة جريت فيث يرقصون فى أزواج ويقومون بحركات لم أرها من قبل قط.

سأل ليتل مان: «ماذا يفعلون؟».

رفعت كتفى. «أظن أن هذا ما يسمى بالرقص».

صرخ أحدهم بينما أغلق الباب الخلفى للمخزن بعنف: «ها هو ذا ينطلق!». التفت ستيسى بسرعة وانطلق إلى خلف المبنى. كان تى جيه يفر مباشرة تجاه طريق سولدجرز. اندفع ستيسى مسرعًا عبر فناء آل والاس ،وقافزًا عاليًا مثل ثعلب الغابة، وقع فوق تى جيه مباشرة مطيحا به على الأرض. تدحرج الولدان نحو الطريق، كل منهما يحاول بقاء ظهر الأخر على الأرض، لكن ستيسى؛ لأنه كان الأقوى، كان له الأفضلية وتى جيه، مكتشفًا أنه لن يستطيع زحزحته، «هيه، انتظر دقيقة يا رجل، أعطنى فرصة لأشرح لك».

ستيسى لم يعطه الفرصة ليكمل كلامه. قفز وسحب تى جيه إلى أعلى أيضًا ولكمه بقوة فى وجهه. تهاوى ستيسى إلى الوراء ممسكا بعينه كأنه أوذى أذى شديدًا وللحظة أغفل ستيسى حذره. فى هذه اللحظة صدم تى جيه ستيسى بقوة، مجبرا إياه على التصارع على الأرض مرة أخرى.

شجعت أنا وليتل مان وكريستوفر جون مع الآخرين، محيطين بالمتصارعين، فى حين تدحرجوا للأمام والخلف لاكميْن بعضيهما. كلنا كنا مستغرقين فى الشجار لدرجة أنه لم ير أى منا العربة التى يجرها البغل تتوقف على الطريق وخرج منها رجل عملاق. لم أرفع نظرى إلا عندما بدأت أشعر بأن الصراخ قد توقف وبدأ الأولاد والبنات حولى فى التراجع إلى الخلف.

كان السيد موريسون ينظر إلينا من أعلى.

لم ينظر إلىَّ أو إلى كريستوفر جون أو ليتل مان، مع أنى أعرف أنه رآنا، لكنه مشى مباشرة نحو المتعاركين ورفع ستيسى الذى كان لا يزال يلوح يده بالضرب

من فوق تى جيه. بعد لحظة طويلة سادها التوتر، قال لستيسى: « اركب أنت وإخوتك على العربة».

مشينا من خلال الجمهور الصامت. حدق كالب وديوبيرى الذين كانوا يقفون على الشرفة الأمامية للمتجر ومعهم آل سيمز، بالسيد موريسون حينما كنا نمر، لكن السيد موريسون نظر من خلالهم كأن لا وجود لهم. جلس ستيسى فى مقدمة العربة مع السيد موريسون؛ وتسلق بقيتنا لنركب بالخلف: «الآن سننال عقابنا».

ارتجف كريستوفر جون: «قلت لكم: إنه كان يجب علينا الذهاب إلى المنزل».

قبل أن يمسك السيد موريسون باللجام، ناول ستيسى منديلا لكى يغطى بها يده المكدومة، لكنه لم ينطق بكلمة ولم ينكسر الصمت إلا بعد أن تعدينا التقاطع المؤدى إلى مدرسة جريت فيث.

سأل ستيسى بصوت مبحوح: «سيد موريسون... هل ستخبر أمى بما حدث؟».

كان السيد موريسون شديد الصمت فى حين كانت طقطقة جاك البغل تدوى بالطريق. قال أخيرا: «يبدو أنى سمعت أمكم تأمركم بألا تذهبوا إلى متجر والاس هذا».

قال ستيسى وهو يرمق السيد موريسون بتوتر: «نعم يا سيدى»، ثم انفجر قائلاً: «لكن كان لدى سبب قوى للذهاب إلى هناك!».

«لا يوجد أبدًا أى سبب قوى يكفى لتعصى كلام أمك».

تبادلت أنا والأولاد نظرات مثيرة للشفقة وانكمشت عجيزتى لمجرد فكرة أن أمى ستضربنى عليها. هتفت بقلق: «لكن يا سيد موريسون، تى جيه كان مختبئا

هناك لأنه ظن أن ستيسى لن يستطيع أن يلحق به هناك. لكن ستيسى اضطر إلى الذهاب إلى هناك لأن تى جيه كان يغش و...».

أمرنى ستيسى، ملتفتا إلى الناحية الأخرى بطريقة محتدة: «اسكتى يا كيسى».

ترددت للحظة قبل أن أقر بأن عجيزتى أهم من فخر ستيسى «- وكان ستيسى مضطرًا لأن يتلقى اللوم على هذا الأمر، وقامت أمى بضربه بالسوط أمام الله والجميع!». انتظرت السيد موريسون أن يتفوه بأى شىء حال ما انكشفت الحقيقة، بحلق جاف ومعدة غثة.

وعندما تكلم، أصغينا كلنا متوترين.

قال بهدوء: «لن أخبرها بشىء».

تنهد كريستوفر جون بارتياح: «لن تطأ قدمى هذا المكان أبدًا بعد ذلك» قطع على نفسه وعدًا. اتفقت أنا وليتل مان مع كلامه. لكن ستيسى حدق طويلا وبحدة تجاه السيد موريسون.

سأله: «كيف هذا يا سيد موريسون؟ لماذا لن تقوم بإخبار أمى؟».

قام السيد موريسون بإبطاء جاك حين انحرفنا نحو الطريق المؤدى إلى المنزل. «لأننى سأترك أمر إخبارها لكم».

هتفنا كلنا: «ماذا!».

قال ببطء: «أحيانا يضطر المرء إلى العراك، لكن هذا المتجر ليس بالمكان المناسب للقيام بذلك. إن الأشخاص أمثال آل والاس، كما نما إلى علمى، لا يحترمون الملونين على الاطلاق ويعتقدون أنه أمر مضحك عندما يروننا نتعارك.

أمك تعلم أن قوم والاس أشخاص سيئون، لهذا طلبت منكم عدم الذهاب إلى هناك، وتدينون لها ولأنفسكم بأن تخبروها بما حدث. لكننى سأترك الأمر لكم تمامًا لتقرروا ما أنتم فاعلون تجاهه».

أومأ ستيسى مفكرًا، أحكم المنديل أكثر على يده المجروحة. لم يبدُ على وجه ستيسى الخوف، فقط لو اكتشف طريقة ليخبر بها أمى عن الكدمات على يده دون أن يكذب عليها فسوف يستطيع أن يبرئ ساحته؛ لأن السيد موريسون لم يقل إنه مضطر لإخبارها. لكن لسبب «ما» لم أفهمه، قال ستيسى: «حسنًا يا سيد موريسون، سأقوم بإخبارها».

صرخت به حال ما وصل كريستوفر جون وليتل مان إلى نفس التفسير: «هل فقدت عقلك يا ولد؟! إذا كان لا يكترث بنجاة نفسه، على الأقل كان يجب أن يضع سلامتنا فى الاعتبار».

لكن يبدو أنه لم يسمعنا فى حين التقت عيناه بعينى السيد موريسون ابتسم بعضهما لبعض بتفهم متقن، وتلاشت المسافة التى كانت بينهما.

عندما اقتربنا من المنزل، رأينا سيارة السيد جرينجر الباكارد تخرج من المدخل المغبر. وجه السيد موريسون جاك نحو جانب الطريق حتى مرت السيارة الكبيرة، ثم وجه العربة مرة أخرى إلى منتصف الطريق متوجها نحو مدخل المنزل. كانت الجدة الكبيرة تقف عند بوابة الفناء التى توصل إلى مدخل البيت، تحدق عبر الطريق نحو الغابة.

سأل ستيسى، قافزا من على العربة ومتوجها نحوها: «يا جدة، ماذا كان السيد جرينجر يفعل هنا؟». قفزت أنا وكرستوفر جون وليتل مان أيضًا وتبعناه.

ردت الجدة الكبيرة بعدم اكتراث ومازالت تنظر نحو الغابة: «لا شيء، يحاول فقط أن يثير قلقي بهذه الأرض مرة أخرى».

قال ستيسي، بنبرة تدل على أنه يعتبر هذه الزيارة دون أهمية: «حقا»، كان السيد جرينجر يريد الأرض دائمًا. التفت وذهب ليساعد السيد موريسون. ذهب كريستوفر جون وليتل مان وراءه، لكنني بقيت بجوار البوابة مع الجدة الكبيرة.

قالت: «يا جدة، لماذا يحتاج السيد جرينجر إلى مزيد من الأرض؟».

قالت الجدة بصوت منخفض: «إنه لا يحتاجها، إنه الآن يملك أراضيَ أكثر مما يستطيع التصرف بها».

ـ «إذن لماذا يريد أرضنا؟».

ـ «إنه يريد أن يأخذها فقط، هذا كل ما في الأمر».

«حسنًا، يبدو لي أنه يتصرف بطمع. لن تقومي ببيعها له، أليس كذلك؟».

لم تقم الجدة الكبيرة بالرد علي. بدلا من ذلك قامت بفتح البوابة ومشت بالممر عبر الطريق، متجهة نحو الغابة. ركضت وراءها. مشينا في صمت على ممر البقر الضيق الذي يؤدي من الغابة القديمة إلى البركة. عندما اقتربنا من البركة، انشقت الغابة إلى فرجة شاسعة بنية اللون، من صنع البشر بسبب الأشجار الكثيرة التي تم قطعها، كان البعض منهم مال على الأرض. تم قطعها في فصل الصيف عندما أتى السيد أندرسن من ستروبيري بعرض لشراء الأشجار. وكان العرض مدعمًا بتهديد، مما أثار خوف الجدة الكبيرة. لذا أحضر السيد أندرسن قاطعي الأخشاب، وهموا بحطب ونشر وتدمير الأشجار الجيدة العتيقة. كان أبي قد غادر للعمل بالسكة الحديد عندما بعثت أمي بستيسي له. عاد أبي وأوقف القطع لكن ليس قبل أن تسقط كثير من الأشجار.

تفحصت الجدة الكبيرة هذه الأرض المقطوعة الشجر فى الغابة دون أن تنطق بكلمة، ثم بعد أن خطت حول هذه الأشجار النخرة، سلكت طريقها نحو البركة وجلست على إحداها. جلست بالقرب منها وانتظرتها كى تتكلم. هزت رأسها بعد وهلة وقالت: «إننى فى غاية السرور أن جدك لم يكن مضطرًّا ليرى كل هذا يحدث. كان يحب هذه الأشجار العزيزة جدًّا. كثيرًا ما كنا نأتى أنا وهو إلى هذا المكان فى الصباح الباكر أو قبل أن تغرب الشمس مباشرة فقط لنجلس ونتحدث. كان يطلق على هذا المكان موقع تفكيره وسمى هذه البحيرة كارولين تيمنا باسمى».

ابتسمت بجمود ولكن ليس من أجلى.

«أتعلمين، كنت... كنت فى الثامنة عشرة من عمرى عندما تزوجنى بول إدوارد وأحضرنى إلى هنا. كان يكبرنى بحوالى ثمانى سنوات وكان ذكيًّا. يا إلهى! كان رجلا فريد الذكاء. كان له عقل من الصلب. إذا عنَّ له أمر، يستطيع أن ينفذه فورا. تعلم النجارة عندما كان فى ماكون، جورجيل، حيث نشأ. لقد ولد فى الأسر، ولد بعامين قبل إعلان الحرية، وبقى هو وأمه بهذه المزرعة حتى بعد انتهاء النضال. لكنه عندما بلغ الرابعة عشرة من عمره وتُوفيت أمه، ترك المكان وذهب ليعمل فى فيكسبرج».

سألت وأنا أعرف الإجابة مسبقا: «قابلك هناك، صحيح يا جدة؟».

أومأت الجدة مبتسمة: «بالتأكيد. كان يعمل بالنجارة هناك وأخذنى أبى معه إلى فيكسبرج - كنا مزارعين مستأجرين ونبعد قرابة الثلاثين ميلاً من هذا المكان - لأنظر أمر شراء كرسى هزاز جاهز لأمى، وكان هناك يعمل بول إدوارد بالنجارة فى متجر الأثاث هذا. كان عمله جيدا لكنه لم يكن يريد لنفسه مثل هذه

الوظيفة. كان يريد أن يكون له أرض ملك. ظل يتحدث ويتحدث عن الأرض حتى أعلنت هذه القطعة للبيع».

«واشترى لنفسه مائتى فدان من ذلك الرجل الأبيض، أليس كذلك؟».

ضحكت الجدة ضحكة مكتومة: «ذهب هذا الرجل إلى السيد هولنبك مباشرة وقال: يا سيد هولنبك، إنى على دراية بأن لديك أرضًا تريد بيعها وإننى لمهتم بشراء مائتى فدان لنفسى إن كان سعرك مناسبًا» استجوبه السيد هولنبك بشأن كيفية حصوله على المال لسداد ثمن الأرض، لكن بول إدوارد رد قائلاً: «لا أظن أنه من شأنك أن تعرف كيفية حصولى على المال مادمت ستحصل على ثمن الأرض. لا شىء كان يثير خوف هذا الرجل!». قالت الجدة الكبيرة والفخر يملؤها: «وقام السيد هولنبك بعقد الصفقة وأعطاه الأرض. بالطبع كان يريد بيع الأرض بقدر ما كان بول إدوارد يريد شراءها. كانت الأرض فى حوزته قرابة العشرين عاما - اشتراها أثناء فترة إعادة الهيكلة من آل جرينجر -».

ـ «لأنه لم يكن لديهم المال لسداد الضرائب -»

ـ «ليس فقط لأنهم لم يملكوا المال الكافى لسدادها، بل لم يكن لديهم المال من الأصل! تركتهم تلك الحرب مفلسين تمامًا. لم تكن أموال التحالف التى بحوزتهم تساوى شيئًا وقام كل من جنود الشمال والجنوب بسلب ونهب منزلهم. لم يكن بحوزة آل جرينجر شىء سوى الأرض واضطروا لبيع ألفى فدان ليحصلوا على المال لدفع الضرائب وليقوموا ببناء الباقى منها، واشترى هذا الأبيض الألفى فدان كلها -»

ـ «ثم غير رأيه وحاول بيع الأرض إليهم مرة أخرى، صحيح يا جدة؟».

ـ «بالتأكيد... لكن ليس قبل عام سبع وثمانين عندما تقدم جدك وابتاع لنفسه مائتى فدان. مثلما سمعت، حاول هذا الأبيض بيع الألفى فدان لوالد هارلان جرينجر بأقل من قيمتها الفعلية، لكن فيلمور جرينجر كان بخيلا جدًّا بشأن المال أكثر من أى شخص عاش بالأرض ولم يرد شراءها مرة أخرى. لذا بدأ السيد هولنبرك بإعلام الآخرين بأنه يريد بيع الأرض، ولم يمر وقت طويل لبيع الأرض كلها لأنها كانت أرضًا جيدة جدًّا. اشترى مجموعة أخرى من المزارعين الصغار، إلى جانب جدك، ثمانمائة فدان واشترى السيد جيميسون بقية الأرض».

«لكن لم يكن هذا السيد جيميسون الذى نعرفه» قلت مضيفة بذلك معلومة: «كان والده».

قالت الجدة الكبيرة: «كان اسمه تشارلز جيميسون، كان رجلا مهذبا أيضًا. كان جارا جيدا وكان يعاملنا معاملة حسنة .... تمامًا مثل ابنه. إن آل جيميسون من الأشخاص الذين يطلق عليهم «أولد ساوث» (الجنوب القديم) من فيكسبرج، وكما أفهم الأمر، كان لديهم قبل الحرب أموال كثيرة مثل أى شخص آخر، حتى بعد الحرب كان حالهم أفضل بكثير من الآخرين؛ لأنهم اكتسبوا بعض الأموال من الشمال. على أية حال قرر السيد جيميسون أنه يريد أن يعمل بالزراعة وانتقل هو وعائلته من فيكسبرج إلى هنا. لم يكن السيد ويد جيميسون قد بلغ ثمانى السنوات من عمره آنذاك».

قلت أنا: «لكنه لم يحب العمل بالزراعة».

ـ «بلى، لقد كان يحب ذلك. لكنه لم يمارس الزراعة كثيرًا، وبعد أن ذهب شمالا لدراسة القانون، وجد أنه من الأحرى له أن يمارس مهنة المحاماة».

«ألهذا السبب باع المائتى فدان الأخرى لجدى؟».

«بالطبع... وكان من الصالح منه أن يفعل ذلك أيضًا. كان بول إدوارد عزيزى متطلعا للمائتى فدان منذ ١٩١٠م عندما سدد البنك ثمن المائتى فدان الأولى، لكن السيد جيميسون لم يكن يميل إلى بيعها. فى نفس الوقت تقريبا أصبح هارلان جرينجر كبير عائلته ومالك المزرعة - تعرفين أنه وويد جيميسون كانت سنهما متقاربة عندما كانا صغيرين - وأراد أن يستعيد كل شبر من الأرض التى كانت ملكا لآل جرينجر قديما. كان هذا الرجل مهووسًا بكل شىء قبل الحرب، وكان يريد أرضه كما كانت فيما سبق. كان فى ذلك الحين يملك أكثر من أربعة آلاف فدان، لكنه كان متلهفًا ليستعيد الألفى فدان التى باعها جده. كان قد سبق واستعاد ثمانمائة فدان منها من المزارعين الآخرين الذين اشتروا الأرض من السيد هولنبرك -».

أعلنت بإيماءة مؤكدة: «لكن لم يكن جدى والسيد جيميسون الكبير راغبين فى البيع نهائيا، صحيح يا جدة؟ لم يهتما بكم الأموال التى عرضها عليهما السيد جرينجر!».

«هذه هى حقيقة ما حدث بالتأكيد» أقرت الجدة الكبيرة «لكن توفى السيد جيميسون عام ١٩١٨م وأصبح ويد هو كبير العائلة، باع المائتى فدان لبول إدوارد وبقية الأرض لهارلان جرينجر، وانتقل بعائلته إلى ستروبيرى. كان باستطاعته بمنتهى البساطة أن يبيع الألف فدان كلها إلى جرينجر وجنى المزيد من المال، لكنه لم يفعل... وإلى هذا اليوم فإن هرلان جرينجر يحملها ضغينة له لأنه قام بذلك..».

جعل الحفيف الرقيق لأوراق الشجر الجدة الكبيرة تلتفت من البركة إلى الأشجار مرة أخرى. تقوست شفتاها مشكلة ابتسامة عذبة فى حين نظرت حولها

فى تفكر. «أتعلمين»، قالت، «مازلت أستطيع أن أرى وجه بول توماس عزيزى يوم باعه السيد جيميسون المائتى فدان الأخرى. وضع ذراعه حولى ونظر إلى قطعة الأرض الجديدة، ثم قال نفس الذى قاله عندما حظى بقطعة أرضه الأولى.

قال: «كارولين الجميلة، ما قولك فى زراعة قطعة الأرض الممتازة هذه معى؟!» تمامًا ... قال نفس الشىء تمامًا».

طال صمتها ثم مسحت التجاعيد بيدها كأنها تسويها. نظرت إلى البركة طويلا، كانت تلمع كالزجاج، رمادية وهادئة، حتى استعدت لمواصلة كلامها. تعلمت من مواقف كهذه أنه من الأفضل الجلوس والانتظار عن المبادرة بأسئلة مزعجة قد تغيظها.

«مضى وقت طويل الآن»، قالت أخيرا، بصوت كاد أن يكون همسا. «عملنا بكد فى زرع المحاصيل، وفى حصدها. كان لنا وقت... لكن كانت هناك أوقات ممتعة أيضًا. كنا فى شبابنا أقوياء عندما بدأنا وكنا نحب العمل. لم يكن أحد منا، وأفخر بقولى هذا، كسول أبدًا ولا حتى قمنا بتربية أطفال كسولين. كان لنا ستة أطفال رائعين، بالرغم من أننا فقدنا البنات منذ أن كانوا فى مهدهم ... أعتقد أن هذا سبب حبى لأمكم اللطيفة كثيرًا... لكن كبر الأولاد كلهم وهم يحبون هذا المكان كما أحببته أنا وبول إدوارد. إذا رحلوا بعيدا، فإنهم دائمًا يعودون إليه. لا يستطيعون تركه».

هزت رأسها وتنهدت قائلة «ثم قتل ميتشل فى الحرب وغرق كيفن..». تلاشى صوتها تمامًا، لكن عندما عادت للحديث كان به قوة وكان هناك تألق حازم فى عينيها. «كل ما بقى لى من أولادى هم والدك وعمك هامر، وهذا المكان مكانهم بقدر ما هو مكانى. إن دماءهم تجرى فى هذه الأرض، وها هو ذاك هارلان

جرينجر يتحدث عن شرائها. لقد أزعج بول إدوارد حتى وفاته لكى يشتريها وها هو يزعجنى أنا الآن. أوف!». اكفهرت بغضب.

«إنه لا يعلم شيئًا عنى أو عن الأرض، معتقدا أننى سأبيعها له!».

غرقت فى صمتها مرة أخرى.

انبعثت ريح باردة، تلسعنى تحت سترتى، فارتجفت. نظرت الجدة الكبيرة نحوى للمرة الأولى. «هل تشعرين بالبرد؟».

«لـ-لا يا سيدتى»، نطقت بتمتمة، غير مستعدة لترك الغابة.

نطقت بكلمات لاذعة، وهى تمد بيدها لى: «لا تكذبى على يا فتاة! آن الوقت لأن نرجع إلى البيت على أية حال. ستعود أمك إلى البيت قريبا».

أخذت بيدها وتركنا معًا (بحيرة) الكارولين.

بالرغم من جهودنا لإثناء ستيسى بوجه آخر، أعترف لأمى أنه تعارك مع تى جيه عند متجر والاس وأن السيد موريسون هو من أوقف العراك. وقف على نحو مربك أمامها، كاشفا فقط عن الأشياء التى يستطيع التحدث عنها بشرف. لم يذكر شيئًا من غش تى جيه أو أننى كنت أنا وكريستوفر جون وليتل مان برفقته، وعندما سألته أمى سؤالا لم يستطع الإجابة عليه بصدق، نظر ببساطة إلى قدميه ورفض التحدث. جلس بقيتنا متململين بعصبية خلال الحديث، وعندما وجهت أمى نظرها تجاهنا، وجدنا بسرعة مكانًا آخر نركز عليه نظرنا.

أخيرا، بعد أن شعرت أنها حصلت على كل المعلومات التى تستطيع أن تعرفها من ستيسى، التفتت أمى نحونا. «أفترض أنكم أيضًا ذهبتم إلى المتجر معه، أليس

كذلك؟». قبل أن يستطيع أحد منا أن يهمس برد، صاحت بنا: «لقد طفح الكيل!».
وبدأت تمشى بخطوات ثابتة، طاوية ذراعيها، ووجهها غاضب.

بالرغم من أنها وبختنا بشدة لكنها لم تضربنا بالسوط. أرسلتنا إلى الفراش باكرا لكننا لم نعتبر ذلك عقابًا، وكنا نشك بأن أمى ستقوم بذلك. لم نتمكن من أن نفهم تمامًا كيف أفلتنا من العقاب إلى أن أتى يوم السبت، عندما أيقظتنا أمى قبل بزوغ الفجر وجمعتنا على العربة. أخذتنا نحو الجنوب الغربى إلى سميلينجز كريك، حين قالت: «المكان الذى سنتوجه إليه به رجل مريض جدًا ولا يشبه الأناس الآخرين. لكننى لا أريدكم أن تخافوا أو تشعروا بالضيق عندما ترونه. حاولوا فقط أن تكونوا على سجيتكم».

استغرقت رحلتنا أكثر من ساعتين قبل أن ننعطف تجاه ممر خلفى فى الغابة. كنا نرتج ونثب على الطريق الوعر حتى وصلنا إلى أرض مقطوعة الشجر فى الغابة حيث كان يوجد بيت رمادى والحقول الممتدة حوله قاحلة. حين شدت أمى اللجام وطلبت منا أن ندنو من العربة، انشق الباب الأمامى بكآبة، لكن لم يظهر أحد. حينها قالت أمى، «صباح الخير يا سيدة بيرى. أنا مارى لوجان. زوجة ديفيد».

تأرجح الباب مفتوحا إلى آخره ثم خطت إلى الخارج سيدة كهلة، ضعيفة، ولا يظهر بفكها أسنان. كانت ذراعها اليسرى متدليةً بضعف إلى جانبها كما لو كانت كسرت قديما ولكنها لم تلتئم بطريقة صحيحة، وكانت تمشى بعرج، وبالرغم من ذلك كان لها ابتسامة عريضة، وألقت ذراعها السليمة على كتف أمى. أعلنت بقوة: «بحق الأرض يا طفلتى، انظرى إلى نفسك، ألست جميلة! أأتيتم لتتفقدوا حالنا بعظامنا العتيقة. لقد كنت لتوى أقول لسام: «من تظن سيأتى لزيارة كهلين مثلينا؟» هؤلاء صغارك، أليس كذلك؟ يا إلهى، ما أحسن حالهم!

هم بأحسن حال بالتأكيد !». قامت باحتضاننا كل واحد على حدة وأرشدتنا إلى داخل المنزل.

كان داخل المنزل مظلمًا، يضيئه شريحة ضيقة من ضوء النهار الكئيب الذى يسمح الباب المفتوح بدخوله. حملت أنا وستيسى صفائح الحليب والزبد، وكان كريستوفر جون وليتل مان معهم جرة لحم بقرى وجرة أخرى بها حبوب اللوبيا، والتى قامت أمى والجدة الكبيرة بحفظها. أخذت السيدة بيرى الطعام منا، وكان شكرها يخالطه أسئلة عن حال الجدة الكبيرة وأبى وآخرين. قامت بسحب مقاعد، عندما وضعت الطعام فى مكانه، من الظلمة وأشارت إلينا بالجلوس، ثم اتجهت نحو أكثر الأركان فى البيت ظلاما وقالت: «بابا، من تعتقد قد سار كل الطريق ليأتى إلى هنا لزيارتنا؟».

لم يكن هناك إجابة يمكن تمييزها، مجرد أزيز حلقى غير بشرى. لكن من الواضح أن السيدة بيرى تقبلته واستمرت فى كلامها: «إنها السيدة لوجان ومعها صغارها. أليس هذا شىء يدعو إلى السرور؟». قامت بسحب ملاءة من طاولة قريبة قائلة: «يجب أن أقوم بتغطيته» مضيفة «أنه لا يحتمل أى شىء يلمسه». عندما ظهرت مرة أخرى، قامت بالتقاط عقب شمعة وتحسست حول الطاولة باحثة عن كبريت. «إنه لم يعد يستطيع الكلام. قامت النار بحرقه بشدة. لكنه يستطيع أن يفهم كل شىء جيدا». بعد أن عثرت على الكبريت، قامت بإشعال الشمعة والتفتت مرة أخرى نحو الركن.

كان هناك شكل ساكن يرقد هناك ويحدق بنا بعينين براقتين. لم يكن للوجه أنف، ولا للرأس شعر؛ كان بالوجه ندب وحروق، وكانت الشفاه ذابلة السواد،

مثل الفحم. عندما دوى صوت الأزيز من الفجوة التى من المفترض أن تكون الفم، قالت أمى «قولوا صباح الخير لزوج السيدة بيرى يا أطفال».

قمت أنا والأولاد بفأفأة ترحيب، ثم جلسنا فى صمت محاولين عدم التحديق بالسيد بيرى خلال الساعة التى بقيناها فى البيت الصغير. لكن أمى تكلمت بلطف مع السيد والسيدة بيرى، تحكى لهم عن أخبار المجتمع كما لو كان السيد بيرى شخصًا عاديا كأى شخص آخر.

بعد أن عدنا إلى الطريق العام مرة أخرى، فى حين كنا فى تفكير صامت خلال أثر الغابة، قالت أمى بهدوء « لقد قام آل والاس بهذا يا أطفال. قاموا بصب الكيروسين على السيد بيرى وأولاد أخيه وأضرموا بهم النيران. مات أحد أولاد أخيه، والآخر حاله كحال السيد بيرى تمامًا». سمحت لهذه المعلومات باختراق الصمت، ثم واصلت حديثها. «الكل يعرف أنهم هم من قام بذلك، حتى أن آل والاس يضحكون عند ذكرها، لكن لم يقم أى أحد باتخاذ موقف تجاه ما حدث. إنهم أناس كريهون، آل والاس هؤلاء. لهذا لا أريدكم أن تطئوا قدما بهذا المتجر مرة أخرى - لأى سبب كان. أتفهمون؟».

أومأنا، غير قادرين على الكلام فى حين كان تفكيرنا منصبًّا على الرجل المشوه المستلقى بالظلام.

وقفنا بعدة بيوت لطلبة أمى فى طريقنا للعودة، حيث تدفقت العائلات من الأكواخ الخشبية المستأجرة لتحيتنا. تكلمت أمى عند كل مزرعة عن التأثير السيىء لآل والاس، وعن التدخين والشرب المسموح به فى متجرهم، وطالبت العائلات بألا تسمح لأطفالهم بالذهاب إلى هناك.

أومأ الناس وقالوا إنها على حق.

تكلمت أيضًا عن متجر آخر ممكن مناصرته بدلا من متجر والاس، متجر يهتم مالكوه بمصلحة المجتمع. لكنها لم تتكلم مباشرة عما فعله آل والاس بآل بيرى لأنه، كما أوضحت لنا، شيء يتردد بين المعروف وغير المعروف.

والمصارحة به لأى أحد خارج دائرة معارف الأفراد المقربين، لم يكن بالأمر الحكيم. كانت آذان كثيرة موجودة لتستمع إلى الآخرين بجانب أنفسهم، وكثير من الألسنة تتحرك بالقيل والقال لأشخاص ليس من المفروض إخبارهم.

أومأ الناس فقط، وغادرت أمى.

عندما وصلنا إلى مزرعة تيرنر، حك والد مو الأرمل ذقنه الخشنة ونظر شزرا إلى أمى من الجانب الآخر للغرفة. «يا سيدة لوجان»، قال: «تعرفين أننى أشعر بنفس الشعور تجاه هؤلاء المنحطين آل والاس، لكنه ليس من السهل الانقطاع عن التسوق هناك. إنهم يطالبوننى بسعر أعلى وإنى لمرغم على إعطائهم فائدة عالية، لكننى لدى رصيد دائن هناك لأن السيد مونتيير يضمننى. بالطبع أنت على علم بأن معظم الناس يزرعون بالمشاركة فى أرض مونتيير، جرينجر أو هاريسون ومعظمهم يذهب للتسوق بمتجر والاس أو عند المتاجر فى ستروبيرى، والتى لا تزيد عن الأول سوءا. لا يمكنهم الذهاب إلى أى مكان آخر».

أومأت أمى بوقار، مظهرة تفهمها، ثم قالت: «منذ السنة الماضية الآن وعائلتنا تتبضع فى فيكسبرج. يوجد عدد من المتاجر هناك ووجدنا عددًا منها يتعاملون معنا بطريقة مهذبة».

«فيكسبرج؟». ردد السيد تيرنر، وهو يهز رأسه. «بالله عليك يا سيدة لوجان، أتتوقعين منى قطع كل هذه المسافة للذهاب إلى فيكسبرج؟ إنها رحلة تتطلب بالعربة ليلة وضحاها ذهابا وإيابا».

تفكرت أمى بهذا للحظة. «ماذا إذا كان هناك شخص على استعداد بالقيام بهذه الرحلة عنك؟ أن يسافر تلك المسافة كلها إلى هناك ويعود بما تحتاجه؟».

رد السيد تيرنر بحجة معاكسة. «لن يجدى هذا نفعا، ليس لدى أوراق نقدية. يمضى السيد مونتيير عنى هناك فى متجر والاس حتى أستطيع أن أحصل على أدواتى وبغلتى وحبوبى وسمادى وطعامى والملابس القليلة التى أحتاجها لأولادى حتى لا يتجولوا عراة. وحين يأتى وقت جمع القطن، يقوم ببيع قطنى، يأخذ نصفه، يسدد ديونى فى المتجر وفائدة قرضهم، ثم يكلفنى بعشرة أو خمسة عشر بالمائة نسبة يسميها مال «المجازفة» للإمضاء وضمانى فى المقام الأول. كسبت هذا العام ما يقارب المائتى دولار بعد أن أخذ السيد مونتيير النصف الخاص به من أموال المحصول، لكننى لم أر بنسًا من المال من هذا المبلغ. فى الواقع، إذا تمكنت من أن أخرج من هذا العام دون أن أكون مديونا بالمال لهذا الرجل، فإنى سأعتبر أن هذا العام مر بسلام. الآن من يا ترى على استعداد فى فيكسبرج سيعطى رصيدًا دائنًا لرجل مثلى؟».

كانت أمى شديدة الصمت ولم تجب.

«إنى لآسف حقًا يا سيدة لوجان. سأقوم بمنع أولادى بالتأكيد من الذهاب إلى ذلك المتجر، لكنى مضطر للعيش. إنكم بحال أفضل بكثير من معظم الناس هنا؛ لأنكم لكم أرضكم الخاصة التى تزرعونها ولستم مضطرين إلى مقاساة كثير مما يحدث لنا. لكن يجب أن تتفهمى بأنه ليس من السهل للذين يعيشون على مقاسمة المحصول القيام بما تطلبين».

«سيد تيرنر»، قالت أمى بهمس، «إذا كان هناك من هو على استعداد لضمان إمضائك؟ هل ستتبضع حينها فى فيكسبرج؟».

نظر السيد تيرنر إلى أمى بغرابة؟ «ومن المستعد لضمان إمضائى يا ترى؟».

«هل أنت على استعداد للقيام بذلك إذا كان هناك من يضمن إمضاءك؟».

حدق السيد تيرنر فى النيران وهى تحترق لتكون رمادًا ضعيفًا، ثم نهض وقام بوضع زند خشب آخر عليها، ثم أخذ وقته وهو يتأمل النار وهى تنطلق إلى أعلى وتلتهم الزند. وبدون أن يلتفت قال: «عندما كنت ولدا صغيرا جدا، احترقت بطريقة سيئة. لقد اندملت الآن لكنى ما أزال أتذكر ألمها... إنها لطريقة بشعة ليموت بها المرء». ثم، ملتفتا، فى مواجهة أمى «إذا وجدت شخصًا يضمن إمضائى على رصيد الدائن الخاص بى يا سيدة لوجان، أعدك بأن أدرس المسألة بتعمق».

عندما غادرنا آل تيرنر، سأل ستيسى «من ستحضرين ليضمن توقيعه يا أمى؟». لكن أمى بحاجبيها المنعقدين، لم تجبه. بدأت لأردد عليها السؤال، لكن ستيسى هز رأسه فجلست بالخلف متعجبة، ثم استغرقت فى نوم عميق.

5

كاد البريق الكحلى الذى كان يحيط بأناقة عين تى جيه اليسرى لمدة تزيد عن الأسبوع قد تلاشى تمامًا فى الصباح الذى قام فيه بالقفز فى مؤخرة العربة إلى جوار ستيسى، شد نفسه إلى ركن خلا بالكاد من الزبد والحليب الذى أخذته الجدة الكبيرة معها لبيعه فى سوق ستروبيرى. جلست فى الأمام بجوار الجدة الكبيرة، وكانت عيناى لا تزالان مغيمتين ولا أستطيع أن أصدق أننى بالفعل ذاهبة معها.

كان السبت الثانى من كل شهر هو يوم السوق فى ستروبيرى، ولطول الماضى لا أستطيع أن أتذكر، فقد كنت أنا والأولاد فى استجداء دائم للجدة

الكبيرة بأن تأخذنا بصحبتها إلى السوق. لقد ذهب ستيسى مرة إلى هناك فعلا، ولكن كنا بصراحة أنا وكريستوفر جون وليتل مان محرومين من خوض التجربة. كانت فى الواقع، ترفض استجداءاتنا كثيرًا جدًا ـ لدرجة أن أصبح رغانا وزبدنا من قبيل العادة أكثر مما هو إيمان حقيقى بأنه سيسمح لنا فى يوم من الأيام بالذهاب ـ لكن هذا الصباح، فى حين كان الظلام لا يزال دامسًا، أيقظتنى الجدة الكبيرة: «كيسى، انهضى يا طفلتى، إذا أردت الذهاب معى إلى البلدة، فيجب عليك أن تلتزمى الهدوء بهذا الشأن. سأتركك هنا إذا أيقظت كريستوفر جون وليتل مان. لا أريدهما أن يبدءا بالبكاء طوال الوقت لأنهما لا يمكنهما الذهاب».

وبينما قام البغل جاك بجر العربة نحو الطريق الرمادى، قامت الجدة الكبيرة بشد اللجام بقوة وتذمرت قائلة: «هيا توقف،توقف يا جاك ! ليس لدى وقت كى أتحمل حماقتك أنت وتى جيه»

«تى جيه!» صرخت أنا وستيسى معا «أهو قادم؟!».

لم تجب الجدة على الفور؛ فقد كانت منشغلة بتحد إرادى بينها وبين جاك. وعندما انتصرت إرادتها واستقر جاك إلى مشى الهوينى، ردت علينا باكتئاب، «لقد عرج علينا السيد أفرى بعد أن أخلدتم إلى النوم جميعكم بالأمس وأراد تى جيه أن يذهب إلى ستروبيرى للتسوق وإحضار بعض الأشياء التى لا يستطيع شراءها من متجر آل والاس. يا إلهى، إن هذا هو كل ما أنا فى حاجة إليه وبالإضافة إلى كل هذه المشاكل أن أصطحب فتى يحدثنى إلى درجة الملل طوال طريق يبلغ طوله اثنين وعشرين ميلا».

لم تكن الجدة الكبيرة فى حاجة إلى قول المزيد ولم تضطر إلى ذلك. إن تى جيه آخر من يحظى بالاحترام من الجدة الكبيرة، وكان من الواضح تمامًا أننى كنت وستيسى ندين لشخصية تى جيه البغيضة جدًّا بنصيبنا الطيب.

كان نشاط تى جيه مكبوتًا تمامًا عندما استقر على العربة؛ وأعتقد أن فم تى جيه كان فى الساعة الثالثة والنصف صباحا متعبا. لكن مع بزوغ الفجر.

عندما بدأت شمس ديسمبر تنسل بحذر عاليًا، وتقذف أشعتها الشاحبة ذات اللون البرتقالى الباهت خلال الغابة، حينها كان تى جيه يقظًا تمامًا ويثرثر مثل الببغاء. وجعلنى كلامه الذى بدا أنه لا نهاية له، أتمنى أن لو لم يتمكن من أن ينال مكانته بتملق عائدا إلى رحمات ستيسى الطيبة بهذه السرعة، لكن الجدة الكبيرة، كان وجهها مطرق فى التفكير العميق، لم تقم بإسكاته. استمر يتكلم بقية الطريق إلى ستروبيرى، معلنا حين وصولنا: «حسنًا يا أطفال، افتحوا أعينكم وادخلوا ستروبيرى، مسيسبى!».

«أهذه هى؟». هتفت، فى حين طوقنى الإحباط بدخولنا البلدة. لم تكن ستروبيرى تقارن بشىء من البلدة الضخمة الممتدة الأرجاء التى تصورتها. كانت على العكس، مكانًا كئيبًا يغلب عليه لون الحمرة. بقدر ما استطعت أن أرى، فقد كانت العصرية فيها ممثلة فى شارع مرصوف يخترق وسطها وينحدر باتجاه الشمال، بعيدًا عنها، وأعمدة دوارة للكهرباء. كانت هناك أشرطة من الوحل الأحمر تغطى الطريق ببقع برقع من العشب البنى وبريكات الوحل الجافة، ووراء الوحل والبريكات، كانت هناك مبانٍ لمتاجر موحشة مستقرة وراء رصيف مشاة خشبى وشرفات متدلية.

قلت محتجة: «تبا! إنها بالتأكيد ليست شيئًا يستحق الإعجاب بها».

قالت الجدة الكبيرة: «اسكتى يا كيسى وأنت أيضًا يا تى جيه. إنكم جميعًا بالبلدة الآن وأتوقع منكم أن تتصرفوا تصرفات لائقة. بعد ساعة أخرى سيعج المكان بأناس من كل مكان بالمقاطعة وأنا لا أريد أية إثارة للمشاكل».

فى حين أعطت المتاجر مساحة كافية للبيوت التى لا تزال تغط فى نوم عميق، انحرفنا إلى طريق جانبى موحل كان يؤدى إلى المزيد من المتاجر ووراءه حقل واسع مزدان بأكشاك خشبية. بالقرب من مدخل الحقل وكانت هناك عدة عربات مزارع وشاحنات صغيرة، لكن الجدة الكبيرة قادت عربتها إلى الناحية الأخرى من الحقل حيث كانت هناك عربتان مركزيتان. قالت وهى تتدلى من العربة، «لا يبدو أن كثيرًا من الناس متقدمون عنا. علىَّ فى الصيف أن آتى إلى هنا يوم الجمعة وأقضى الليل هنا لكى أحصل على موقع كهذا». واتجهت نحو مؤخرة العربة. «ستيسى، ابق أنت وتى جيه هنا لدقيقة وقوما بدفع صفائح الحليب إلى هنا حتى تكون فى متناول يدى».

قلت وأنا أتبعها: «جدتى، هل كل الناس هنا يبيعون البيض والحليب أيضًا؟».

«أعتقد أنهم ليسوا جميعًا. البعض منهم لديه لحم وخضراوات، وألحفة ومنتجات خياطة وأشياء أخرى. لكنى أعتقد أن جزءًا كبيرًا منهم يبيعون مثلنا».

تفحصت العربات المستقرة بمدخل الحقل ثم هتفت، «حسنًا، ما الذى نفعله هنا بالخلف! لن يستطيع أحد رؤيتنا».

أنذرتنى الجدة: «انتبهى لما يخرج من فمك يا فتاة» ثم قالت بصوت حنون، وهى ترتب صفائح الحليب وسلال البيض بالقرب من حافة العربة، «سنبلى بلاء حسنًا. إن لى بعض الزبائن المعتادين وسيبحثون عنى أولاً قبل أن يقوموا بالتسوق».

«لا أعتقد أنهم سيقومون بذلك فى الخلف هنا» دمدمت. ربما كانت الجدة الكبيرة على دراية بما تفعله، لكنه لم يبد من المنطق على الإطلاق أن نكون بهذا البعد عن مدخل الحقل. كان يبدو أن معظم المزارعين الآخرين لديهم الفكرة الصحيحة، لكننى لم أستطع منع نفسى من محاولة مساعدتها لرؤية حس المتاجرة فى تحريك العربة إلى المقدمة. «لِمَ لا نقوم بتحريك عربتنا إلى هناك لنلحقها بالعربات الأخرى يا جدة؟ هناك متسع من المكان، ويمكننا أن نبيع أكثر».

ردت الجدة بفظاظة: «هذه عربات الأشخاص البيض يا كيسى» كما أن ما قالته أوضح كل شىء. ـ «الآن اسكتى وساعدينى بهذا الطعام».

«تبًّا»، تمتمت وأنا آخذ إحدى الصفائح من ستيسى، «فى الوقت الذى يصل فيه المرء إلى هنا سيكون قد أصابه ورم فى باطن قدميه ومسامير فى مشطيها».

كان الحشد الذى غطى الحقل أثناء الصباح الباكر قد بدأ ينقص بشكل ملحوظ، وبدأت بعض العربات والشاحنات الصغيرة بلم أغراضها لتتجه للمدينة. لحقنا نحن بهم بعد أن تناولنا غداءنا البارد من مقانق الزيت وخبز الذرة وشربنا بعده لبنًا رائبًا.

أوقفت الجدة الكبيرة العربة بالشارع العام لستروبيرى مرة أخرى أمام مبنى، كان يتدلى من عامود صدئ أربعة ألواح خشبية. أحد هذه الألواح كان مكتوبًا عليه «ويدوجيميسون، محام».

«هل يقطن السيد جيميسون هنا؟». صرخت مندفعة بعيدًا عن العربة، «أريد أن أراه».

قالت الجدة الكبيرة وهى تفتح كيس نقودها الكبير «إنه يقطن هنا»، وقامت بسحب ظرف كبير ونظرت بداخله، ثم أعادته بحذر شديد إلى مكانه مرة أخرى. «إن مكتبه هنا ولدى بعض الأعمال لأقضيها معه. ارجعى أنت إلى العربة». تدلت

الجدة من على العربة، لكننى لم أعد إلى مكانى. سألت بإصرار: «ألا أستطيع أن أصعد إليه لألقى السلام؟».

قالت الجدة الكبيرة: «سأبلغك أنت السلام إذا تماديت فى إزعاجى». نظرت نحو ستيسى وتى جيه، «انتظرونى كلكم هنا حتى أرجع، سنذهب للتسوق حتى نستطيع أن نعود إلى المنزل قبل حلول الظلام».

قال تى جيه فور دخول الجدة الكبيرة «لماذا تريدين رؤية هذا الرجل الأبيض على أية حال يا كيسى؟ ماذا لديكما لتتحدثا به؟».

قالت مُتَجَهَةً نحو الرصيف العالى متخذة منه مقعدًا «كنت أُريد أن أراه، هذا كل ما فى الأمر». إنى أحب السيد جيميسون ولا أخجل من الاعتراف بذلك. لقد جاء ليرانا عدة مرات هذا العام، أكثرها زيارات عمل، وبالرغم من أنى والأولاد كنا نخجل منه، لكننا كنا دومًا مسرورين لرؤيته. كان الرجل الأبيض الوحيد الذى سمعته يخاطب أمى والجدة الكبيرة بـ«سيدة»، وأحببته لذلك. إلى جانب ذلك كان بطريقة ما مشابهًا لأبى: إذا سألته سؤالاً سيعطيك الإجابة مباشرة دون أية مواربة. أحببت ذلك.

بعد عدة دقائق مضت فى مشاهدة المزارعين فى ثياب عملهم الباهتة وزوجاتهم فى أردية فضفاضة متنزهين تحت الشرفات، قال تى جيه «لماذا لا نذهب نحن إلى المتجر ونتفقد الأشياء هناك؟».

تردد ستيسى «لا أعلم. أعتقد أن الجدة الكبيرة تريد أن تذهب معنا».

رد تى جيه: «ياه، تبًا يا رجل، نحن سنسدى لها معروفًا. إذا ذهبنا إلى المتجر الآن وطلبنا أغراضنا، سنكون قد وفرنا لها بعض الوقت وعندما تنتهى من رؤية هذا المحامى، سيكون بإمكاننا العودة إلى ديارنا فورًا. إلى جانب ذلك، لدى شىء أريد أن أريه لك».

فكر ستيسى مليًّا فى هذا الاقتراح. وقال أخيرًا: «حسنًا، أعتقد أن الأمر سيكون على ما يرام».

«لقد أمرتنا الجدة الكبيرة بالبقاء هنا!» اعترضت، آملة أن يخرج السيد جيميسون مع الجدة الكبيرة.

قال ستيسى من وراء كتفه فى حين كان يعبر الشارع مع تى جيه «ابقى هنا إذن».

انطلقت وراءهما. لم يكن لدى أدنى استعداد للبقاء على هذا الرصيف وحدى.

كان متجر بارنت يحتوى على كل شىء. كانت رفوفه ومناضده والمساحات الأرضية تزخر بأشياء كثيرة من أشرطة الزينة للسيدات إلى أكياس الحبوب من نسيج الخيش؛ من زجاجات الأطفال إلى مواقد بطينة جديدة. تى جيه الذى قد كان ذهب إلى المتجر مرات عديدة من قبل، سلك طريقه بسهولة من بين المزارعين وأرشدنا إلى منضدة فى الركن البعيد من الغرفة. كان للمنضدة غطاء زجاجى، وتحت ذلك الزجاج كان يوجد مسدسات يدوية معروضة بفن على نسيج من القطيفة الحمراء.

قال تى جيه على نحو حالم. «انظر إليه فقط أليس شيئًا يسر النظر».

قلت له: «ماذا؟».

«ذاك ذو اليد اللؤلؤية. أرأيت يا ستيسى بحياتك كلها مسدسًا مثل هذا أبدًا؟ إننى على استعداد لبيع حياتى كى أحصل على هذا المسدس. وسأحصل عليه فى يوم من الأيام أيضًا».

قال ستيسى بأدب: «أتعتقد أننى لن أريد هذا مثلك إنه فعلا مسدس ذو شكل جميل».

حدقت بنظرى فى المسدس وحدقت فى بطاقة الأسعار المكتوب عليها وإليها هى الأخرى. «خمسة وثلاثون دولارًا وخمسة وتسعون سنتًا!». كدت أن أصرخ. «لمجرد مسدس قديم؟ أستخدمه من أجل ماذا؟ لا يمكنك القيام بالصيد به».

نظر إلى تى جيه بتقزز: «ليس من المفترض أن يتم استخدامه بالصيد. لكن من أجل الحماية».

«حماية من ماذا؟» سألت وتفكيرى فى بندقية أبى المعلقة فوق سريره هو وأمى، والبندقية من نوع وينشستر التى تحتفظ بها الجدة مخبأة بالصندوق الكبير تحت سريرنا. «هذا الشىء بالكاد لا يستطيع أن يقتل أفعى من ذات الأجراس».

قال تى جيه بغطرسة: «هناك أشياء أخرى يحتاج الفرد للحماية منها أكثر من الأفعى ذات الأجراس.. إذا حصلت لنفسى على هذا المسدس فلن يجرؤ أحد مطلقًا على العبث معى. ولن أحتاج إلى أى أحد».

تراجع ستيسى بعيدًا عن المنضدة. كان يبدو متوترًا لمجرد وجوده بالمتجر. «من الأفضل لنا أن نقوم بإحضار الأشياء التى نحتاجها من المتجر ونخرج من هنا قبل أن تحضر الجدة الكبيرة باحثة عنا».

قال تى جيه وهو ينظر بلهفة شديدة إلى المسدس: «ياه يا رجل، إن لدينا متسعًا من الوقت.. يا ليتنى أستطيع فقط أن أمسكه، ولو مرة واحدة فقط».

أمره ستيسى قائلاً: «هيا تحرك يا تى جيه، وإلا سنعود أنا وكيسى إلى الخارج».

«أوه، حسنًا». التفت تى جيه على نحو مقاوم بعيدًا عن المسدس واتجه نحو منضدة حيث كان هناك رجل يقوم بوزن مسامير بالميزان. وقفنا بصبر منتظرين، خاف الناس الواقفون أمامنا، وعندما حان دورنا، أعطى تى جيه قائمته إلى الرجل. قال تى جى: «يا سيد بارنت، عندى هنا هذه القائمة بالأشياء التى تريدها أمى».

درس التاجر القائمة، وبدون أن يرفع نظره سأل: «أأنت أحد عمال السيد جرينجر؟».

أجاب تى جيه: «نعم يا سيدى».

اتجه السيد بارنت نحو منضدة وبدأ بملء الطلب، لكن قبل أن ينتهى نادت عليه سيدة بيضاء.

«يا سيد بارنت، أتقوم على خدمة أحد الآن؟».

التفت السيد بارنت وقال: «مجرد هؤلاء»، أشار إلينا ملوحًا بيده «بماذا أستطيع أن أخدمك يا سيدة إيمالين؟». أعطته السيدة قائمة أطول من قائمة تى جيه مرتين وقام التاجر من دون كلمة اعتذار لنا بمواصلة ملء طلبها.

اعترضت قائلة: «ما الذى يفعله؟».

«اصمتى يا كيسى»، قال ستيسى وهو يبدو فى شدة الحرج والانزعاج، فى حين كان يبدو على وجه تى جيه الراحة التامة كأن شيئًا لم يحدث على الإطلاق.

عندما تم أخيرًا الانتهاء من طلبات تلك السيدة، قام السيد بارنت باستكمال قائمة تى جيه مرة أخرى، لكن قبل أن يصل إلى النقطة التالية نادت عليه زوجته، «يا جيم لى، إن هؤلاء الناس يحتاجون إلى المساعدة هنا وإنى حقًّا لمنشغلة». وكأننا لم نكن أمامه فى المقام الأول، ذهب بعيدًا عنا.

«إلى أين هو ذاهب؟» صرخت.

قال تى جيه وهو يتجول بعيدا: «سوف يعود».

قال ستيسى بعد انتظار عودة السيد بارنت لعدة دقائق، «هيا بنا يا كيسى، لنذهب من هنا». حدق نحو الباب وتبعته أنا. لكن بعد أن تخطينا إحدى المنضدات، لمحت السيد بارنت يقوم بلف طلب من قطع لحم لفتاة بيضاء. كان البالغون موضوعًا آخر، كنت أستطيع إدراك ذلك. كانوا يحكمون كل شىء وليس بالإمكان القيام بشىء تجاه ذلك. لكن فتاة لم يتجاوز عمرها عمرى كان موضوعًا

آخر. بالتأكيد نسى السيد بارنت طلب تى جيه ببساطة. قررت أن أقوم بتذكيره إياه، وبدون أن أقول أى شىء لستيبسى، التفت وتوجهت نحو السيد بارنت.

«آه... عذرًا يا سيد بارنت» قلت ذلك بكل الأدب، منتظرة للحظة لكى يحيد نظره عن الغلاف. «أعتقد أنك نسيت، لكنك كنت تقوم بخدمتنا قبل تلك الفتاة هنا، وكنا فى انتظارك فترة طويلة الآن لكى تعود إلينا».حدقت الفتاة فىَّ باستغراب، لكن السيد بارنت لم يرفع نظره. اعتقدت أنه لم يسمعنى. كنت بالقرب من طرف المنضدة لذا توجهت نحو الجانب الآخر بكل بساطة وسحبت طرف كم قميصه لكى ألفت انتباهه.

اهتز السيد بارنت كأننى قمت بضربه. قلت له: «كـ-كنت تساعدنا نحن»، متراجعة نحو مقدمة المنضدة مرة أخرى.

«حسنًا، عودى أيتها الصغيرة السوداء إلى هناك وانتظرى لمزيد من الوقت» قالها بصوت منخفض وصارم.

بدأت أشعر بحرارة تلهب جسدى. حاولت أن أتصرف بأدب ولباقة نحوه بقدر ما استطعت وها هو يتحدث إلىَّ بهذه الطريقة. «لقد كنا ننتظرك لقرابة الساعة الآن» استهجنت قوله «فى حين كنت أنت هنا تقوم على خدمة الآخرين. وهذا ليس عدلا. وليس من حقك -»

رفع السيد بارنت صوته عاليًا: «زنجية من هذه الصغيرة؟».

التفت جميع مَنْ كان بالمتجر وحدقوا بى. صرخت، غاضبة: «إننى لست زنجية أحد! .. ومن الأفضل لك ألا تقوم على خدمة أحد قبل أن تنتهى من خدمتنا».

«اسكتى يا طفلة، اسكتى» همس أحدهم من خلفى. التفت لأنظر. كانت المرأة التى تستقل العربة المجاورة لعربتنا بالسوق تنظر إلىَّ بازدراء. وفورًا انقض عليها السيد بارنت، بوجه أحمر وعينين جاحظتين. «هل هذه الفتاة لك يا هيزل؟».

«لا يا سيدى»، أجابت السيدة بخنوع، تمشى بعجالة بعيدًا لتظهر أنه لا علاقة لها بى. فى حين كنت أنظر إليها وهى تدير ظهرها نحوى، ظهر ستيسى وأخذ بيدى.

«هيا بنا يا كيسى، لنخرج من هنا».

أعلنت ذلك بقوة، متنفسة الصعداء لأجده بجوارى «ستيسى، قل له! أنت تعرف أنه ليس عادلا بتركنا منتظرين -».

«هل هى أختك يا فتى؟». لفظها السيد بارنت عبر المنضدة.

عض ستيسى على شفته السفلى وحدق بعينى السيد بارنت: «نعم يا سيدى».

رد بغطرسة: «إذن أخرجها من هذا المكان وتأكد من أنها لن تعود إلى هنا حتى تعلمها أمكم ماذا تكون».

قلت متبرمةً «أنا أعرف من أنا سابقًا! لكننى أراهنك بأنك لا تعرف من تكون أنت! وبالتأكيد أستطيع إخبارك أيضًا، أيها -»

هزنى ستيسى إلى الأمام بعنف، ساحبًا يدى، وهمس بغضب: «اخرسى يا كيسى!». توهجت عيناه الداكنتان بغل فى حين دفعنى أمامه عبر الحشد.

ولما كنا بالخارج، سللت يدى من يده بسرعة وقلت: «ماذا بك؟ أنت تعرف أنه على باطل!».

ابتلع ستيسى ريقه لكى يدفع غضبه بعيدًا، ثم قال بفظاظة، «أعرف ذلك وأنت تعرفين، لكنه ليس على دراية بذلك، وهنا تكمن المشكلة. الآن هيا بنا قبل أن توقعى بنا فى ورطة حقيقية. سأصعد إلى السيد جيميسون لأرى ما الذى يعطل الجدة الكبيرة».

صحت وراءه بينما كان يعبر الشارع: «ماذا عن تى جيه؟».

ضحك ستيسى بخبث: «لا تقلقى بشأن تى جيه. إنه يعرف بالضبط كيف يتصرف». ثم عبر الشارع بتجهم ويداه فى جيبه.

شاهدته وهو يمشى لكننى لم ألحق به. عوضًا عن ذلك، مشيت الهوينى على الرصيف محاولة فهم السبب وراء تصرف السيد بارنت بالأسلوب الذى تصرف به. لأكثر من مرة توقفت ونظرت وراء كتفى نحو المتجر. كانت عندى رغبة شديدة لأعود لأعرف ما الذى أغضب السيد بارنت إلى هذا الحد. وفى الواقع التفت مرة واتجهت نحو المتجر، ولكننى عندما تذكرت ما قاله السيد بارنت بشأن عودتى إلى المتجر، انحرفت عائدة، ضاربة الرصيف بقدمى ورأسى منحنية.

عندها اصطدمت بليليان جين.

قالت بغضب: «لماذا لا تنظرين إلى حيث أنت ذاهبة؟». كان جيريمى وأخواها الأخران الصغيران معها. قال جيريمى: «أهلا يا كيسى».

قلت بوقار وعيناى مثبتتان على ليليان جين: «أهلا يا جيريمى».

قالت آمرة: «حسنًا، اعتذرى».

«ماذا؟».

«لقد اصطدمت بى. والآن عليكِ الاعتذار».

لم أشعر بأننى أريد أن أعبث مع ليليان جين. كانت هناك أمور أخرى تشغل بالى. «حسنًا»، قلت مغادرة جوارها، «أنا آسفة».

تحركت ليليان جين بخفة أمامى: «هذا ليس كافيًا، انزلى إلى الطريق».

نظرت إليها: «أجننت؟».

«إذا كنت لا تستطيعين أن تنظرى إلى أين أنت ذاهبة، فعليك النزول إلى الطريق. ربما بهذه الطريقة لن تصطدمى بأناس بيض لطفاء بذاتك الكريهة الصغيرة».

كانت تلك الإهانة الثانية هذا اليوم هى أكبر مما أستطيع أن أحتمل. كانت الفكرة الوحيدة التى أنقذت شفاه ليليان هى أن الجدة الكبيرة عند السيد جيميسون. قلت ذلك متحكمة بأعصابى على نحو لائق «إننى لست كريهة، وإذا كنت تخافين إلى هذا الحد من الاصطدام، فلم لا تنزلين إلى الشارع بنفسك».

غادرت جوارها مرة أخرى لأجدها تقف فى طريقى للمرة الثانية. قال جيريمى «هيا، لم لا تدعينها تمر يا ليليان؛ إنها لم تفعل شيئًا لك».

«لقد فعلت بى شيئًا بمجرد وقوفها أمامى». وبهذا مدت يدها لتمسك بذراعى محاولة دفعى عن الرصيف. قمت بتثبيت نفسى ودفعت ذراعى للخلف، بعيدا عن متناول ليليان جين. لكن شخصًا ما أمسك بذراعى من الخلف ولواها بألم ثم دفعنى بقوة من الرصيف إلى الطريق. هبطت على مقعدتى فى البداية على الأرض.

حملق فىَّ السيد سيمز: «عندما تقول لك ابنتى الصغيرة ليليان جيمس أن تنزلى من على الرصيف، فعليك طاعتها، أتسمعين؟».

كان خلفه ولداه أر دبليو وميلفن. وبدأ الناس يتوافدون من المتجر ويتجمهرون حول عائلة سيمز. سأل أحدهم: «أليست هذه هى تلك الزنجية الصغيرة التى كانت تقاطع جيم لى بالداخل؟».

أجاب السيد سيمز «نعم، هى نفسها أتسمعيننى أكلمك يا فتاة. اعتذرى للآنسة ليليان جين هذه اللحظة».

حدقت بالسيد سيمز خائفة. وظهر على جيريمى الخوف أيضًا. «أنا - أنا قمت بالاعتذار لها بالفعل».

بدا على جيريمى الارتياح عندما تحدثت: «لـ-لقد اعتذرت لتوى الآن بالفعل يا أبى، قبل قدومكم كلكم، قامت -»

التفت السيد سيمز إلى جيريمى ورماه بنظرة غاضبة، فبدا على جيريمى الاضطراب، نظر إلى، ثم نكس رأسه.

قفز السيد سيمز حينذاك إلى الشارع. تحركت بعيدًا عنه محاولة النهوض على قدمى. كان رجلا يبدو عليه اللؤم، ذا وجه أحمر ولحية. كنت خائفة من أن يهمَّ بضربى قبل أن أستطيع الوقوف على قدمى، لكنه لم يفعل. اندفعت واقفة وركضت بتهور تجاه العربة. أمسك بى أحدهم فقاومت بهمجية، محاولة الإفلات من ذلك الشخص. قالت الجدة الكبيرة. «توقفى يا كيسى! توقفى، إنه أنا. سوف نعود إلى البيت الآن».

قال السيد سيمز: «ليس قبل أن تقوم بالاعتذار إلى ابنتى، لن يذهب أى منكم».

حدقت الجدة الكبيرة بى والخوف يملأ عينيها، ثم وجهت نظرها إلى الحشد المتنامى. «إنها مجرد طفلة -».

«قولى لها، يا عمة -».

نظرت الجدة الكبيرة إلىَّ مرة أخرى، وبدا صوتها متكسرًا حين قالت «هيا يا طفلتى... اعتذرى».

«لكن يا جدة -».

ارتفع صوتها: «افعلى كما أقول لك».

ابتلعت ريقى بصعوبة.

«هيا!».

غمغمت: «أنا آسفة».

تم طلب السيد سيمز: «أنا آسفة، يا آنسة ليليان سيمز».

«يا جدة!». توقفت فجأة.

«قوليها يا طفلتى».

تدحرجت دمعة ألم من وجنتى وارتعدت شفتاى «أنا آسفة ... يا آ-آنسة ... ليليان جين».

عندما نطقت الكلمات التفت وهربت باكية إلى مؤخرة العربة. لم يمر يوم بحياتى أبدًا فى مثل قسوة هذا اليوم.

6

كان الطريق إلى المنزل طويلاً وصامتًا. لم يشعر أحد منا برغبة في الكلام، ولا حتى تي جيه. أخبرته الجدة الكبيرة بعد أن غادرنا ستروبيري بأنها لا تريد أن تسمع أي كلمة أخرى منه قبل أن نصل إلى المنزل. استاء تي جيه لفترة معبرًا عن ذلك ببعض التذمرات المسموعة، والتي لم يعرها أحد أي انتباه، ولكنه أخيرًا غط في نومه ولم يستيقظ إلا عندما وصلنا إلى طريق جرينجر ووقفنا عند منزل أفري.

في الوقت الذي دخل فيه جاك إلى ساحتنا، كان الليل قد أقبل بسواد دامس وكان عبقه محملاً برائحة المطر. نزلت الجدة الكبيرة بتعب من فوق العربة ودخلت

البيت دون أن تنطق بكلمة. بقيت مع ستيسى لمساعدته فى وضع العربة داخل الحظيرة وفك لجام جاك وإطعامه. بينما كنت أمسك بالمصباح اليدوى على مدخل الحظيرة، انسل ستيسى خلسة من جوار اللوح الخشبى الذى يبقى الباب مغلقًا قال بصوت هادئ وعميق: «يا كيسى، لا تفكرى فى لوم الجدة الكبيرة لما فعلته».

«ولم لا؟». سألت بغضب. «لقد أجبرتنى على الاعتذار إلى ليليان جين الدميمة تلك عن شىء لم أخطئ به فى المقام الأول. لقد انحازت إلى جانب عائلة سيمز بدون حتى أن تسمع منى».

«حسنًا، ربما لم يكن بقدرتها أن تفعل غير ذلك يا كيسى. ربما كانت مضطرة لأن تفعل ما فعلته».

«كانت مضطرة لما فعلته!» كدت أصرخ. «لم تكن مضطرة لفعل أى شىء! إنها سيدة بالغة تمامًا مثل ذلك السيد سيمز وكان عليها أن تناصرنى. ما كنت لأفعل بها هذا لو كنت فى مكانها».

وضع ستيسى لوح الخشب على الأرض ومال ناحية الحظيرة: «هناك أشياء لا تستطيعين فهمها، كيسى -».

«هاه والمفروض أنك ملم بكل شىء؟ أنت تعتقد أنه منذ أن ذهبت إلى لويزيانا لإحضار أبى الصيف الماضى أنك تعرف الكثير! حسنًا، أراهنك أنك تعرف شيئًا واحدًا. إذا كان أبى فى هذا الموقف فإنه لم يكن ليجعلنى أعتذر! كان سيستمع إلىّ!».

تنهد ستيسى وفتح أبواب الحظيرة على مصاريعها. «حسنًا، أبى... هذا أمر مختلف. لكن الجدة الكبيرة ليست أبى وليس عليكى أن تتوقعى منها أن..».

خمد صوته فى حين حدق النظر فى الحظيرة. فجأة صرخ: «كيسى، أعطنى

المصباح اليدوى هذا!». فى ذلك الحين، وقبل أن أبدى اعتراضى، انتزع المصباح اليدوى من يدى وصوبه إلى الحظيرة.

«ما الذى تفعله سيارة السيد جرينجر بحظيرتنا؟». صحتُ بقوة فى حين انكشفت السيارة الباكارد الفضية فى ضوء المصباح. بدون أن يجيبنى، استدار ستيسى بسرعة خاطفة وركض تجاه المنزل. فذهبت وراءه عن قرب. وما إن فتحنا باب غرفة أمى على مصراعيه، حتى وقفنا مشدوهين على المدخل. بدلا من أن نجد السيد جرينجر، كان هناك رجل طويل ووسيم، متأنق فى بدلة وصدرية مقلمتين بلون رمادى، يقف بجوار الموقد وذراعه ملتفة حول الجدة الكبيرة. للحظة تمايلنا من شدة الإثارة، ثم كأن بإشارة بدأ كلانا بالصراخ «العم هامر!». وتسابقنا إلى أحضانه.

كان العم هامر الذى يكبر أبى بعامين والأعزب، يأتى كل شتاء ليقضى موسم عيد الميلاد معنا. كان مثل أبى ذا بشرة بنية داكنة مائلة للاحمرار، ووجه مربع ووجنتين عاليتين؛ لكن كان هناك اختلاف كبير بينهما بطريقة ما. كانت عيناه اللتان تشعان حنانًا ودفئًا عندما قام باحتضاننا وتقبيلنا الآن، وكثيرًا ما كانت لهما لمعة باردة وغير ودودة، وكان له سلوك متحفظ لم أستطع أنا والأولاد فهمه.

عندما تركنا، دب إلينا أنا وستيسى شعور بالخجل، وقمنا بالتراجع إلى الخلف. جلست إلى جوار كريستوفر جون وليتل مان، اللذين كانا يحدقان بالعم هامر فى صمت، لكن ستيسى قال بتلعثم: «مـ-ماذا تفعل سيارة السيد جرينجر بحظيرتنا؟».

«هذه سيارة عمكم هامر» قالت أمى «هل قمتم بفك قيد جاك؟».

أعلن ستيسى بقوة، متبادلا نظرات مصدومة معى «أتمزحون؟ هى للعم هامر!».

تلعثمت الجدة الكبيرة: «هامر، أذهبت واشتريت لنفسك سيارة مثل سيارة هارلان جرينجر؟».

ابتسم العم هامر ابتسامة غريبة وساخرة. «حسنًا، ليس بالضبط مثلها يا أمى. إن سيارتى أحدث منها ببضعة شهور. عندما أتيت إلى هنا العام الماضى، كنت منبهرًا بسيارة ذاك السيد هارلان فيلمور جرينجر الكبيرة والفارهة وفكرت فى أننى أريد أن أمتلك واحدة لنفسى. يبدو أننى وهارلان جرينجر نتشارك نفس الذوق» غمز لستيسى بخبث «أليس كذلك يا ستيسى؟».

ابتسم ستيسى:

«إذا كنت تحب، يمكن أن نذهب كلنا فى جولة بالسيارة فى يوم ما. إذا كانت أمكم لا تمانع».

صرخ ليتل مان: «يا لحظى!».

«هل تعنى ما قلته يا عم هامر؟» سألته «ماما، هل تأذنين لنا؟».

قالت أمى: «سننظر هذا الأمر.. لكن فى جميع الأحوال، ليس الليلة. ستيسى، اذهب لتعتنى بجاك وأحضر دلوًا من الماء للمطبخ. لقد قضينا جميع أعمال المنزل الأخرى».

بما أنه لم يقل لى أحد أن أقوم بمساعدة ستيسى، فقد نسيت كل ما يتعلق بجاك واستقررت لأنصت إلى العم هامر. وكان يبدو أن ليتل مان وكريستوفر جون اللذين كانت الجدة تخاف من أنهما سيكتئبان لأنه لم يسمح لهما بالذهاب للبلدة، ليسا مهتمين على الإطلاق لذهابى أنا وستيسى. كانا مذهولين بالعم هامر، ومقارنة وصوله بيوم ذهابنا فى ستروبيرى كان أمرًا غير ذى أهمية.

لفترة تحدث العم هامر إلى الجدة الكبيرة وأمى فقط، ضاحكًا من أعماقه مثل أبى، لكن بعدها لدهشتى، التفت إليه وبدأ يخاطبنى.

«لقد علمت بأنك قمت بأول زيارة لك لستروبيرى اليوم يا كيسى»، قال: «ما رأيك فيها؟».

بدا على الجدة الكبيرة الصرامة، لكننى كنت مسرورة بهذه الفرصة لأحكى جانبًا من القصة لما حدث بستروبيرى. «لم أعجب بها»، قلت، «هؤلاء عائلة سيمز -».

قاطعتنا الجدة فجأة: «مارى إنى أشعر بالجوع قليلاً.. هل طعام العشاء ما زال دافئا؟».

«نعم يا سيدتى» قالت أمى واقفة «سأجهزه لك العشاء على المنضدة».

فى حين ما إن وقفت أمى، بدأت أكمل قصتى. « هؤلاء عائلة سيمز -».

«دعى كيسى تحضره عنك يا مارى» قالت الجدة الكبيرة بتوتر «من المؤكد أنك مرهقة».

نظرت باستغراب إلى الجدة الكبيرة، ثم إلى أمى.

«أوه، إننى لا أمانع» قالت أمى متوجهة إلى المطبخ «تابعى يا كيسى وأخبرى عمك عن ستروبيرى».

«ليليان جين هذه أغضبتنى كثيرًا لدرجة أننى كنت أريد أن أبصق. إننى أعترف أننى اصطدمت بها، لكن هذا كان بسبب أننى كنت أفكر بالسيد بارنت هذا وهو يقوم على خدمة الآخرين كلهم فى متجره القديم قبل أن يقوم على خدمتنا نحن -».

سأل العم هامر، ملتفتا تجاه الجدة الكبيرة «جيم لى بارنت؟ هل هذا الشيطان العجوز ما زال على قيد الحياة؟».

أومأت الجدة الكبيرة فى صمت، وتابعت أنا الكلام: «لكننى قلت له إنه ليس عليه أن يقوم على خدمة الآخرين قبل أن ينتهى من خدمتنا -»

«كيسى!» هتفت الجدة الكبيرة، وهى تسمع هذه المعلومة للمرة الأولى.

ضحك العم هامر «هل قلت له هذا!».

«نعم يا سيدى»، قلت بلطف، متعجبة لسبب ضحكه.

«إن هذا لرائع! ثم ماذا حدث؟».

«أرغمنى ستيسى على المغادرة وقال لى السيد بارنت إنه ليس بإمكانى العودة إلى المتجر أبدًا، ثم اصطدمت بليليان جين المرتبكة تلك، وحاولت أن ترغمنى على النزول من على الرصيف، ثم أتى والدها و-»

كبرت عينا الجدة الكبيرة وهمست بصوت غليظ، «كيسى، لا أعتقد أنه من اللائق -»

«- ثم لوى ذراعى وطرحنى من على الرصيف!» هتفت، غير راغبة فى إخفاء ما فعله السيد سيمز. أومأت بنظرى نحو الجدة الكبيرة لكنها لم تكن تنظر تجاهى. كانت عيناها مليئتين بالخوف والرعب مثبتتين على العم هامر. التفت لأنظر إليه أيضًا.

«هل طرحك من على الرصيف يا كيسى؟ رجل بالغ طرحك من على الرصيف؟».

«نـ-نعم يا سيدى».

«ليليان جين سيمز هذه، أيصادف أن أباها هو تشارى سيمز، أهو كذلك؟».

«نـ-نعم يا سيدى».

قبض العم هامر على ذراعى قائلاً: «ماذا فعل بك أيضًا؟».

«لـ-لا شىء»، قلت له خائفة من نظراته. «إلا أنه كان يريدنى أن أقوم بالاعتذار إلى ليليان جين لأننى لم أنزل من على الطريق عندما قالت لى أن أفعل».

«وهل قمت بذلك؟».

«قالت الجدة الكبيرة إن علىَّ القيام بذلك».

أطلقنى العم هامر وجلس بسكون شديد. لم ينبس فيه أحد بكلمة.

ثم وقف ببطء، وعيناه تكتسيان بالبرود على نحو ما يفعلون، ثم بدأ يتجه نحو الباب، يعرج بخفة على قدمه اليسرى. حدقنا أنا وكريستوفر جون وليتل مان وراءه متعجبين، لكن الجدة الكبيرة وثبت من مقعدها، وأوقعته فى عجلتها، وانطلقت وراءه. أمسكت بذراعه. «دع الأمر يا بنى!». صرخت. «لم تصب الطفلة بأى أذى!».

«لم تصب بأذى! انظرى إلى عينيها وقولى لى إنها لم تصب بأذى!».

رجعت أمى من المطبخ وخلفها ستيسى. سألت وهى تحرك نظرها من الجدة الكبيرة إلى العم هامر «ما الأمر؟».

قالت الجدة الكبيرة فى نفس واحد وهى لا تزال ممسكة بذراع العم هامر «قام تشارلى سيمز بطرح كيسى من على الرصيف فى ستروبيرى وأخبرت الطفلة هامر».

«آه يا إلهى» تأوهت أمى «ستيسى، اذهب وأحضر السيد موريسون. أسرع هيا الآن!». وفى حين هرع ستيسى خارجا من الغرفة، صوبت أمى عينيها نحو البندقية المعلقة فوق السرير وتدخلت بينها وبين العم هامر. كان العم هامر يشاهدها وقال بهدوء: «لا تقلقى، لست مضطرا لاستخدام بندقية ديفيد.... إن معى سلاحى الخاص بى».

اندفعت أمى فجأة إلى الباب الجانبى، محاولة سده بجسدها النحيل. «هامر، أرجوك استمع إلى الآن -».

لكن العم هامر قام بدفعها بلطف وحزم إلى جانب، وفك الجدة الكبيرة برفق من ذراعه، ثم فتح الباب وقفز على الدرج تحت المطر الخفيف.

انطلقت أنا وكريستوفر جون وليتل مان إلى الباب بسرعة وركضت أمى والجدة الكبيرة خلفه. «عودوا إلى الداخل»، نادت أمى من وراء كتفها، لكنها كانت منهمكة فى محاولة القبض على ذراع العم هامر لترى أننا انصعنا إلى أوامرها، وأننا لم نتحرك. «هامر إن كيسى بخير حال» صرخت «لا تذهب وتثر مشاكل لا ضرورة لها!».

«مشاكل لا ضرورة لها! أتعتقدين أن أخى قتل وأنا كدت أفقد قدمى فى حربهم الألمانية لكى يقوم أمريكى أحمر بطرح كيسى على الأرض وقتما أحب ذلك؟ إذا قمت أنا بطرح ابنته على الأرض، كنت تعرفين تمامًا ما كان سيحل بى؟ نعم، إنك تعرفين بالتأكيد. إن كنت قمت بذلك لكان مكانى هناك مُتَدلٍّ من شجرة السنديان. اتركينى يا مارى».

لم تتمكن أمى والجدة الكبيرة من منعه من الوصول إلى السيارة. لكن عندما دبت الحياة بالباكارد، ظهر شكل ضخم من الظلام وقفز إلى الجانب الآخر، وطارت السيارة بغضب على الطريق نحو ظلمة ليل المسيسبى.

سألت وأمى تصعد الدرج ببطء. كان وجهها مرهقًا ومستنزفًا تحت وهج المصباح «إلى أين ذهب؟ لقد ذهب إلى آل سيمز أليس كذلك؟ أليس كذلك يا أمى؟».

«إنه ليس ذاهبا إلى أى مكان»، قالت أمى، متنحية جانبا ومنتظرة حتى دخول الجدة الكبيرة وستيسى ثم أغلق الباب.

«سيقوم السيد موريسون بإحضاره إلى هنا»، قال كريستوفر جون بثقة بالرغم من أنه كان يبدو مرتبكًا بكل الأحداث التى دارت أمامه.

قال ليتل مان بشؤم «وإن لم يستطع فأراهنك أن العم هامر سيقوم بتلقين ذاك السيد سيمز درسا أو اثنين. لكى لا يتجرأ على ضرب كيسى مرة أخرى».

علقتُ أنا: «أتمنى أن يطيح بشخصه الأحمق إلى الأرض».

توجهت أمى تجاهنا بنظرة نارية فاحصة: «أعتقد أن الأفواه الصغيرة التى لديها الكثير لتحكى عنه لا بد وأنها متعبة جدًا».

«لا يا سيدتى، أمى إننا لسنا -».

«اذهبوا إلى فراشكم».

«أمى، إنه ليس إلا -» تغير وجه أمى ليصبح أكثر صرامة، وعرفت أنه ليس من مصلحتى أن أجادل أكثر من هذا؛ التفت وقمت كما أمرت. فعل كرستوفر جون وليتل مان نفس الشىء. عندما وصلت إلى الباب سألت: «ألن يأتى ستيسى؟».

نظرت أمى نحو ستيسى الجالس قرب الموقد. «إننى لا أتذكر أن فاهه كان يعمل بكد، أتذكرين أنت؟».

«لا يا سيدتى»، دمدمت وذهبت نحو غرفتى. بعد بضع دقائق دخلت أمى إلى الغرفة. بدون كلمة تأنيب، التقطت أمى ملابسى من حيث قذفتها عند مؤخرة السرير وقامت بثنيها على طرف الكرسى بذهن شارد وقالت، «ستيسى أخبرنى أنك تلومين الجدة الكبيرة على ما حدث اليوم. أهذا صحيح؟».

فكرت فى سؤالها ثم أجبت: «ليس على الأمر كله. فقط؛ لأنها أرغمتنى على الاعتذار لليليان جين تلك الغبية. لم يكن بالأحرى عليها فعل ذلك يا أمى. لو كان أبى -»

زجرتنى أمى: «لا أريد أن أسمع ما الذى لم يكن ليفعله أبوك! أو ما الذى لم يكن ليفعله السيد موريسون أو العم هامر! كنت مع الجدة الكبيرة وهى فعلت الذى اعتقدت أنه الأمر الصواب وصدقينى أيتها الآنسة الصغيرة، إنها لم تحب ما فعلته أكثر منك كثيرًا».

«حسنًا»، دمدمت، «قد يكون، لكن -».

«لا أريد أن أسمع أى شىء بخصوص هذا الأمر».

«نعم يا سيدتى»، قلت بهدوء، مقررة أنه من الأفضل أن أمعن الدراسة برسم الخياطات على اللحاف حتى يترك الغضب عينىً أمى وأتمكن من التحدث معها مرة أخرى. بعد لحظة جلست أمى بجوارى على السرير وأمسكت بذقنى ورفعتها بطرف سبابتها. «لم تكن الجدة الكبيرة تريد أن تتأذى»، قالت. «كان هذا الشىء الوحيد الذى طرأ على بالها... حتى تتأكد من أن السيد سيمز لن يتعرض إليك بالأذى».

«نعم يا سيدتى»، دمدمت ثم انفجرت غضبا، «لكن يا أمى إن ليليان جين تلك ليس لديها حتى عقل برغوث! كيف لى أن أخاطبها لأقول لها يا «آنسة» كأنها أكبر سنا أو ما شابه؟».

زاد صوت أمى صرامة، «لأن هذه هى طبيعة الأمور يا كيسى».

سألت بحذر: «طبع أى أمور؟».

«عزيزتى، لقد اضطررت لأن تكبرى قليلا اليوم. أتمنى... حسنًا، لا تكترثى لما أتمناه. لقد حدث ويجب عليك أن تتقبلى الواقع بأن العالم خارج هذا البيت لا تحدث الأمور به كما نتمناها دومًا».

«لكن يا أمى هذا ليس عدلا. لم أفعل شيئًا لليليان جين تلك المتحيرة. إذن كيف للسيد سيمز أن يقوم بدفعى بهذه الطريقة؟».

نظرت أمى إلى عينى بعمق، وقالت بصوت صارم وواضح، «لأنه يظن أن ليليان جين أفضل منك يا كيسى، وعندما قمت -.

«هذه الهزيلة، السقيمة، صاحبة أرجل مثل أرجل الدجاج، وأسنان مفلجة، و-».

«كيسى»، لم ترفع أمى صوتها، لكن القوة الساكنة لاسمى أسكتتنى. «الآن» قالت وهى

تضم يدى بيدها «لم أقل إن ليليان جيمس أفضل منك. إننى أقول إن السيد سيمز يعتقد أنها كذلك. فى الواقع، إنه يعتقد أنها أفضل من ليتل مان أو ستيسى أو كريستوفر جون -»

سألت معتقدة أن السيد سيمز ربما يكون به مس من الجنون «لمجرد أنها ابنته؟».

«لا يا عزيزتى؛ لأنها بيضاء».

شَدَّدت أمى من قبضتها علىَّ، لكنى صحت: «آه، تبا! إن البياض لا يعنى شيئًا!».

لم تخفف أمى من قبضتها. «بلى إنه شىء يا كيسى. إن البيض شىء كما أن السود شىء. كل من ولد بهذه الأرض شىء ولا أحد، مهما كان لونه، أفضل من الآخر».

«إذن كيف للسيد سيمز ألا يعرف أمرًا كهذا؟».

«لأنه واحد من هؤلاء الناس المضطرين لتصديق أن البيض أفضل من السود حتى يشعروا بأهميتهم». حدقت فى أمى متسائلة، غير قادرة فعلا على فهم ما تقوله. ضغطت أمى على يدى وقامت بالتوضيح أكثر: «أتذكرين يا كيسى، منذ سنوات عديدة مضت عندما تم إحضار قومنا من أفريقيا مكبلين بالسلاسل ليعملوا كعبيد بهذه البلدة»

«مثل والد ووالدة الجدة الكبيرة؟».

أومأت أمى: «نعم يا حبيبتى، مثل الأب لوك والأم ريتشل، باستثناء أنهما ولدا هنا فى المسيسبى. لكن جديهما ولدا بإفريقيا، وعندما قدموا إلى هنا كان

هناك بعض الأشخاص البيض الذين يعتقدون أنه من الخطأ لأى أحد أن يكون عبدا؛ لذا قام الناس الذين كانوا يحتاجون إلى العبيد للعمل لديهم وهؤلاء الذين كانوا يتكسبون من إحضار العبيد من إفريقيا بدعوى أن أصحاب البشرة السمراء لم يكونوا أناسًا بمعنى الكلمة مثل أصحاب البشرة البيضاء، لذا فليس هناك مشكلة لعملهم بالسخرة.

«وقالوا أيضًا إن العبودية كانت أمرًا جيدًا بالنسبة إلينا؛ لأنها كانت تعلمنا كيف نكون مسيحيين صالحين - مثل أصحاب البشرة البيضاء» تنهدت بعمق، وتلاشى صوتها إلى همس بعيد «لكنهم لم يعلمونا المسيحية لينقذوا بذلك أرواحنا، لكن ليعلمونا الطاعة. كانوا يخافون من تمدن العبيد وكانوا يريدون لنا أن نتعلم طاعة العبيد لأسيادهم المذكورة بالكتاب المقدس. لكن حتى تعلمنا المسيحية لم يمنعنا من رغبتنا فى أن نكون أحرارًا، وقام الكثير من العبيد بالهروب -»

قمت بتذكيرها: «لقد هرب الأب لوك» متذكرة القصة التى تحكى كيف أن جدى الكبير هرب ثلاث مرات. وقد تم القبض عليه ومعاقبته لعصيانه، لكن لم يحاول مالكوه القيام بكسره؛ لأنه كان عنده علم بالأعشاب والعلاجات. كان يعتنى بكل من العبيد والحيوانات الموجودين بالمزرعة، ومنه تعلمت الجدة الكبيرة تحضير الأدوية.

أومأت أمى مرة أخرى: «هذا صحيح يا حلوتى. كان يختبئ بكهف عندما أتت الحرية، هكذا فهمت الأمر». كانت صامتة للحظة، ثم استكملت حديثها. «حسنًا، بعد فترة، أصبحت العبودية مربحة للناس الذين كان لديهم عبيد وأيضًا الناس الذين لم يكن لديهم لدرجة أن معظم الناس قرروا أن يؤمنوا بأن السود ليسوا بشرا فعلا مثل الآخرين. وعندما تم النضال فى الحرب الأهلية، وتم تحرير الأب لوك وآلان ريتشل وكل العبيد الآخرين، واستمر الناس فى التفكير بهذه الطريقة. حتى

الشماليون الذين قاتلوا فى الحرب لم يكونوا ينظرون إلينا فعلا كمساوين للبيض. حتى الآن بالرغم من مرور سبعين عاما على العبودية، لا يزال معظم الناس أصحاب البشرة البيضاء ينظرون إلينا على أساس تفكيرهم القديم - بأننا لسنا صالحين مثلهم - وأناس مثل السيد سيمز مازالوا متمسكين بهذا الاعتقاد أكثر من أناس آخرين لأنه ليس لديهم الكثير ليتمسكوا ويعتقدوا به. واعتقاده بأنه أفضل منا يجعله يشعر بأهميته، ببساطة لأنه مجرد صاحب بشرة بيضاء».

أرخت أمى من قبضتها. وعلمت أنها فى انتظارى كى أتحدث. كان هناك إحساس بالغثيان فى معدتى، وشعرت بأن العالم انقلب رأسا على عقب وأنا بداخله. ثم فكرت فى ليليان جين وشعرت بغضب عاصف يطفو لأعلى وانتفضت، «حسنًا، إنهم ليسوا كذلك!». لكننى ملت بالقرب من أمى، آملة بشغف بأن توافقنى.

قالت أمى: «بالطبع هم ليسوا كذلك.. إن البيض قد يطالبون باحترامنا لهم، لكن الذى نظهره لهم ليس احتراما لكنه خوف. ما نعطيه لقومنا أهم بكثير؛ لأننا نعطيه بإرادتنا الحرة. قد يتوجب عليك الآن أن تخاطبى ليليان جين «يا آنسة»؛ لأن البيض يريدون ذلك، لكنك أيضًا تخاطبين بناتنا الصغيرات فى الكنيسة يا «آنسة» لأنك تحترمينهن فعلاً.

«حبيبتى، ليس لدينا اختيار فعلا فى لوننا الذى ولدنا به أو من هم آباؤنا أو حتى ما إذا كنا فقراء أو أغنياء. ما لدينا هو قدر من الاختيار فى كيف نقود حياتنا فور وجودنا على هذه الأرض». احتوت أمى وجهى فى يديها. «وإننى أدعو الله أن تحسنى نهج حياتك» احتضنتنى بدفء ثم أشارت إلى بأن آوى إلى فراشى.

فى حين قللت من إضاءة المصباح سألتها: «ماما، العم هامر. إذا لم يستطع السيد موريسون إيقافه، ماذا سيحدث؟».

«سيعود به السيد موريسون».

«لكن ماذا سيحدث إذا لم يستطع إحضاره ووصل العم هامر إلى السيد سيمز؟».

مر ظل خوف عبر وجه أمى بسرعة، لكنه اختفى مع العتمة. قالت دون أن تجيب عن سؤالى: «أعتقد... أعتقد أنك كفاك كبرًا ليوم واحد يا كيسى.. سيكون العم هامر على ما يرام. الآن اخلدى إلى النوم».

كانت أمى محقة بالنسبة للعم هامر. عندما استيقظت فى صباح اليوم التالى وتبعت رائحة لحم الخنزير المقلى وخبز البسكويت إلى المطبخ، وجدته هناك جالسا على الطاولة يشرب القهوة مع السيد موريسون. لم يكن حليق الذقن وكانت عيناه تبدوان غائمتين قليلا، لكنه كان بخير حال؛ كنت أتساءل عما إذا كان السيد سيمز يبدو بحال جيدة مثله. لم تسنح لى الفرصة لكى أسأل، لكن حينما قلت صباح الخير نادت على أمى إلى غرفتها، حيث كان هناك حوض من الماء الساخن ينتظر بجوار المدفأة.

«أسرعى هيا» قالت. «سيأخذنا العم هامر إلى الكنيسة».

«فى سيارته؟».

تقطب حاجبا أمى: «حسنًا، أنا لا أعرف بالتأكيد. لقد ذكر شيئًا عن شد جاك إلى العربة..».

تلاشت ابتسامتى، لكننى لمحت وميض الغيظ فى عينيها، وبدأت بالضحك «آه يا أمى!». ضحكت وخضت بالماء.

ذهبت إلى الغرفة بعد أن انتهيت من حمامى لأرتدى ملابسى. عندما انضممت إلى أمى مرة أخرى كانت تقوم هى بتسريح شعرها، والذى كان ينتشر حول رأسها مثل هالة سوداء هائلة. راقبتها، وهى تقوم بتشكيل شعرها الكثيف الطويل إلى تسريحة الشنيون فى مؤخرة عنقها وقامت بتثبيت ستة دبابيس شعر متينة به. ثم بعد أن قامت بتربيت الشنيون، مدت يدها لتأخذ فستانها القطنى الأزرق الفاتح المزركش بورد صغيرة أصفر وأبيض وأزرار بيضاء لامعة من الأعلى إلى الأسفل فى مقدمة الفستان. ثم نظرت إلى: «إنك لم تقومى بتصفيف شعرك».

«لا يا سيدتى، أريدك أن تصففى لى شعرى على هيئة شعر السيدات الراشدات».

بدأت أمى بإغلاق أزرار مقدمة فستانها بأصابع طويلة وسريعة فى حين قمت أنا بإغلاق الأزرار السفلى ببطء. كنت أحب أن أساعد أمى كثيرًا فى ارتداء ملابسها. كانت دائمًا ما تعبق برائحة إشراق الشمس والصابون. عندما انزلق آخر زر إلى مكانه، قامت بتثبيت حزام باللون الأزرق الداكن بإبزيم مصنوع من الجلد المصنوع ببراعة حول وسطها الدقيق ووقفت جاهزة فيما عدا حذائها. كانت تبدو فى غاية الجمال.

«أين فرشاة شعرك؟».

قلت ملتقطة الفرشاة من مكان ما وضعتها على الكرسى «ها هى هنا».

جلست أمى على الكرسى الهزاز الخاص بأبى وجلست أنا على البساط المصنوع من جلد الغزال. قامت بفرق شعرى إلى جزأين من الأذن إلى الأذن وضفرت الجزء الأمامى إلى جانب والجزء الخلفى فى المنتصف. ثم قامت بلف كل

ضفيرة على شكل شنيون مستو على رأسى. كان شعرى كثيفًا وطويلاً جدًّا لدرجة أنى كنت أعجز عن تهذيبه جيدًا وحدى، لكن أمى كانت تستطيع تهذيبه بإتقان. وحسبت أنى أبدو بأفضل هيئة لى على هذا النحو.

عندما انتهت أمى من تصفيف شعرى، ركضت نحو المرآة، ثم درت، مبتسمة نحوها. بادلتنى ابتسامة أخرى وهزت رأسها على خيلائى.

«يوم ما يا أمى، ستقومين بتصفيف شعرى مثل شعرك».

«لن يكون هذا قبل بضع سنين أخرى» أجابت وهى تقوم بإعادة ضبط الورق المقوى الذى وضعته كبطانة فى حذائها لتحمى قدميها من الوحل والحصى الذى قد يتسرب بسهولة من خلال الثقوب الكبيرة الموجودة بنعل الحذاء. قامت بوضع الحذاء على الأرض ووضعت قدميها بداخله. والآن مع النعل موجه للأسفل وقدما أمى بداخل الحذاء، لن يستطيع أى أحد أن يكتشف ما يخفيه هذا المظهر الخارجى اللامع؛ ولكن مع ذلك لم أكن أشعر بالارتياح كثيرًا من أجل أمى وتمنيت أن لو كان لدينا المال الكافى لإصلاح حذائها، أو الأفضل من ذلك، شراء حذاء جديد من أجلها.

بعد تناولنا طعام الإفطار، جلسنا أنا وستيسى وكريستوفر جون وليتل مان بشوق متلهفين بجوار شعلة الصباح الخافتة منتظرين أمى، الجدة الكبيرة والعم هامر. كان العم هامر يرتدى ملابسه بغرفة الأولاد وكانت أمى مع الجدة الكبيرة. تفحصت لأتأكد من أنه لن يظهر أحد منهم، ثم ملت نحو ستيسى وهمست: «أتعتقد أن العم هامر قام بضرب السيد سيمز؟».

قال ستيسى بهدوء: «لا».

صاح ليتل مان: «لا!».

«أنـ-أنت لا تقصد أن السيد سيمز قام بضرب العم هامر؟». تلجلج كريستوفر جون غير مصدق.

قال ستيسى مفسرا فى حين سحب ياقته بانفعال: «لم يحدث أى شىء».

رددت وراءه، غير مصدقة: «لا شىء؟».

«لا شىء».

سأل ليتل مان بشك «كيف لك أن عرفت؟».

سألتها مباشرة هذا الصباح «قالت أمى ذلك؟».

رد ليتل مان مستسلما: «أوه».

قلت: «لكن يجب أن يكون حدث شىء ما.. أقصد أن العم هامر والسيد موريسون يبدوان وكأنهما لم يخلدا إلى النوم فى المقام الأول. كيف إذن يبدوان هكذا دون أن يحدث شىء؟».

«قالت أمى إن السيد موريسون تحدث إلى العم هامر طوال الليل. استمر يحدثه حتى تعب ورفض أن يتركه يذهب إلى آل سيمز».

«آه، تبا!» أعلنت بقوة، وحلم الانتقام من آل سيمز يتلاشى فى حين تكلم ستيسى. سندت مرفقى على ركبتى، ثم أرحت رأسى على راحتى المرفوعتين وحدقت فى الجمر المتوهج. تكونت عقدة محترقة فى حلقى وشعرت بأن جسدى قد كبر كثيرًا ليحوى خيبة الأمل التى شعرت بها، لكنه ليس عميقًا بما فيه الكفاية ليبتلع الغضب المتصاعد.

قال كريستوفر جون متعاطفا «هذا ليس عدلا»، مربتا علىَّ بخفة بيده الممتلئة.

وافق ليتل مان: «بالتأكيد ليس كذلك».

قال ستيسى بعطف: «كيسى». فى الأول لم أقم بالنظر إليه، معتقدة أنه سيتابع ويقول ما يجب عليه قوله. لكنه عندما لم يقم بذلك، التفت لأنظر نحوه.

مال للأمام وتلقائيًا وبطريقة سرية قام كريستوفر جون وليتل مان بنهج نفس السلوك. «من الأفضل أن تكونوا مسرورين بأن شيئًا لم يحدث»، قال هامسًا. «لأننى سمعت الجدة الكبيرة تقول لأمى الليلة الماضية إنه إذا لم يقم السيد موريسون بإيقاف العم هامر، لتعرض العم هامر للقتل.

«يقتل؟» كررنا فى حين طقطقت النيران وخمدت.

صِحْتُ: «مَنْ يَجْرُؤ على القيام بهذا؟.. ليسوا آل سيمز الضعفاء بالتأكيد؟».

بدأ ستيسى بالكلام، لكن أمى والجدة الكبيرة دخلتا، وأحاطنا الصمت.

عندما انضم إلينا العم هامر، حليق الذقن ومرتديا بدلة أخرى، ارتديت أنا والأولاد معاطفنا وتوجهنا إلى الباب؛ ثم أوقفنا العم هامر وسأل: «ستيسى، هل هذا المعطف الوحيد لديك يا بنى؟»..

ستيسى نظر إلى سترته القطنية الشاحبة - كلنا قمنا بنفس الشىء أيضًا - كانت السترة صغيرة جدًا عليه، وهو ما كان واضحًا، وبالمقارنة إلى ستراتنا أنا وكريستوفر جون وليتل مان، كان بالتأكيد فى أسوأ هيئة. لكن مع ذلك تفاجأنا من سؤال العم هامر عن أمر كهذا، فهو كان على دراية بأن على أمى شراء ملابسنا الجديدة بالتناوب، مما يعنى أنه كان على كل واحد منا انتظار دوره بالنسبة لملابسه الجديدة. ستيسى نظر نحو أمى، ثم إلى العم هامر وأجاب، «نعـ-نعم يا سيدى».

حدق العم هامر به، ثم أشار له بيده آمرا، «اخلعه». وقبل أن يستطيع ستيسى أن يتساءل عن السبب، اختفى العم هامر إلى غرفة الأولاد.

نظر ستيسى إلى أمى مرة أخرى فقالت له: «من الأفضل لك أن تقوم بما أمرك به».

عاد العم هامر ومعه صندوق طويل، مغلف تغليف المتجر بورق أحمر لامع خاص بعيد الميلاد وشريط أخضر فاخر. أعطى اللفافة إلى ستيسى. «كان من المفترض أن هذه هدية الميلاد الخاصة بك، لكننى أعتقد أنه من الأفضل أن أعطيها لك الآن. إن الطقس بارد بالخارج».

أخذ ستيسى الصندوق بحذر وفتحه.

هتف ليتل مان بابتهاج، مصفقا بيديه «معطف!».

قالت أمي بإعجاب «إنه صوف. هيا يا ستيسى، جربه وارتَدِه».

ارتدى ستيسى المعطف بلهفة؛ كان كبيرًا جدًّا بالنسبة له ، لكن أمي قالت إنها ستقوم برفع الأكمام وبأنه سيكبر العام القادم ويملؤه. ابتسم ستيسى بابتهاج ونظر إلى المعطف ثم إلى العم هامر. كان من الممكن منذ عام مضى أن يرتمى ستيسى إلى أحضان العم هامر وشكره، لكن بما أنه الآن راشد فى سن الثانية عشرة، مد يده فقام العم هامر بمصافحته.

قالت أمي: «هيا بنا، من الأفضل لنا أن نذهب».

كان الجو غائمًا، لكن المطر كان قد توقف حين خرجنا. اتبعنا درب الصخور المغروسة التى أدت إلى الحظيرة، حريصين على ألا ننزلق بالوحل. وركبنا السيارة الباكارد التى كانت تلمع من النظافة من غسيل العم هامر والسيد موريسون لها بعد تناولهم الإفطار. بداخل السيارة الباكارد، كان العالم بالنسبة لهم مثل حياة الأثرياء. كنا نحن الأولاد وأنا بالخلف نمرر أيدينا على المقاعد ذات الملمس الناعم، ونلمس بأصابعنا مقابض الأبواب الفاخرة ومفاتيح النوافذ أمعنا النظر فى السجادة البلشية منبهرين وهى تظهر من جانبى الحصيرة المطاط. لوح إلينا السيد موريسون - والذى لم يكن يرتاد الكنيسة - من الحظيرة مودعًا وانطلقنا مسرعين.

اتجهنا نحو أرض المدرسة وأوقفنا السيارة، حيث التفت الناس المجمهرون عند الكنيسة محدقين فى السيارة الباكارد. نزل العم هامر من السيارة وهتف أحدهم: «يالغبائى! إنه هامر ابننا!

هامر لوجان! وفى كتلة واحدة قام الحشد بابتلاعنا.

جاء تى جيه راكضًا ومعه موتيرنر وليتل ويلى ويجنز ليظهر إعجابه بالسيارة. «إنها للعم هامر»،قال ستيسى بفخر. لكن قبل أن يستطيع الأولاد أن يتموا إعجابهم بالسيارة، دفعتنا الجدة الكبيرة وأمى نحو الكنيسة للقداس. حينها لاحظ تى جيه معطف ستيسى الجديد.

«لقد أعطاه إياه العم هامر» قلت «أليس شيئًا جميلاً؟».

مَرَّرَ تى جيه أصابعه الطويلة على طيات صدر السترة وهز كفيه «أعتقد أنه لا بأس به إذا كنت تحب هذا النوع من الأشياء».

هتفت غاضبة من رد فعله العفوى للمعطف. «لا بأس به! يا فتى، إن هذا أفضل معطف وضعت عينيك عليه وأنت تعلم ذلك!».

تنهد تى جيه: «كما قلت... إنه لا بأس به إذا كنت تحب أن يبدو شكلك مثل الأب الواعظ». ثم ضحك هو وليتل ويلى ومو وتابعوا سيرهم.

نظر ستيسى إلى معطفه وأكمامه الطويلة وأكتافه العريضة. تلاشت ابتسامته. قلت له: «إنه لا يعلم ما الذى يتحدث عنه.. إنه مجرد غيور، هذا كل ما فى الأمر».

نطق بتلك الكلمات لاذعًا «أنا أعلم ذلك».

انسللنا إلى المقصورة أمام تى جيه، وهمس تى جيه: «ها هو الواعظ قد أتى»، ثم مال إلى الأمام وقال بخبث «كيف حالك أيها المبجل لوجان؟».

التفت ستيفى نحو تى جيه، لكننى وكزته بعنف «إن أمى تنظر إلينا» همست، ثم التفت إلى وضعه السابق.

بعد الكنيسة، وحين كان تى جيه وأصدقاؤه ينظرون بتلهف إلى السيارة، قالت أمى: «ستيفى، يبدو أن تى جيه يريد أن يأتى فى جولة بالسيارة».

وقبل أن يستطيع ستيفى الإجابة، تكلمت أنا بسرعة: «لا يا سيدتى، يا أمى، إن تى جيه لديه أمر آخر يجب عليه القيام به». ثم قلت لنفسى هامسة حتى لا أكون مذنبة بقول كذب «إن عليه أن يمشى إلى بيته كما يفعل كل مرة».

«هذا سيلقنه درسا» همس ليتل مان.

«نعم» اتفق كريستوفر جون، لكن ستيفى عبس بجوار النافذة ولم ينطق بكلمة.

كانت الشمس قد ظهرت الآن واقترح العم هامر أن نقوم بجولة حقيقية قبل أن نعود إلى المنزل. قاد السيارة بنا مسافة الاثنين والعشرين ميلا الكاملة إلى ستروبيرى عن طريق جاكسون رود أحد الطريقين المؤديين إلى البلدة. لكن أمى والجدة اعترضتا كثيرًا على الذهاب من خلال ستروبيرى حتى أدار السيارة إلى الخلف وعاد متوجها إلى المنزل، هذه المرة من طريق سولدجرز رود. من المفترض أنه كان فى يوم من الأيام أن عبر جنود متمردون هذا الطريق وعبروا جسر سولدجرز بريدج ليحافظوا على البلدة كى لا تقع فى أيدى الشماليين، لكن كانت الشكوك تساورنى حول هذا الموضوع. ومع ذلك من قد يفكر بطريقة سديدة حتى يريد أن يستولى على ستروبيرى ... أو يدافع عنها فى كلتا الحالتين؟

كان الطريق شديد التحدر ومتقوسًا، وفى حين أسرعنا على الطريق كانت أحجار الطريق المتناثرة تصطدم بأسفل السيارة بشدة وعلت سحابات من الغبار

خلفنا. صرخت أنا وليتل مان وكريستوفر جون من شدة المتعة فى كل مرة تصعد فيها السيارة إلى تل ثم تهبط عنه فجأة، جاعلة بطوننا ترتعش. وأخيرًا تقاطع الطريق مع طريق مدرسة جيفرسون ديفيس. أوقف العم هامر السيارة عند التقاطع وأسند ذراعه اليمنى بشدة على عجلة القيادة، وأشار بفتور نحو متجر والاس. قال: «إن هناك أفكارًا تراودنى لإحراق هذا المكان».

«هامر، توقف عن هذا الكلام!». أمرته الجدة الكبيرة فى حين زادت عيناها اتساعًا.

«كبرت أنا وجون هنرى وديفيد معًا. وحتى أننى خضت حربهم أنا وجون هنرى معًا. ما الفائدة من ذلك؟ إن حياة الرجل الأسود هنا فى هذا المكان لا تساوى حياة ذباب البقر».

«إننى أعرف هذا يا بنى، لكن هذا الأسلوب فى الكلام قد يؤدى إلى شنقك وأنت تعلم هذا».

لمست أمى ذراع العم هامر. «قد يكون هناك أسلوب آخر يا هامر ... مثلما قلت لك. لا تقم الآن بأى تصرف متهور. انتظر قدوم ديفيد - تحدث إليه».

نظر العم هامر نحو المتجر بعينين زجاجيتين، ثم تنهد وقاد السيارة الباكارد عبر الطريق متوجها إلى جسر سولدجرز بريدج. كنا نتحدث طيلة الطريق الطويل إلى المنزل.

لقد بنى جسر سولدجرز بريدج قبل الحرب الأهلية. كان مجدولاً وخشبيًّا، وفى كل مرة اضطررت إلى عبوره كنت أمسك أنفاسى حتى وصولى سالمة إلى الجانب الآخر. كان مسموحًا فقط لعربة واحدة أن تعبر كل مرة، ومن كان على الجسر أولاً كان له حق العبور، بالرغم من أن الأمور لم تسر دائمًا على هذا

المنوال. لأكثر من مرة عندما كنت فى العربة مع أمى أو الجدة الكبيرة، كان علينا التراجع عن الجسر عندما تصعد عائلة بيضاء إلى الجسر بعدما قطعنا مسافة عليه.

فى حين اقترب الجسر من مجال رؤيتنا كانت الضفة الأخرى من النهر واضحة تمامًا، وكان من الواضح للجميع أن شاحنة قديمة من طراز تى تفيض بأطفال ذوى شعر أحمر كانت قد وصلت إلى الجسر أولاً وكنت على وشك العبور، لكن العم هامر قام فجأة بزيادة الضغط على وقود السيارة الباكارد أسرع نحو البنيان ذى الصرير. توقف قائد الشاحنة، ولم يتردد لأكثر من ثانية على الجسر دون أن يصدر صوتًا واحدًا من بوق السيارة محتجًا، تراجع عن الطريق حتى يسمح لنا بالعبور.

صرخت الجدة الكبيرة «هامر! إنهم يعتقدون أنك السيد جرينجر».

«حسنًا، الآن ألن يفاجأوا عندما نصل إلى الجانب الآخر من الجسر» قال العم هامر.

حين نزلنا من على الجسر كنا نستطيع أن نرى آل والاس، ثلاثتهم ديوبيرى، ثيرستون وكالب - يلمسون قبعاتهم باحترام، ثم تجمدوا فور ما رأوا من نكون. قام العم هامر، بوجه مستقيم وهادئ تمامًا بلمس حافة قبعته برد مؤدب، وبدون نظرة إلى الخلف أسرع مبتعدًا، تاركًا آل والاس فاغرين أفواههم فى صمت وراءنا.

ضحكنا أنا وكريستوفر جون وليتل مان وستيسى لكن نظرة أمى الباردة جعلتنا نتوقف عن ذلك. قالت بهدوء: «لم يكن بالأحرى عليك القيام بذلك يا هامر».

«الفرصة - يا أختى العزيزة - كانت أشد من أن أقاومها».

قالت: «لكن سيكون علينا فى يوم من الأيام دفع ثمنها. صدقنى.. سندفع ثمنها يومًا من الأيام».

7

«ستيفى، اذهب وأحضر لى معطفك»، قالت أمى بعد عدة أيام حين تجمعنا حول المدفأة بعد أن تناولنا طعام العشاء «إن لدى الوقت الآن لأرفع لك الأكمام».

هتف كريستوفر جون «يا ويلى!»، ثم فتح كتاب القراءة الخاص به فيما نظرت أمى إليه.

كوَّر ليتل مان يده وهمس إلى «يا ربى، الآن سيأخذ جزاءه!».

«آه ... لـ-لا بأس يا أمى» تلعثم ستيفى «إن المعطف لا بأس به على حالته هذه كما هو».

فتحت أمي صندوق الحياكة الخاص بها. «إنه ليس على ما يرام هكذا. اذهب الآن وأحضره لي».

وقف ستيسي وتوجه ببطء نحو غرفته. راقبناه أنا وكريستوفر جون وليتل مان عن قرب، متسائلين عما سيفعله. لقد دخل فعلاً إلى الغرفة ولكنه غاب للحظة فقط قبل أن يظهر مرة أخرى ونشب أظافره بظهر مقعده بتوتر. وقال: «إن المعطف ليس بحوزتي يا أمي».

صرخت الجدة الكبيرة: «المعطف ليس معك!». وحول العم هامر نظره عن الجريدة بحدة، لكنه ظل صامتًا.

قالت أمي بانفعال «ستيسي، أحضر لي هذا المعطف يا فتى».

«لكن، أمي، إنه ليس معي فعلاً! لقد أعطيته لتي جيه».

صاحت أمي: «تي جيه!».

«نعم يا سيدتي، يا أمي» أجاب ستيسي ثم استأنف كلامه متعجلاً في حين توهجت عينا أمي بغضب متصاعد. «كان المعطف كبيرًا جداً علي و... وقال تي جيه إنه يجعلني أشبه ... أشبه الواعظ ... وقال بما أنه ملائم لمقاسه، سـ- ... سيأخذه مني حتى أكبر ليلائمني، ولذا بهذه الطريقة سيتوقف بقية الأولاد عن الضحك عليّ ومناداتي بالواعظ». توقف عن الكلام، منتظرًا أن يتكلم أحد؛ لكن الأصوات الوحيدة الظاهرة كانت الأنفاس الثقيلة وطقطقة خشب الجوز المحترق. ثم أضاف بدافع من الخوف من هذا الصمت أكثر مما هو من باب وضع رقبته تحت طائلتهم أكثر، «لكنني لم أعطه المعطف إلى الأبد يا أمي - لقد أعرته إياه حتى أكبر وبعدها ...».

تلاشى صوت ستيسي إلى همس غير مسموع في حين وضعت أمي صندوق الحياكة الخاص بها ببطء على الطاولة الموجودة خلفها. اعتقدت أنها

ستتوجه نحو الحزام الجلدى العريض المعلق بالمطبخ، لكنها لم تنهض. حدقت فى ستيسى بغضب صامت وحذرته: «فى هذا البيت، نحن لا نتخلى عن الأشياء التى يقدمها لنا من يحبوننا. اذهب الآن وأحضر لى هذا المعطف».

التفت ستيسى متراجعًا على إثر غضبها ليغادر، لكن العم هامر أوقفه. «كلا» قال العم هامر «اترك المعطف حيث هو».

التفتت أمى بذهول نحو العم هامر. «هامر، مالذى تقوله؟ هذا أفضل معطف حصل عليه ستيسى، بل ومن الأرجح أنه أفضل معطف سيحصل عليه طوال حياته فى هذا المنزل. لا نستطيع أنا وديفيد تحمل تكلفة معطف كهذا».

مال العم هامر على مقعده وهو ينظر إلى ستيسى بعينين باردتين. «يبدو لى أنه إذا لم يكن ستيسى بالذكاء الكافى ليتمسك بمعطف جيد فهو لا يستحقه. ومن وجهة نظرى فإن تى جيه يستطيع أن يبقى هذا المعطف معه إلى الأبد. على الأقل فهو يعرف الشىء الجيد حينما يراه».

قالت الجدة الكبيرة: «هامر، اترك الفتى ليذهب ويحضر المعطف. أعتقد أن تى جيه هذا قال له كل أنواع –».

«حسنًا، أليس لدى ستيسى عقله الخاص؟ لماذا بحق الجحيم يكترث لما يعتقده تى جيه أو لما يقوله تى جيه؟ من هو تى جيه هذا على أية حال؟ هل يعير ملابسه لستيسى فى المقابل أو يضع أمامه طعامًا؟». وقف العم هامر ومشى متجها نحو ستيسى فى حين تبعناه أنا وليتل مان وكريستوفر جون فى رعب بعيوننا. «أعتقد أنه إذا قال لك تى جيه إن الصيف قد حان الآن وإنه عليك أن تجرى عارى الجسد على الطريق.. ستقوم بذلك، أليس كذلك؟».

«لـ–لا يا سيدى»، أجاب ستيسى وعيناه مثبتتان بالأرض.

«الآن اسمع جيدًا قولى هذا لك - انظر إلىّ عندما أحدثك يا فتى!». رفع ستيسى رأسه فورًا ونظر إلى العم هامر. «إذا لم يكن لديك عقل برغوث لتعى أن تى جيه هذا جعل منك مغفلاً، فلن تحصل على مبتغاك أبدًا فى هذه الحياة. إن العالم قاسٍ فى الخارج يا فتى، ومادام يوجد بشر، سيكون هناك من يحاول أن يأخذ منك ما لديك وأن يجذبك إلى الحضيض. والأمر يعتمد هنا على سماحك لشخص بالقيام بذلك أو لا. الآن يبدو لى أنك كنت تريد المعطف عندما أعطيته لك، أليس كذلك؟».

تمكن ستيسى من الرد مرتعدًا: «نعم يا سيدى».

«وأى فرد لديه أى إحساس سيعلم أنه شىء جيد، أليس هذا صحيحًا؟».

هذه المرة لم يستطع ستيسى شيئًا إلا الإيماء.

«إذن إن كنت تريد شيئًا، وهذا الشىء جيد وحصلت عليه بطريقة صحيحة، فمن الأفضل لك أن تتمسك به ولا تسمح لأى أحد أن يقنعك بالتخلى عنه. إذا كنت تهتم كثيرًا برأى التافهين فيك فلن تصل إلى أى هدف، لأنه يوجد الكثير من البشر لا يريدون لك أن تحقق آمالك. أتفهم ما أقوله لك يا فتى؟».

«نعـ-نعم يا سيدى، يا عم هامر» تلعثم ستيسى. التفت العم هامر ثم رجع إلى صحيفته دون أن ينظر إلى ستيسى، لكن ستيسى كان يرتعد بطريقة واضحة من هذه المواجهة.

تبادلنا أنا وكريستوفر جون وليتل مان نظرات قلقة. لم أكن أعلم بما يدور فى خلدهم لكن بالنسبة لى فقد قررت أننى بالتأكيد لن أقوم بشىء أبدًا يثير استياء العم هامر؛ ولم يكن لدى أدنى نية لأواجه توبيخًا لفظيًا كهذا أبدًا فى حياتى. كان وقع سوط أبى على مؤخرتى كافيًا بالتأكيد بالنسبة لى، شكرًا.

بدت آخر أيام الدراسة قبل أعياد الميلاد كما لو كانت لن تنتهى. كنت أنام كل ليلة على أمل أن الصباح سيأتى فى وجود أبى، وفى كل صباح عندما لم يكن هناك، مشيت بتثاقل إلى المدرسة مواسية نفسى بأنه سيكون بالبيت عندما أعود. لكن مرت الأيام قارصة البرودة وعاصفة، ولكنه لم يأتِ.

بالإضافة إلى مأساة الانتظار والبرد القارص كانت ليليان جين، والتى تمكنت من المرور أمامى مرتين بحركة تبرم وببسمة متكلفة هذا الأسبوع. لقد شعرت بأن احتمال حركتى تبرم فوق طاقتى أكثر مما يكفى، لكننى لم أقرر كيف سأقوم بمعالجة الوضع، لذلك قمت بتأجيل القيام بأى فعل حتى يعود أبى وأتحدث معه عن الأحداث التى دارت بستروبيرى. كنت على علم تام بأنه لن يندفع خارجًا من المنزل ساعيًا وراء السيد سيمز مثلما فعل العم هامر، لأنه طالما كان يأخذ الوقت الكافى بالتفكير فى أى حركة سيقوم بها، لكنه بالتأكيد سينصحنى بكيفية التعامل مع ليليان جين.

كان هناك أيضًا تى جيه - مع أنه لم يكن لى معه مشكلة شخصية - الذى كان يتباهى على نحو بغيض بمعطف ستيسى الصوف خلال هذه الأيام الباردة حتى إننى كنت على وشك أن أقرر بأن أشكمه فى نفس الوقت الذى كنت سأعتنى فيه بأمر ليليان جين. منذ الليلة التى جاء به السيد أفرى إلى منزلنا ليقوم بإعادة المعطف حين قال له العم هامر وستيسى متلعثمًا بأن المعطف مِلْكٌ له الآن، أصبح تى جيه لا يطاق أكثر من ذى قبل. الآن هو يثنى على المعطف من أطراف طية صدر المعطف العريضة إلى أحرف حاشيته. لم يحصل أحد من قبل على معطف أفضل من هذا؛ ولم يبد أحد قبل ذلك بشكل جيد مرتديا معطفًا كهذا؛ ولا بأمل أحد أبدًا فى الحصول على معطف كهذا مرة أخرى.

كان مبدأ العم هامر قد قيد ستيسى عن القيام بطرح تى جيه أرضًا بأن الرجل لا يقوم بلوم الآخرين على حماقته؛ لقد تعلم من خطئه هذا وأصبح أقوى بفضله. أما بالنسبة إلىَّ فلم يكن علىَّ أيةُ قيود وبقدر ما يهمنى الأمر، إذا استمر تى جيه بالتصرف على هذا النحو بالمعطف، فإنه سيرتطم بالوحل فى نفس الوقت مع «الآنسة» ليليان جين.

استيقظت فى اليوم الذى سبق عيد الميلاد على همهمات أصوات هادئة مجتمعة فى الظلمة الحالكة للفجر الباكر. لم تكن الجدة الكبيرة إلى جوارى، وبدون لحظة شك علمت سبب مغادرتها. وقفزت من السرير حيث لمست قدماى بالكاد بساط جلد الغزال، وهرعت إلى غرفة أمى.

صرخت: «آه يا أبى! كنت أعلم أنه أنت!».

«آه، ها هى فتاتى كيسى!». ضحك أبى، واقفا ليمسك بى فى حين قفزت إلى أحضانه.

وعند بزوغ الفجر، كان البيت مليئًا بعبق يوم الأحد: قَلْى الدجاج، طشيش اللحم، وخبيز المقانق المدخنة. وبحلول الليل كانت تفوح منه رائحة عيد الميلاد. كان هناك بالمطبخ فطائر البطاطا، وفطائر كريمة البيض، وكعكات غنية بالزبد متروكة لتبرد؛ وحيوان راكون عملاق قام السيد موريسون والعم هامر وستيسى باصطياده ليلا، يطهى فى بحر من البصل والثوم وثمار بطاطا مستديرة باللون البرتقالى؛ وكان هناك اختيار من اللحم المقدد بالسكر من معمل التدخين ينتظر دوره بالفرن. وفى قلب البيت حيث اجتمعنا بعد أن تناولنا طعام العشاء، كان هناك بالقرب من رف المستوقد أغصان صنوبر طويلة

مقطوعة حديثًا ومزينة بلفائف ورق العنب وثمرات العيد اللبية. وفى الموقد نفسه كانت هناك مقلاة سوداء موضوعة على حمالة سلك عالية وفيها كان الفول السودانى يحمر على جمر شجر الجوز فى حين سطع ضوء النهار الشاحب بسرعة وأمسى ليلا مخمليًا مرقطًا ببشائر ثلج قادم، وأصوات كلاب الإسكيمو الدافئة والضحكات المتزايدة الممتزجة بحكايات حزن وفرح الأيام الماضية التى لم تُنسَ.

«... كانت بطيخات ذلك العجوز أليس تبدو وكأن طعمها أحلى طبيعيًا من أى بطيخ آخر»، قال أبى: «وكنت أنا وهامر نتسلل إلى هناك كلما زاد الطقس حرارة لدرجة يصعب فيها الحركة ونأخذ اثنين من هذا البطيخ إلى البركة ونتركهما حتى يبردا جيدًا. وبما أننا نتحدث عن الطعام، فقد قمنا بالأكل جيدًا».

«أبى، أكنت تسرق؟» سأل ليتل مان فى ذهول. بالرغم من أنه كان عادة ما يرفض أن يقوم أحد بحمله بشدة، فقد كان الآن جالسًا فى حجر أبى براحة.

«حسنًا ..» قال أبى «ليس تمامًا. ما كنا نفعله بالضبط هو أننا كنا نبدل إحدى البطيخات من أرضنا فى مقابل واحدة من عنده. لكن بالطبع هذا ما زال تصرفًا سيئًا كى نقوم به، لكن فى هذا الوقت كان يبدو أمرًا مقبولاً -».

«على الرغم من ذلك، كانت المشكلة»، ضحك العم هامر، «كان أليس العجوز يزرع بطيخات مستديرة وخضراء وكان بطيخنا طويلاً ومخططًا -».

«وكان السيد أليس دائمًا محقًا بشأن بطيخه»، تدخل أبى. «أخذ أطول وقت ليكتشف ما الذى كنا نخطط له، لكنه يا ربى، يا ربى، عندما اكتشف -».

قال العم هامر واقفا: «- كان يجب أن تشاهدونا ونحن نركض». وأشاع بيده تجاه الأخرى. «يا ر-جل! كنا قد اختفينا! وكان ذاك العجوز وراءنا تمامًا بعصا مصنوعة من خشب الجوز ويضربنا بها على رأسينا -».

«آيـ-يى! كان هذا العجوز يعرف كيف يجرى!». صرخ أبى. «لم أعرف أحدًا أبدًا فى حياتى يستطيع التحرك بسرعة هكذا!».

ضحكت الجدة الكبيرة. «وكما أتذكر، فإن أباكم عندما علم من السيد أليس بما كنتم تقومون به قام بضربكما ضربًا مبرحًا. بالطبع كان كل آل أليس عدائين بالفطرة. أتتذكرون جميعكم شقيق السيد أليس، توم لى؟ حسنًا، فى إحدى المرات كان ..».

خلال الأمسية أعارنا أبى والعم هامر والجدة الكبيرة والسيد موريسون وأمى ذكرياتهم، ويمثلون حكاياتهم بمهارات مسرحية، مقلدين الشخصيات، الصوت والأسلوب والحركات ببراعة لدرجة أن مستمعيهم كانوا ممسكين بخصورهم من الضحك. كان وقتًا دافئًا وجيدًا. لكن مع ازدياد سكون الليل ونقص الفول السودانى فى المقلاة، سكنت الأصوات، وقال السيد موريسون:

«... إنهم يأتون إلى هنا مثل الأشباح فى عيد الميلاد عام ست وسبعين. كانت أوقاتًا صعبة مثل الآن وكانت عائلتى تسكن بحى فقير خارج مدينة شريفيبورت. كانت إعادة الهيكلة على وشك الانتهاء فى ذلك الوقت، وكان الجنود الشماليون قد تعبوا من مكوثهم بالجنوب ولم يكونوا بالكاد يكترثون بحال القوم السود القاطنين بالحى الفقير. وكان الجنوبيون البيض قد سئموا من الجنود الشماليين ومن الزنوج الأحرار، وكانوا يحاولون رد الأمور إلى حالها التى كانت عليها قبلاً. والقوم الملونون... حسنًا، فلقد كنا تعبنا. لم يكن هناك

عمل بالكاد، وأعتقد أنه خلال تلك السنوات كان من الصعب أن تكون حرًّا مثل صعوبة كونك عبدًا ...

«وقد أتوا فى هذه الليلة - أتذكرها جيدًا - كانت ليلة باردة وكان علينا أن نتجمع بالقرب من بعضنا حتى نتمكن من الحفاظ على الدفء، وفتيان - كانوا يبلغون قرابة الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من العمر، على ما أعتقد - قدموا وطرقوا باب أبى. كانوا خائفين، لم يستطيعوا أن يفكروا بشىء من الرعب. لقد كانوا قادمين لتوهم من شريفيبورت. قامت امرأة بيضاء باتهامهم بالاعتداء عليها ولم يعرفوا إلى أين يهربون؛ لذا قدموا إلى أبى لأنه كان له رأى سديد وكان ضخمًا، أضخم منى. كان قويًّا أيضًا. قويًّا لدرجة أنه يستطيع كسر ساق رجل بسهولة كأنه يكسر فرع شجرة - رأيته يفعل ذلك فى هذه الليلة. وكان القوم البيض يخافون منه. لكن أبى لم يكن لديه الوقت الكافى لسماع قصة الفتيان عندما اندفع رجال الليل الشيطانيون -»

«رجال الليل!» رددت بهمسة جافة وحادة. وتصلب ستيسى الجالس بجوارى على الأرض؛ ووكزنى كريستوفر جون بذراعيه؛ ومال ليتل مان للأمام على حجر أبى.

«ديفيد ..». بدأت أمى بالكلام، لكن أبى ضم يدها النحيلة فى يده وقال بهدوء، «إنهم فى حاجة إلى أن يستمعوا لمثل هذه الأشياء يا عزيزتى. إنه تاريخهم».

جلست أمى معتدلة، ويدها لا تزال فى يد أبى وعيناها يقظتان. لكن بدا على السيد موريسون أنه لم يلاحظ. « ... اندفعوا مثل الجراد»، استمر يحكى بصوت حالم.

«دخلوا علينا بأسلحتهم الثورية، يقتلوننا ويقطعوننا إرْبًا إرْبًا. لم يبالوا بمن يقتلون. لم نكن شيئًا بالنسبة لهم. لم نكن أفضل من الكلاب كثيرًا. قاموا بقتل الرضع والسيدات المسنات. لم يكن مهما».

حدق فى النار.

«قتلت أختايا فى الحريق، لكن أمى استطاعت أن تخرجنى ..». تلاشى صوته وقام بلمس الندبات الموجودة برقبته. حاولت أن تعود إلى المنزل لتنقذ البنات، لكنها لم تستطع. كان رجال الليل قد حاصروها وأمسكوا بها وقامت بقذفى - قذفتنى كأننى كرة - بأقصى قوة لديها، محاولة إبقائى بعيدًا عنهم. ثم قاتلتهم. قاتلتهم كأنها مخلوق برى تمامًا إلى جوار أبى. كان كلاهما من سلالة تكاثر وكانوا أقوياء مثل الثيران -».

«سلالة تكاثر؟». قلت. «وما هذا؟».

قالت أمى: «كيسى لا تقاطعى السيد موريسون»، لكن السيد موريسون التفت عن الموقد وشرح: «حسنًا يا كيسى، فى أثناء العبودية كانت هناك بعض المزارع التى كانت تقوم بتزاوج الأشخاص مثل الماشية لإنتاج عبيد أكثر. إن تربية العبيد كانت تجلب نقودًا كثيرة لأسيادهم، خاصة بعد أن أعلنت الحكومة أنهم لن يستطيعوا إحضار المزيد من العبيد من إفريقيا، فقاموا بإنتاج شتى أنواع العبيد لبيعهم بالمنطقة. وكان الناس الذين لديهم مال كاف، رجالاً بيضًا وحتى الرجال السود الأحرار، يستطيعون شراء ما يريدونه. قامت تربية والدى من أجل القوة مثل آبائهم وأجدادهم من قبلهم. لم يهم ما كانوا يعتقدونه بالنسبة لهذه الفكرة. لم يكن هناك أحد يكترث لذلك.

«لكن أبى وأمى كانا يحبان بعضهم بعضًا، وكانوا يحبون أطفالهم، وفى عيد الميلاد هذا قاموا بمحاربة هؤلاء الشياطين القادمين من الجحيم كأنهم ملائكة الانتقام مسلطين من عند الله». ووجه نظره إلى الموقد مرة أخرى وجلس فى سكون تام؛ ثم رفع رأسه ونظر إلينا. «لقد ماتوا فى تلك الليلة. قتلهم رجال الليل هؤلاء. يقول لى بعض الناس إننى لا أستطيع أن أتذكر أحداث عيد الميلاد ذاك - كنت بالكاد أبلغ السادسة من عمرى - لكننى أتذكره جيدا. إننى أجبر نفسى على تذكره».

جلس ساكنًا مرة أخرى ولم يتحدث أحد. لكزت الجدة الكبيرة الحطب الأحمر ذاهلة بقضيب تذكية النار، لكن لم يحرك أحد ساكنًا. أخيرًا وقف السيد موريسون، وتمنى لنا ليلة هنيئة وغادر.

وقف العم هامر أيضًا. «أعتقد أننى سأوى إلى الفراش أنا الآخر. لقد قاربت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل».

قالت الجدة الكبيرة: «انتظر هنيهة يا هامر بما أنك أنت وديفيد قد عدتما إلى المنزل، فيجب أن أتحدث معكما بشأن الأرض ..».

أيقظتنى رؤية رجال الليل والحريق ممتزجة فى مرجل من الخوف قبل بزوغ الفجر بفترة طويلة. وتلقائيًّا تدحرجت تجاه الوجود المريح للجدة الكبيرة بالسرير، لكنها لم تكن بجانبى.

كان لا يزال هناك بصيص من ضوء خافت يتسلل من تحت الباب من غرفة أبى وأمى وأسرعت تجاهه فورًا. حين قمت بفتح الباب ودخلت إلى الغرفة الظليلة، والتى كانت مضاءة فقط بضوء النار الأصفر الوامض، كانت الجدة الكبيرة تقول، « ... وإذا بدأتم بالعبث مع هؤلاء القوم هنا، فلا داعى لأن أخبركم بما سيحدث».

«أمن الأفضل أن نجلس هنا ونشكو معاملتهم لنا؟» نطقت أمى صاخبة، وصوتها يعلو «كل الناس من سميلنجز كريك إلى ستروبيرى يعرفون أنهم هم الذين قاموا بذلك لكن ما الذى سنفعله بهذا الشأن؟ إننا ندفئ جيوبهم ببعض القروش ونرسل أطفالنا إلى متجرهم ليتعلموا أشياء لا شأن لهم بتعلمها. إن الأطفال الأكبر سنا يشربون الخمور هناك بانتظام الآن بالرغم من أنهم ليس لديهم المال ليدفعوا مقابل ذلك، ويقوم آل والاس ببساطة بإضافة تكاليف الخمور إلى فاتورة العائلة ... يجنون مزيدًا من المال لقاء تدميرهم لشبابنا. كما أرى فإن أقل شىء نستطيع فعله هو التوقف عن التسوق هناك. قد لا يكون هذا عدلاً حقيقيًا، لكن ذلك سيسبب لهم ضررًا وسنكون قد تمكنا من القيام بشىء. إن السيد تيرنر وآل أفرى وآل لانير وأكثر من دستتين من العائلات، وربما أكثر، يقولون إنهم سيفكرون بشأن التسوق هناك إذا استطاعوا الحصول على رصيد دائن فى مكان آخر. نحن مدينون بذلك لآل بيرى -».

تدخل العم هامر «بصراحة، أفضل أن أقوم بإحراقهم بنفسى».

ردت أمى بحسم «هامر، إذا لجأت للحريق فلن يكون لدينا شىء، لن يكون لدينا شىء على أية حال»، رد العم هامر. «أتعتقدين أنه بالتسوق هناك فى فيكسبرج ستستطيعين إخراج آل والاس، إذن فأنت ليس لديك أدنى فكرة عن كيفية سريان الأمور هنا. أنسيت أن هارلان جرينجر يدعم متجرهم؟».

«مارى يا طفلتى، إن هامر على حق»، قالت الجدة الكبيرة. «إننى سأفعل بالأرض كما أخبرتكم سابقًا، لأننى لا أريد أن تظهر أية ثغرات قانونية بعد وفاتى تسمح لهارلان جرينجر هذا بأن يضع يده على هذا المكان. لكن إذا قمنا بدعم هؤلاء الناس بأرضنا فإننا سنخسرها بالتأكيد؛ وإذا حصل هذا فلن أستطيع أن أواجه بول إدوارد -».

«إننى لم أقل إننا سندعم هذا، لكننا العائلة الوحيدة هنا على الإطلاق التى لديها أملاك».

رفع أبى نظره عن النار. «ربما كلامك هذا صحيح يا عزيزتى، لكن إذا قمنا برهن الأرض لدعم شىء كهذا فسيكون الأمر مساويًا كأننا قمنا بالاستغناء عنها. إن الأوقات مثل هذه صعبة، وإنه لأمر مستبعد بأن يستطيع أى أحد من هؤلاء الأشخاص بسداد فواتيرهم - بقدر ما ينوون على ذلك - وإذا لم يستطيعوا تسديدها فأين سينتهى بنا المطاف؟ ليس لدينا سيولة لنتمكن من دفع ديون الآخرين». هز أبى رأسه. «لا ... يجب علينا إيجاد سبيل آخر ... سنذهب إلى فيكبرج ونرى إن كنا سنتمكن من ترتيب -» وقعت عيناه علىَّ فى الظلال ومال للأمام. «كيسى، ما الأمر يا حلوة؟».

تمتمت: «لا شىء يا أبى.. لقد استيقظت لتوى، هذا كل ما بالأمر».

بدأت أمى بالنهوض لكن أشار إليها أبى بالبقاء فى مكانها ونهض هو. قام باصطحابى إلى السرير قال لى بلطف، «ليس هناك أى داع للأحلام المزعجة يا كيسى يا فتاتى. ليس الليلة على أية حال».

«أبى» قلت وأنا أتدثر تحت اللحاف الدافئ فى حين لفَّنى به «هل سنفقد أرضنا؟».

مد أبى بيده إلى ولمس وجهى بلطف فى الظلام. «إذا لم تستطيعى تذكر أى شىء فى حياتك يا كيسى يا فتاتى، فأريدك أن تتذكرى هذا: إننا لن نخسر هذه الأرض أبدًا. هل تؤمنين بذلك؟».

«نعم يا سيدى، يا أبى».

«إذن اخلدى إلى النوم. إن عيد الميلاد على الأبواب».

صرخ ليتل مان صبيحة عيد الميلاد «كتب!».

كان هناك لستيسى الكونت دى مونت كريستو؛ كان لى هناك الفرسان الثلاثة؛ وكان هناك لكريستوفر جون وليتل مان مجلدين من حكايات إيسوب. فى الغلاف الداخلى لكل كتاب كان هناك اسم كل مالك منا مكتوبًا بيد أمى الدقيقة. كان مكتوبًا فى كتابى: «هذا الكتاب ملك للآنسة كيسى ديبورا لوجان. عيد الميلاد، ١٩٣٣».

«قال الرجل الذى باع لى هذه الكتب إن اثنين منهما قام بكتابتهما رجل أسود»، قال أبى وهو يفتح كتابى ومشيرًا إلى صورة رجل يرتدى معطفًا طويلاً فاخرًا وشعرًا مستعارًا مجعدًا وكثيفًا يصل إلى كتفيه. «اسمه ألكسندر دو-ما، رجل فرنسى. كان أبوه مولاتو وكانت جدته إحدى العبيد بهذه الجزر - مار-تى-نيك، كما هو مكتوب هنا. قال لى الرجل إن قراءتهم تصعب على الأطفال الصغار، لكننى قلت له: «إنه لا يعلم من هم أطفالى. إذا كانوا لا يستطيعون قراءتها الآن فسيتعودون عليها عندما يكبرون».

بالإضافة إلى الكتب كان هناك جورب ملىء بمشتريات سنوية من حلوى العرقسوس والبرتقال والموز لكل منا ومن العم هامر، فستان وكنزة لى، وكنزة وسروال لكل من كريستوفر جون وليتل مان. لكن لم يكن هناك شىء يضاهى الكتب. قام ليتل مان الذى كان يقدر الملابس فوق كل شىء، بوضع سرواله وكنزته الجديدة جانبًا وانطلق لإحضار فرخ نظيف من الورق البنى ليصنع غلافًا لكتابه، وطوال اليوم كان ممددًا على البساط المصنوع من جلد الغزال وهو ينظر إلى الصور البراقة الساطعة للأماكن البعيدة، متصفحًا كل صفحة كأنها من

الذهب، قد تراه فجأة ينظر إلى يده شزرا، وينظر إلى الصفحة التى قلبها لتوه ثم يندفع نحو المطبخ ليغتسل مرة أخرى، فقط؛ ليطمئن قلبه.

عاد آل أفرى إلى البيت معنا بعد القداس بالكنيسة من أجل عشاء عيد الميلاد. تزاحم أطفال أفرى الثمانية كلهم بمن فيهم الأربعة الذين لم يبلغوا سن المدرسة بعد إلى المطبخ معنا أنا والأولاد نشم الشذا اللذيذ ومنتظرين نداء الطعام. لكن لم يكن مسموحًا إلا للبنات الكبار الذين كانوا يساعدون أمى والجدة الكبيرة والسيدة أفرى بالبقاء. كان يتم مطاردة بقيتنا باستمرار إلى خارج المطبخ من الجدة الكبيرة. وأخيرًا قاموا بالإعلان الذى انتظرناه طويلاً وسمح لنا ببدء مأدبة عيد الميلاد.

استمرت المأدبة لأكثر من ساعتين كان فيها الغرفة الأولى والثانية والثالثة، والحديث والضحك، ثم أخيرًا طبق الحلو. عندما فرغنا من الطعام ذهبت أنا والأولاد مع تى جيه وكلود إلى الخارج، لكن الثلج الذى بلغ سمكه نصف بوصة جعل كل شىء متسخًا، لذا رجعنا بعد قليل إلى الداخل وانضممنا إلى الراشدين بجوار نار المدفأة. بعد ذلك بفترة وجيزة سمعنا طرقًا مترددًا على الباب الأمامى. قام ستيسى بفتح الباب ووجد جيريمى سيمز واقفًا هناك مجمدًا وخائفًا جدًّا حين أنعم النظر بالغرفة الساطعة. التفت الجميع ليحدقوا به. وألقى ستيسى بنظرة سريعة نحو أبى ثم إلى جيريمى. «هل - هل تريد الدخول؟». سأله بارتباك.

أومأ جيريمى وتقدم إلى الداخل بتردد.

فى حين أشار إليه ستيسى بالتقدم بالقرب من المدفأة، ضاقت عينى العم هامر وقال لأبى، إن شكله يدل على أنه من آل سيمز».

«أعتقد أنه كذلك» اتفق أبى.

«إذن ماذا بحق الجحيم -».

قال أبى: «اترك الأمر لى لأعالجه».

تغير لون جيريمى عندما سمع ذلك إلى اللون الأحمر الداكن وأعطى أمى كيسًا صغيرًا من الخيش بعجلة. «-لقد أحضرت هذا من أجلكم جميعا». أخذت أمى الكيس. وحينما قامت بفتحه، اختلست أنا النظر من فوق كتفها؛ كان الكيس مليئًا بالبندق.

تساءلت «بندق؟ بندق! إن لدينا إن لدينا الكثير من البندق ولا نعرف ماذا سنفعل به -».

نهرتنى أمى: «كيسى! ما الذى قلته لك بشأن فمك هذا؟» ثم التفتت إلى جيرمى «إن هذا لطف كبير منك يا جيريمى، نحن نقدر لك هذا. شكرا لك».

أومأ جيريمى برفق كأنه لم يكن يعرف كيف يتقبل شكرها، وأعطى ستيسى بتيبس شيئًا مغلفا بورق. وقال: «لقد قمت بصنع هذا من أجلك».

نظر ستيسى إلى أبى ليرى ما إذا كان من الممكن أن يأخذ هذا الشىء منه. قام أبى بتفحص جيرمى ودرسه للحظة طويلة، ثم أومأ لستيسى. «إنه-إنه ليس بكثير»، تلعثم جيريمى فى حين مزق ستيسى الغلاف. «لقـ-لقد صنعته بنفسى». خفض ستيسى أصابعه بالظهر الناعم المصقول لناى خشبى. قال جيريمى مسرورًا: «هيا قم بتجربتها إنها تصفر على نحو جيد».

نظر ستيسى إلى أبى مرة أخرى، لكن هذه المرة لم يعطه أبى أية إشارة بما يجب عليه فعله. «شكرا لك يا جيريمى، إنها لجميلة حقًا»، قال أخيرًا. ثم وقف ستيسى والناى بيده منزعجًا بجوار الباب منتظرًا مغادرة جيرمى.

عندما لم يتحرك جيريمى، قام أبى بسؤاله: «أأنت ولد تشاولى سيمز؟».

أومأ جيريمى: «نعم يا سيدى».

«أيعلم والدك أنك أتيت إلى هنا؟».

عض جيريمى على شفته السفلى ونظر إلى قدميه. «لا سيدى، لا أعتقد ذلك».

«إذن أعتقد أنه من الأفضل لك أن تهم بالعودة إلى منزلك يا بنى قبل أن يبدءوا بالبحث عنك هنا.

«نعم يا سيدى» قال جيريمى متراجعًا للخلف.

هتفت وراءه عندما اقترب من الباب وقلت: «عيد ميلاد سعيد يا جيريمى!».

نظر جيريمى وراءه وابتسم فى خجل: «عيد ميلاد سعيد لكم جميعًا».

لم يقل تى جيه أى تعليق على زيارة جيريمى إلى أن غادر أبى والعم هامر الغرفة. كان خائفًا من أبى ومرتعدًا بصراحة من العم هامر لذا فلم يكن لديه الكثير ليقوله فى أثناء وجود أحد منهما، لكن الآن بما أنهما بالخارج مع السيد أفرى قال: «إنك لن تحتفظ بهذا الشىء أليس كذلك؟».

نظر ستيسى إلى تى جيه بحقد وعرفت أنه كان يفكر بالمعطف. «نعم سأحتفظ به. لماذا؟».

هز تى جيه كتفيه. «لا شىء، فيما عدا أننى لست متأكدًا إذا كنت أنا أريد أن أحتفظ بصفارة كان يصفر بها فتى أبيض».

راقبت ستيسى عن قرب لأرى إن كان سيسمح لتى جيه بهمزه؛ لكنه لم يبدُ كذلك. «آه، أمره ستيسى قائلا: اخرس يا تى جيه».

قال تى جيه بسرعة: «آه يا رجل، لا تسئ فهمى.. إذا كنت تريد الاحتفاظ بهذا الشىء فإن الأمر لك. لكن بالنسبة لى، إذا أعطانى أحد «ما» شيئًا، فإنى أريده أن يكون شيئًا رائعًا - مثل ذلك المسدس الجميل الصغير ذى المقبض اللؤلؤى ..».

عندما غادر آل أفرى، سأل ستيسى أبى: «أبى، لماذا باعتقادك أعطانى جيريمى هذا الناى؟ أقصد، إننى لم أعطه شيئًا فى المقابل».

قال أبى وهو يشعل غليونه: «ربما قمت بإعطائه شيئًا».

«لا يا سيدى، يا أبى. إننى لم أعطه شيئًا أبدًا من قبل!».

«ولا حتى صداقتك؟».

«حسنًا، ... ليس تمامًا. أقصد ... إنه فتى مجنون وهو يحب أن يمشى إلى المدرسة معنا، لكن-»

«هل تحبه؟».

قطب ستيسى حاجبيه مفكرًا «قلت له: إننى لا أريده أن يمشى معنا، لكنه لا يبالى ويستمر بذلك على أية حال ويضحك الفتية البيض منه لذلك. لكنه لا يكترث لهم على الإطلاق ... أعتقد أنه أحبه. أهذا أمر سيئ؟».

قال أبى بحذر. «لا، إن هذا ليس أمرًا سيئًا».

«فى الواقع، إن التعامل معه أسهل بكثير من التعامل مع تى جيه» استمر ستيسى بالكلام «وأعتقد أننى إذا سمحت له، فقد يكون صديقًا أفضل لى من تى جيه».

أخذ أبى الغليون من فمه، فرك شاربه وتكلم بهدوء: «بقدر اهتمامى، فإن الصداقة بين البيض والسود لا تعنى الكثير لأنها عادة لا تكون مبنية على أسس متساوية. قد تكون الأمور بينك وبين جيريمى الآن على ما يرام لكن بعد بضع سنين سيعتبر نفسه رجلا فى حين سينظر إليك على أساس أنك لا تزال فتى صغيرًا. وإذا شعر بهذا فسينقلب ضدك فى دقيقة».

«لكن يا أبى لا أعتقد أن جيريمى سيكون هكذا».

ضاقت عينا أبى حتى زاد الشبه بينه وبين العم هامر!

«نحن آل لوجان ليس لنا شأن بالقوم البيض. أتعرف لماذا؟ لأن القوم البيض يعنون المشاكل. وإذا رأيت السود بصحبة البيض فاعلم أنهم سيواجهون المشاكل. قد يستطيع البيض والسود فى يوم من الأيام أن يكونوا أصدقاء حقيقيين، لكن الدولة فى الوقت الراهن ليست مبنية على هذا الأساس. الآن قد تكون محقًّا بشأن أن جيريمى قد يكون صديقًا أفضل بكثير ممَّا قد يكونه تى جيه على الإطلاق. المشكلة هى أنه هنا بالميسيسبى، إن الأمر يكلفك كثيرًا لتكتشف ذلك ... لذا أعتقد أنه من الأفضل لك ألا تخوض هذه التجربة».

نظر ستيسى إلى أبى بتركيز شديد واستطاع أن يفهم ما يريد قوله.

توقفت بغرفة الأولاد وأنا فى طريقى إلى الفراش لأقوم باسترجاع برتقالة قام كريستوفر جون بسرقتها من جوربى ولمحت ستيسى وهو يقوم بتفحص الناى. فى حين وقفت أنا عند مدخل الباب، تريث ممسكا بها، ثم، بعد أن أعاد لفها بحرص، قام بوضعها فى صندوق أشيائه الثمينة. لم أرَ هذا الناى بعد ذلك اليوم أبدًا.

استدعانا أبى فى اليوم بعد عيد الميلاد أنا وستيسى وكريستوفر جون وليتل مان إلى الحظيرة. كنا نأمل بعكس يقيننا بأن أمى لن تخبره برحلتنا إلى متجر والاس، أو إذا كانت أخبرته، أن يكون هو نسى ما وعدناه به. لكن كان الأحرى بنا أن نكون أفضل إدراكًا. كانت أمى دائمًا ما تخبر أبى بكل شىء، وأبى لا ينسى شيئًا أبدًا.

بعد أن تلقينا عقابنا، خرجنا متألمين وبعيون دامعة وراقبنا أبى والعم هامر والسيد موريسون يركبون السيارة الباكارد وينطلقون مسرعين. قالت أمى إنهم ذاهبون إلى فيكسبرج.

سأل ستيسى: «لماذا فيكسبرج يا أمى؟».

قالت باقتضاب: «إن لديهم بعض الأعمال التى يجب أن يقوموا بها هناك، هيا بنا الآن، اعثروا لأنفسكم على ما يشغلكم، فلدينا الكثير من الواجبات المنزلية التى علينا القيام بها».

فى وقت متأخر بعد الظهيرة، وبعد أن كان الرجال قد عادوا إلى البيت، وصل السيد جيميسون. كان السيد جيميسون قد أحضر معه كعكة فاكهة من صنع السيدة جيميسون وكيسًا من حلوى الليمون لكل من الأولاد وأنا. سمحت لنا أمنا بتقديم شكرنا للسيد جيميسون، ثم قامت بإرسالنا إلى الخارج. لعبنا لمدة قصيرة على قطع الثلج المتبقية، لكننا ضجرنا بعد فترة، قفزت بسرعة إلى داخل البيت لأتفقد الأحداث؛ لكن أمى أمرتنى بأن أرجع إلى الخارج كما دخلت مرة أخرى.

سأل ليتل مان: «ماذا يفعلون؟».

قلت له : «ينظرون إلى رزمة كبيرة من الورق. وكان العم هامر يوقع على شىء».

سأل ستيسى: «أى نوع من الأوراق؟».

رفعت كتفى: «لا أعلم. لكن السيد جيميسون كان يذكر شيئًا عن بيع الأرض».

تساءل ستيسى: «بيع الأرض؟ أأنت متأكدة؟».

أومأت: «لقد قال: قوموا جميعكم بالتوقيع على هذه الأوراق وبذلك لن يكون للسيدة كارولين أى حقوق قانونية بالنسبة لهذه الأرض. لا تستطيع بيعها ولا تستطيع التوقيع عليها. ستكون الأرض باسميكما وسيطلب موافقتكما أنتما الاثنان لتفعلا أى شىء بها».

«كل مِنْ مَنْ؟».

رفعت كتفى مرة أخرى: «أعتقد أبى والعم هامر».

بعد فترة أصبح الطقس باردًا ودخلنا إلى المنزل. كان السيد جيميسون جالسًا إلى جوار الجدة الكبيرة، يقوم بوضع بعض الأوراق فى محفظة أوراقه. قال بصوته الذى كان مزيجًا بين أرستقراطية الجنوب وتعليم الشمال «أتمنى أن يكون قد اطمأن قلبك الآن يا سيدة كارولين».

قالت الجدة الكبيرة: «لقد كان هامر وديفيد يهتمون بالأمور لفترة طويلة الآن يعملون هم ومارى بكد ليقوموا بدفع الضرائب والرهن على هذا المكان هنا وكنت أريد التأكد مادمت أتنفس وأن يكون لهم الحق فى هذه الأرض قانونيا بدون أية مشاكل. إننى لا أريد أن تثار أية مشاكل عمن يئول له الحق فى هذه الأرض بعد وفاتى». توقفت عن الكلام للحظة، ثم أضافت، «إن هذا الأمر يحدث أحيانا كما تعرف».

أومأ السيد جيميسون، كان رجلاً طويلاً ونحيلاً فى منتصف الخمسينيات بوجه محام تام، هادئ جدًّا لدرجة يصعب معها التخمين بالأفكار التى تدور وراءه.

جلست أنا والأولاد فى صمت عند طاولة المذاكرة، وسمح لنا الصمت بالمكوث. افترضت أن السيد جيميسون يهم بالمغادرة الآن. كان من الواضح أنه اختتم أعماله هنا وبالرغم من أن العائلة كانت تحترمه، فلم يكن يعتبر صديقًا بالمعنى الكامل للكلمة، ولم يبدُ أن هناك سببًا يستدعى مكوثه أكثر من ذلك. لكن السيد جيميسون وضع حقيبته مرة أخرى على الأرض مشيرًا إلى أنه لن يغادر، ثم نظر إلى الجدة الكبيرة وأمى، ثم عبر الغرفة إلى أبى والعم هامر.

قال: «هناك حديث يدور هذه الأيام بأن بعض الناس فى هذه المنطقة يتطلعون إلى التسوق فى فيكسبرج».

نظرت الجدة الكبيرة تجاه أبى والعم هامر لكن لم يعترف أى منهم بنظرتها، كانت عيونهم مثبتة على السيد جيميسون.

«والحديث يدور أيضًا عن سبب تطلع هؤلاء الناس إلى التسوق هناك».
صمت لمدة قصيرة، قابل نظرات أبى، ثم العم هامر، واستمر متابعًا. «وكما تعلمون، فإن لعائلتى جذورًا فى فيكسبرج - ولدينا عدد من الأصدقاء لا يزالون يعيشون هناك. وقد تلقيت مكالمة من أحدهم هذا الصباح. وذكر أنكم كنتم تبحثون عن طريقة لفتح رصيد دائن من أجل قرابة ثلاثين عائلة».

لا أكدوا لأبى والعم هامر ولا أنكروا هذا. «وتعلمون أيضًا كما أعلم أنا بأن فتح رصيد دائن هذه الأيام ليس بالأمر السهل» استمر السيد جيميسون متابعا كلامه «وإذا توقعتم الحصول على أى رصيد فمن الأفضل أن يكون لديكم ما يدعمه».

«أعتقد أننا ملمون بذلك». قال العم هامر.

نظر السيد جيميسون إلى العم هامر وأومأ برأسه: «كنت أعتقد أنكم تعرفون. لكن كما أرى أنا الأمر، فإن الشىء الوحيد لديكم الذى تستطيعون دعم الرصيد الدائن به هو هذه الأرض ... وأكره أن أراكم تفعلون هذا بها».

سأل العم هامر، مدركا اهتمامه «ولم هذا؟».

«لأنكم ستخسرونها».

طقطقت النار بالمدفأة وزاد الصمت بالغرفة. ثم تحدث أبى قائلاً: «ما الذى ترمى إليه؟ سأقوم أنا بدعم الرصيد الدائن».

مرة أخرى، الصمت. منح السيد جيميسون أبى والعم هامر بعض اللحظات لكى يبحثوا عن حافز وراء وجهه الثابت. «إننى واحد من أبناء الجنوب، ولدت وتربيت هنا، لكن هذا لا يعنى أننى موافق على كل ما يحدث هنا، وهناك الكثير من البيض يشعرون بنفس الإحساس».

قال العم هامر بنبرة ساخرة: «إذا كنت أنت والكثير تشعرون هكذا.. فلماذا إذن لم يدخل آل والاس إلى السجن؟».

حاولت الجدة الكبيرة الكلام «هامر -».

أجاب السيد جيميسون بصراحة «لأنه ليس هناك ما يكفى من نفس هؤلاء الناس أصحاب البشرة البيضاء قد يقرون بما يشعرون به، أو حتى إذا قاموا بذلك، لن يقوموا بشنق رجل أبيض من أجل قتل رجل أسود. إن الأمر بهذه البساطة».

ابتسم العم هامر قليلا وهز رأسه، لكن عينيه أظهرت احترامًا مريرًا للسيد جيميسون.

«إن دعم القرض صفقة بحتة. وفى الخريف عندما يتم جمع المحاصيل، فإن الأفراد الذين قاموا بالشراء من فيكسبرج يجب عليهم الوفاء بديونهم. وإذا لم يستطيعوا القيام بذلك، فسأضطر أنا إلى الدفع. بالطبع، كرجل أعمال، أتمنى ألا أضطر إلى القيام بدفع قرش واحد - فإن مدخراتى ليست بكثيرة - لذا سيكون هناك حد أقصى للرصيد. وعلى الرغم من ذلك، فسوف يعطينى هذا الأمر إحساسًا كبيرًا بالرضا لكونى طرفًا به» نظر حوله «ما ظنكم؟».

قال أبى: «تعرف أن هذا ليس بأمر سهل! إنه بعد تجميع الحسابات، لن يكون هناك أى مال لسداد الديون على الإطلاق، إلا ديون متجر والاس».

أومأ السيد جيميسون عالما. «لكن العرض ما زال قائما».

تنفس أبى بعمق: «حسنًا إذن، أعتقد أن الأمر متروك للأفراد الذين سيشترون بتوقيعك. إذا كانوا يريدون القيام بذلك، فليس لنا رأى فى الأمر. نحن دائمًا ندفع نقدا».

قال العم هامر، «أنت تعلم بأنك إذا قمت بدعم هذا الرصيد فهذا لن يكسبك شهرة كبيرة فى هذه المنطقة. هل قمت بالتفكير فى هذا الأمر؟».

«نعم» قال السيد جيميسون متأملاً: «ناقشت الأمر أنا وزوجتى كليا. نحن على يقين أن **هذا قد يحدث** ... لكننى فقط مستغرب لكم أنتم. إلى جانب أن بعض البيض فى هذا المكان يكرهون هذه الأرض التى تملكونها وأسلوبكم المستقل، مثل هارلان جرينجر. لقد كنت أعرف هارلان طيلة حياتى، وهو لن يكون سعيدا بهذا الأمر».

أردت أن أسأل ما شأن السيد جرينجر بهذا الأمر، لكن المنطق قال لى إننى لن أكسب سوى طردى من المكان لمجرد السؤال. لكن السيد جيميسون أكمل وقام بالتوضيح بدون أدنى تدخل منى.

«منذ أن كنا أطفالاً، كان هارلان يعيش فى الماضى. كانت جدته تملأ رأسه بكل أنواع الحكايات عن مجد الجنوب قبل الحرب. وكما تعلمون كان لآل جرينجر إحدى أكبر المزارع فى الولاية وعمليا كانت مقاطعة سبوكين ملكا لهم ... وكانوا يعتقدون أنها كذلك أيضًا. كان يتم الأخذ بمشورتهم فى كل شىء يخص هذه المنطقة وكانوا يشعرون بأن الأمر متروك لهم بأن يثروا إنّ كل شىء يدور على بسلاسة، طبقا للقانون - قانون صيغ أساسا للبيض. إلى حد بعيد، يشعر هارلان بنفس شعور جدته قديما. ولديه أيضًا شعور قوى تجاه هذه الأرض ويرفض واقعة أنكم لن تبيعوها له مرة أخرى. إذا قمتم بدعم الرصيد الآن بهذه الأرض فسوف يستغل الفرصة ليأخذها منكم. يجب أن تكونوا متأكدين من هذا».

صمت للحظة، وعندما تحدث مرة أخرى كان صوته هادئا جدًّا لدرجة أنى اضطررت إلى الميل للأمام لأتمكن من سماع كلماته التالية: «وإذا استمررتم بتشجيع الناس على عدم التسوق بمتجر والاس، فقد تخسرونها أيضًا. لا تنسوا

أن هارلان يقوم بتأجير أرض المتجر لعائلة والاس ويأخذ نسبة ضخمة من دخله. وقبل أن يسمح لآل والاس بالعمل بالبقالة، كان يحصل على أموال مزارعيه فقط. لكنه الآن يحصل على قدر طيب من أموال مزارعى مونتيير وهاريسون أيضًا بما أن هاتين المزرعتين أصغر من أن يكون لهما متجرهما الخاص، وهو سيقف لكم فى تدخلكم فى هذا الأمر.

«لكن الأهم من ذلك كله، فإنكم تصوبون أصبع الاتهام مباشرة نحو آل والاس بأمر هذه المقاطعة. إنكم لستم فقط تتهمونهم بالقتل، والتى قد تكون ذات اعتبار ضئيل لأن الرجل الذى قتل أسود، لكنكم تقولون إنه يجب أن يتم معاقبتهم لهذا الأمر. إنهم يجب أن يعاقبوا إذا قاموا بقتل رجل أبيض، والقيام بمعاقبة رجل أبيض بسبب جرم اقترفه بحق رجل أسود يدل على المساواة. الآن هذا شىء لن يسمح به هارلان جرينجر على الإطلاق».

كان السيد جيميسون صامتا، منتظرا؛ لم يتفوه أحد بكلمة واستمر هو متابعا حديثه.

«الأمر الذى تم به إدانة جون هنرى بيرى وأخيه - التقرب لامرأة بيضاء - لا يتناسب مع طبع هارلان جرينجر ومعظم الناس البيض الآخرين فى هذا المجتمع أكثر من أى شىء آخر، وأنتم تعلمون هذا. قد لا يؤمن هارلان بأساليب آل والاس، لكنه سيقف إلى جانبهم بالتأكيد. صدقونى فى هذا الأمر».

نظر أبى إلينا؛ أنا والأولاد منتظرا رده، ثم أومأ برفق، كما لو كان موافقًا. «على الرغم من ذلك»، قال، «أريد لهؤلاء الصغار أن يعلموا بأننا حاولنا، وما قد لا نستطيع القيام به الآن، قد يستطيعون هم القيام به فى يوم من الأيام».

دمدم السيد جيميسون متوجها نحو الباب «آمل أن يكون الأمر كذلك يا دفيد، آمل أن يكون الأمر كذلك فعلا».

فى الأيام التى أعقبت زيارة السيد جيميسون، ذهب أبى وأمى والعم هامر إلى بيوت العائلات التى أخذت التسوق فى فيكسبرج بعين الاعتبار. وقبل اليوم الرابع ذهب أبى والعم هامر مرة أخرى إلى فيكسبرج، لكن هذه المرة فى العربة مع السيد موريسون. استغرقت رحلتهم يومين وعندما عادوا، كانت العربة محملة ببضائع مشتراة من المتاجر.

سألت أبى حينما كان يقفز من فوق العربة «ما كل هذا؟ أهذا لنا؟».

«لا يا فتاتى كيسى. إنها أشياء طلبها الناس من فيكسبرج».

أردت أن أسال مزيدًا من الأسئلة عن الرحلة، لكن أبى كان يبدو على عجلة من أمره ليذهب مرة أخرى وباتت أسئلتى غير مجاب عنها إلى اليوم التالى، عندما وصل السيد جرينجر. كنت أقوم أنا وكريستوفر جون بسحب الماء من البئر عندما انسلت السيارة الباكارد الفضية إلى توقف سلس فى مدخل البيت وخرج منها السيد جرينجر. حدق بوجه نكد إلى سيارة العم هامر الباكارد فى الحظيرة، ثم فتح البوابة المؤدية إلى الفناء الأمامى ومشى بخشونة عبر المرجة الخضراء إلى المنزل.

جَرَرت أنا وكريستوفر جون حبل البئر على عجالة. سحبنا أنبوب المياه وسكبنا الماء بالدلو. وبينما أمسك كل منا بجانب الدلو الثقيل، هُرعنا إلى الشرفة الخلفية حيث وضعناه، ثم مشينا على رءوس أصابعنا بصمت عبر المطبخ الصامت إلى الباب المؤدى إلى غرفة أبى وأمى. كان ليتل مان وستيسى خارجين لتوهم من

الغرفة بأمر من أمى وسمحوا للباب بأن يبقى مفتوحا قليلا، فاحتشدنا كلنا عليه بنمط سلمى.

«إنكم بالتأكيد أعطيتم الناس موضوعا ليتحاكوا به بسيارتك هذه يا هامر»، قال السيد جرينجر بلهجته الشعبية فى حين جلس ينهج فى الجهة المقابلة لأبى. كان دائمًا يتكلم بهذه الطريقة بالرغم من تعليمه الجامعى. «ما الذى يفعلونه بك فى الشمال؟ أتعمل فى تهريب الخمور؟». ضحك ضحكة جافة، مظهرا بأن هذا السؤال يؤخذ باستخفاف، لكن عينيه اللتين كانتا مركزتين على العم هامر أوضحتا بأنه كان يريد إجابة.

لكن العم هامر وهو يميل على رف المستوقد لم يضحك. «إننى لا أحتاج إلى العمل بالتهريب» قال بتجهم «إن لى هناك وظيفة رجل ويدفعون لى أجر رجل عليها».

تفحص السيد جرينجر العم هامر. كان العم هامر يرتدى، كما كان يرتدى منذ أول يوم وصل فيه إلى هنا، سروالا مكويًّا بشدة، صدرية على قميص أبيض كبياض الثلج، وحذاء يلمع مثل الظلمة الدامسة. «لقد تمدنت كثيرًا، أليس كذلك؟ بالطبع كنت دائمًا ترى نفسك على أنك أفضل من أن تعمل بالحقول مثل الآخرين».

قال العم هامر «لا، ليس الأمر كذلك. لكننى لم أر أبدًا أن خمسين قرشا فى اليوم تستحق عناء وقت طفل، ناهيك عن أجر رجل». لم يقل العم هامر شيئًا آخر؛ لم يضطر إلى ذلك. كان الجميع يعلم أن الخمسين قرشا كانت أقصى أجر يتقاضاه أىُّ عامل، رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً يتم توظيفه للعمل بحقول جرينجر.

مرر السيد جرينجر لسانه حول أسنانه، جاعلا شفتيه تبرزان على شكل نصف دوائر غريبة، ثم التفت من العم هامر إلى أبى. «يخبرنى البعض أنكم تقيمون متجرًا متنقلاً هنا. وسمعت أن الفرد إذا أراد الحصول على أى شىء من متجر تيت فى فيكسبرج فما عليه إلا القيام بإخباركم».

تلاقت عينا أبى بالسيد جرينجر، لكنه لم ينطق بكلمة.

هز السيد جرينجر رأسه. «يبدو لى أنكم تقومون بالتحريض على شىء. لكم له جذور فى هذا المجتمع. إنكم لديكم ذلك القرض الذى أخذه بول إدوارد من فرست ناشيونال بنك هناك فى ستروبيرى من أجل المائتى فدان الشرقية. وبالتأكيد فى أوقات كهذه، قد يحين الرهن فى أى وقت هذه الأيام ... وإذا حان موعده ولم يكن لديكم المال المتوفر لسداده، فقد تخسرون جميعًا هذا المكان».

قال العم هامر ببرود: «لن نخسره».

وجه السيد جرينجر نظرة إلى العم هامر ثم أعاده تجاه أبى. قام بإخراج سيجار من جيبه، ثم سكينا ليقطع به حافة السيجار. وبعد أن رماها فى المدفأة، استقر بمقعده وأشعل سيجاره فى حين انتظر أبى وأمى والعم هامر والجدة الكبيرة حتى يفرغ مما يفعله. ثم قال: «إن هذا مجتمع جيد. وبه أناس مهذبون - سواء كانوا بيضًا أو ملونين. إذا كان هناك أى أمر يضايقكم فأخبرونى به فقط. وسنقوم بتسوية الأمر بدون داعٍ إلى كل هذه الجلبة».

ضحك العم هامر ضحكة مطلقة. رفع السيد جرينجر نظره بحدة، لكن العم هامر نظر إليه بتكبر وبابتسامة لا تزال على شفتيه. قام السيد جرينجر وهو يراقبه

بالتحذير بشدة، «إننى لا أحب المشاكل هنا. إن هذا مكان هادئ ومسالم... وإننى أحرص على أن أراه على هذه الحال دائمًا» التفت إلى أبى مرة أخرى واستأنف كلامه «مهما كانت المشاكل التى قد تواجهنا، فبإمكاننا حلها. وإننى لن أخفى بأننى أظن أن جميعكم ترتكبون خطأ فادحا، بحق كل من المجتمع وأنفسكم، قاطعين كل ذلك الطريق إلى فيكسبرج لتتسوقوا. هذا السلوك لا يظهر أى ود تجاه الجيرة -».

قال العم هامر: «ولا حتى الإحراق».

نفث السيد جرينجر الدخان بعمق من سيجاره لم ينظر إلى العم هامر. عندما تحدث مرة أخرى كان موجها حديثه إلى الجدة الكبيرة. كان صوته قاسيًا لكنه لم يقم بالتعليق على ما قاله العم هامر. «لا أعتقد أن زوجك بول إدوارد كان سيتغاضى عن أمر كهذا ويجازف بفقدان أرضه. كيف تسمحين لأولادك بالقيام بهذا العمل؟».

فَرَدَّتْ الجدة الكبيرة حِجْرَ فستانها بيديها «لقد كبروا وهذه أرضهم. ليس لدى أى شأن بها من الآن».

لم تظهر عينا السيد جرينجر أية مفاجأة، لكنه زم شفتيه مرة أخرى ومرر لسانه على أسنانه. «إن سعر القطن كما تعرفون جميعًا، انخفض بشدة» قال أخيرا «قد أطالب الأجراء عندى بمصاريف إضافية الصيف القادم لأستطيع فقط تغطية التكاليف ... إننى أكره القيام بذلك، لأننى إذا فعلت فلن يكون لديهم المال الكافى لشراء مؤن الشتاء، ناهيك عن المال الكافى لتغطية ديونهم ..».

كان هناك صمت انتظار متوتر قبل أن يوجه نظره إلى أبى مرة أخرى.

«لقد أخبرنى السيد جو هيجينز ببنك فرست ناشونال بأنه من الصعب عليه منح قرض لأفراد يقومون بإثارة الضغينة فى المجتمع -».

تدخل العم هامر بهدوء: «وخاصة إثارة الأشخاص الملونين من مكانهم».

شحب وجه السيد جرينجر، لكنه لم يلتفت إلى العم هامر، استأنف كلامه كأنه لم يسمع شيئًا: «إن المال شحيحٌ جدًّا، والأشخاص أمثال هؤلاء يمثلون مجازفة واهنة. هل أنتم على استعداد لخسارة هذه الأرض يا ديفيد من أجل أمر كهذا؟».

إن أبى يقوم بإشعال غليونه. ولم يرفع نظره حتى اشتعل التبغ واستقر به. ثم التفت إلى السيد جرينجر. «لقد كان مائتا فدان من هذا المكان ملكا للوجان منذ قرابة خمسين عاما الآن، والمائتان الأخريان لمدة خمسة عشر عاما. ولقد مررنا بأوقات عصيبة وأوقات يسيرة ولكننا لم نخسر أيًّا منها. فلا أعتقد أن الأمر سيبدأ الآن».

قال السيد جرينجر بهدوء: «كانت أرض رينجر قبل أن تكون أرض لوجان».

قال أبى: «كانت أرض عبيد».

أومأ السيد جرينجر: «لم أكن لأخسر هذا الجزء من الأرض لولا أصحابك الشماليون المستفيدون من سرقتها بعد الحرب. لكن استمروا جميعا بلعب دور بابا نويل وسوف أستعيدها أنا - بمنتهى السهولة. أريدكم أن تعلموا أننى سأقوم بكل ما يتطلبه الأمر من الحفاظ على السلام بهذه المنطقة».

أخذ أبى الغليون من فمه وحدق بالنار. وعندما واجه السيد جرينجر مرة أخرى كان صوته هادئا جدًّا وجليًّا جدًّا وراسخًا جدًّا. «لمجرد كونك أبيض تستطيع

أن تخطط لأى شىء تريده. لكن دعنى أقول لك أمرًا واحدًا: إذا كنت تخطط للحصول على هذه الأرض، فإنك تخطط الأمر الخطأ».

عبرت يد أمى نحو ذراع أبى غير مرئية تقريبًا.

رفع السيد جرينجر نظره بمكر. «هناك العديد من الطرق لإيقافك عند حدك يا ديفيد».

طوق أبى السيد جرينجر بنظرة باردة، أجابه أبى: «إذن من الأفضل لك أن توظفها جيدًا».

وقف السيد جرينجر ليغادر، بابتسامة توحى بعجرفة على شفتيه كَأَنَّه يعرف سرا يرفض الإفصاح عنه. نظر إلى العم هامر نظرة سريعة، ثم التفت وغادر، تاركا الصمت وراءه.

8

«آه ... يا آنسة ليليان، الرجاء انتظرينى دقيقة إذا سمحت لى؟».

«كيسى، هل جننت؟» صرخ ستيسى «كيسى، أين أنت ... عودى إلى هنا! يا كيسى!».

تلاشت كلمات ستيسى إلى السكون الرمادى لنهار شهر يناير حينما أدرت أذنًا من طين نحوه متظاهرة بأننى لم أسمعه وهرعت وراء ليليان جين، قلت لها عندما لحقت بها «شكرا لك لأنك انتظرتنى».

حدقت ليليان جين نحوى بعدم ارتياح «ماذا تريدين؟».

قلت لها حينما مشيت إلى جوارها، «حسنًا، لقد كنت أفكر بما حدث هناك في ستروبيرى الشهر الماضى».

علقت ليليان جين بارتياب «صحيح؟».

«حسنًا، لأصدقك القول، فقد كنت منزعجة جدًّا لفترة هناك. لكن أبى قال لى إنه لن يفيدنى شيئًا جلوسى هكذا وكونى غاضبة. ثم تراءت لى الأمور بوضوح. كان يجب على أن أراها هكذا طوال الوقت. لأنه بالرغم من كل هذا، فأنا هو ما أنا عليه وأنت هو من أنت عليه».

نظرت إلى ليليان جين باندهاش لدرجة أن الأمر كان جليا أمام عينى تمامًا.

«حسنًا، إننى مسرورة لأنك أخيرا تعلمت كيف هى حال الأمور».

قلت بصوت هامس: «أوه، بالفعل تعلمت إن الأمر كما أراه - هيا، دعينى أحمل الكتب عنك يا آنسة ليليان جين - إن الأمور كما أراها، يجب علينا كلنا القيام بما نستطيع القيام به. وهذا ما سوف أقوم به من الآن فصاعدا. وهو ما يجب على القيام به».

أجابت ليليان جين بتحمس «هذا جيد من أجلك يا كيسى إن الله سوف يباركك من أجل ذلك».

«أتعتقدين ذلك؟».

«ياه، بالطبع!» أعلنت بقوة «إن الله يريد لكل الأطفال أن يفعلوا الصواب».

«إننى مسرورة لأنك تعتقدين ذلك ... يا آنسة ليليان جين».

عندما وصلنا إلى تقاطع الطريق، لوحت مودعة ليليان جين وانتظرت الآخرين. وقبل أن يصلوا إلى هتف ليتل مان، «أووو، إننى سوف أخبر أمى! سأخبرها بأنك حملت كتب ليليان جين الغبية تلك!».

تساءل كريستوفر جون ووجهه المستدير ينضح بالألم «كيسى، لماذا قمت بفعل هذا؟!».

ضحك تى جيه «آه، تبًّا لقد تعلمت عزيزتنا كيسى هنا أنها من الأفضل أن تقوم بما فيه مصلحتها إذا كانت تريد أن تتفادى أذى آل سيمز».

ضممت قبضتى بإحكام وراء ظهرى، وضيقت عينى بتحديقة آل لوجان، لكننى تمكنت من الإمساك بلسانى.

حدق ستيسى بى مستغربا، ثم التفت قائلاً: «من الأفضل لنا أن نتابع طريقنا إلى المدرسة».فى حين تبعتهم فى السير، لمس جيريمى ذراعى بحياء. «كـ-كيسى، إنك لم تكونى مضطرة للقيام بذلك. إ-إن ليليان جين هذه لا تستحق ذلك منك».

حدقت فى جيريمى، محاولة فهم ما يريد أن يقوله. لكنه تجنبنى وركض تجاه الطريق نحو أخته.

«إن أمى ستطرحك أرضًا وستضربك ضربًا مبرحًا»، قال ليتل مان معتزا بنفسه وهو ما يزال مستشاطًا غضبًا حينما اقتربنا من المدرسة. «كيسى، إننى بالتأكيد سأخبرها بما حدث».

«كلا، إنك لن تقوم بذلك» قال ستيسى: كان هناك صمت يخفى صدمة كبيرة والتفتت كل الرءوس تجاهه. «إن هذا الأمر يخص كيسى وليليان جين وليس من حق أى منكم أن يخبر أحدًا بأى شىء عن هذا الموضوع». حدق مباشرة فى تى جيه، واشتبك بنظره ثم كرر «لا أحد».

صاح تى جيه «آه يا رجل! إن هذا الأمر ليس من شأنى». ثم بعد لحظة من الصمت أضاف، «إن هناك الكثير مما يشغلنى عن كيسى التى تحاول توقير ليليان جين».

كاد لسانى أن يفلت من فمى، لكننى زمت شفتى، مرغمة إياه أن يبقى فى فمى.

«إن الامتحانات النهائية قربت الآن، وباقٍ عليها أسبوعان يا رجل، وليس بإمكانى أن أتحمل رسوبى فى هذه الامتحانات مرة أخرى» أكمل تى جيه كلامه.

«لذا فمن الأفضل لك ألا ترسب» قال ستيسى.

«تبا، هذا ما اعتقدته العام الماضى. لكن أمك تضع أصعب الامتحانات التى تستطيع صنعها» صمت للحظة وتنهد، ثم تجرأ على السؤال، «أعتقد أنه من الأفضل أن قمت بسؤالها عما هى نوعية الأسئلة -»

«تى جيه لا تأت لتحدثنى عن أية محاولات للغش مرة أخرى!» صرخ ستيسى بغضب «بعد كل تلك المشاكل التى تورطت فيها بسببك المرة الأخيرة. إذا كانت لديك أية أسئلة، فاذهب واسأل أمى بنفسك، لكن إذا تحدثت إلى بكلمة أخرى عن تلك الامتحانات، فسوف -».

«حسنًا، حسنًا»، ابتسم تى جيه باعتذار متظاهرًا. «إن الأمر فقط هو أنه على أن أفكر بشىء».

«إن عندى حل» قلت له، غير قادرة على مقاومة تلك النصيحة الأخوية الصغيرة.

«ما هو؟».

«حاول أن تذاكر».

بعد أن غادر العم هامر صبيحة السنة الجديدة، خرجت أنا وأبى إلى الغابة، ومشينا بدرب الأبقار إلى التجويف السديمى حيث كانت ترقد الأشجار المقطوعة على الأرض.وقفنا لفترة ننظر إلى الدمار، ثم مَرَرْنا على أحد رفاقنا الذين سقطوا، تحدثنا بنبرات هادئة، متبادلة الاحترام، متأملين الحداد الهادئ للغابة. عندما شرحت أحداث ستروبيرى كلها إلى أبى، قال بهدوء، «أنت تعرفين أن الكتاب المقدس ذكر أنه من المفترض عليك أن تغفرى مثل هذه الأشياء».

اتفقت مع كلامه منتظرة: «نعم يا سيدى».

«ومن المفترض أن تديرى وجهك إلى الخد الأخر».

«نعم يا سيدى».

«حك أبى شاربه ونظر إلى الأشجار الواقفة مثل الحراس على حافة التجويف، منصتة. «لكن الأمر كما أراه أنا، فإن الكتاب المقدس لم يقصد بهذا أن تكونى مغفلة. الآن فى أحد الأيام قد أستطيع أن أغفر لجون أندرسن ما فعله بهذه الأشجار، لكننى لن أنساه. أعتقد أن الغفران هو ألا تدعى شيئًا يعكر عليك صفو حياتك. الآن إذا لم أكن قمت بما قمت به، لما كنت قدرت على أن أغفر لنفسى، وهذه هى حقيقة الأمر».

أومات باتزان ونظر أبى إلى. «إنك تشبهيننى كثيرًا يا فتاتى كيسى، لكنك لديك طبعك الحاد مثل عمك هامر. إن هذا الطبع قد يوقعك فى مشاكل كثيرة».

«نعم يا سيدى».

«الآن بالنسبة لهذا الأمر الذى بينك وبين ليليان جين، فقد يعتقد معظم الناس أن عليك إطاعتها والقيام بما تقوله لك... وأعتقد أنه عليك القيام بـ -».

«أبى!».

«يا كيسى، هناك الكثير من الأمور التى من الممكن أن تكونى غير راغبة فى القيام بها لكنه عليك القيام بها فى هذه الحياة حتى تستطيعين البقاء. الآن إننى لا أحب ما قام به تشارلى سيمز تجاهك أكثر من عمك هامر، لكنه كان علىّ أن أُقَوِّم الضرر والألم الذى أصابك بالمقابلة مع ما كان يمكن أن يحدث إذا قمت بملاحقته. إذا كنت قد أقدمت على القيام بملاحقة تشارلى سيمز وضربته ضربا شديدا كالذى شعرت بأننى أريد أن أقوم به، لكان لحقنا كلنا أذى أكبر بكثير من الذى شعرت به، لذا تركت الأمر. إننى لا أحب أن أترك الأمور كما هى لكننى أستطيع التعايش مع مثل هذا القرار.

«لكن هناك أمورًا أخرى يا كيسى، إذا تركتها تحدث فسيقومون بتدميرى فى النهاية. وهو نفس الأمر بالنسبة إليك يا عزيزتى. هناك بعض الأمور التى لا يمكنك أن تتخاذلى عنها، أمور يجب عليك أن تأخذى موقفًا تجاهها. لكن الأمر متروك لك لتقررى ما هى تلك الأشياء. إن عليك أن تطالبى بالاحترام فى هذا العالم، ولن يقوم أحد بتسليمه لك. كيف تحملين نفسك، ما القيم التى تقتدين بها - إن هذا هو الأسلوب الذى تكتسبين به الاحترام. لكن يا صغيرتى إن احترام أى أحد لم ولن يساوى احترامك لذاتك. هل تفهمين ذلك؟».

«نعم يا سيدى».

«الآن، إنه ليس من المنطقى أن تستمرى فى غضبك حيال هذا الموضوع. عليك أن تقومى بتصفية ذهنك حتى تستطيعين أن تفكرى بعقلانية. ثم أريدك أن تفكرى بجد كبير ما إذا كانت ليليان جين تلك تستحق أن تأخذى موقفا حيال أمرها، لكن أريدك أن تضعى بالاعتبار أنه من المحتمل ألا تكون ليليان جين آخر شخص أبيض ليعاملك بهذه الطريقة». التفت أبى نحوى ليتمكن من النظر إلى وجهى مباشرة، ثم أجفلتنى الجدية التى رأيتها بعينيه. رفع ذقنى براحة يده العريضة القاسية. «إن هذا لقرار مهم، يا كيسى، مهم جدًّا - أريدك أن تفهمى هذا - لكننى أعتقد أنك تستطيعين أن تعالجى هذا الأمر. الآن استمعى إلىَّ وأُريدك أن تستمعى جيدًا إذا قمت باتخاذ القرار الخاطئ بشأن هذا الموضوع، وتدخل تشارلى سيمز، فسوف أضطر إلى التدخل أيضًا وسينتهى الأمر بمشكلة كبيرة.

همست «مشكلة كبيرة؟ مثل الأشجار؟».

قال أبى: «لا أعرف لكن الأمر قد يكون سيئًا».

فكرت فى كلماته، ووعدته قائلة «إن السيد سيمز لن يسمع بهذا الأمر أبدًا يا أبى».

أمعن أبى النظر إلىّ: «إننى سوف أعتمد على ذلك يا فتاتى كيسى. إننى سوف أعتمد على هذا تمامًا».

كنت المطيعة لليليان جين طوال شهر يناير وكانت هى مستمتعة بهذا الإحساس كثيرًا. حتى إنها اعتادت على انتظارى فى الصباح مع جيريمى حتى أحمل لها كتبها. عندما كان أصحابها يمشون معنا، كانت تتفاخر بصديقتها الملونة الصغيرة وكانت تكاد تحتضن نفسها متعة عندما أناديها بالـ«آنسة» ليليان جين. عندما كنا وحدنا، كانت تفضى إلى بأسرارها: الفتى التى كانت تحبه بشغف طيلة العام الماضى والأشياء التى قامت بها من أجل أن تلفت انتباهه (وقد أضيف أن كل هذه المحاولات كانت بدون نجاح)؛ أسرار البنات التى كانت لا تطيقهم بالإضافة إلى البنات التى كانت تطيقهم؛ حتى إنها أخبرتنى بمعلومة أو اثنتين عن مغامرات أخويها الأكبر منها العاطفية. كل ما كان علىّ فعله لأشغل مضخة النميمة هو أن أبتسم بلطف وأهمس بيا «آنسة ليليان جين» كل حين وآخر. لقد كدت أكره أن أرى هذا المصدر ينضب.

فى آخر يوم من الامتحانات، انطلقت خارج فصل الآنسة كروكر وهرعت نحو الساحة. كنت متلهفة لأن أصل إلى تقاطع الطريق حتى ألحق بليليان جين؛ لقد كنت وعدت نفسى بأن أعتنى بأمر الامتحانات أولا ثم ...

«ليتل مان! كلود! كريستوفر جون! هيا جميعًا!» صحت بهم «ها هو ستيسى!». انطلق أربعتنا عبر الساحة متعقبين ستيسى وتى جيه على الطريق. عندما لحقنا بهم، كان من الواضح أن القناع المرح الذى كان يرتديه تى جيه دومًا كان قد نزع عنه.

اتهمها تى جيه، وهو مقطب الجبين عابسًا: «لقد قامت بذلك عن عمد!».

أوضح ستيسى «يا رجل، لقد كنت تغش! ماذا كنت تتوقع منها أن تفعل؟».

«كان من الممكن أن تدعنى لحالى. إن الأمر لم يكن شيئًا أكثر من قطعتى ورق صغيرتين. ولم أكن فى حاجة لهما».

«إذن لماذا كنت تحملهم معك؟».

«آه يا رجل، اتركنى لحالى! إنكم جميعًا يا عائلة لوجان تعتقدون أنكم أكثر أهمية بمعاطفكم الجديدة وكتبكم وسيارات الباكارد اللامعة ملككم!». التفت حوله، محدقا بى أنا وكريستوفر جون وليتل مان.لقد مللت منكم كلكم. ومن أبيكم وأمكم أيضًا!». ثم التفت وهرب مسرعا بغضب نحو الطريق.

«تى جيه! هيا يا رجل، إلى أين أنت ذاهب؟» صاح ستيسى وراءه. لكن تى جيه لم يجبه. ارتفع الطريق فى شكل تل صغير واختفى تى جيه بالجانب الآخر منه. عندما وصلنا إلى تقاطع الطرق لم نتمكن من رؤية أى أثر له على الطريق الجنوبى المؤدى إلى البيت، فسأل ستيسى كلود: «إلى أين ذهب؟».

كان كلود يبدو والخجل يملؤه وحك حذاءه البالى فى الآخر. «أعتقد أنه ذهب إلى ذلك المتجر».

تنهد ستيسى: «هيا بنا إذن. من الأفضل لنا العودة إلى المنزل. سيكون على ما يرام غدا».

قلت أنا: «اذهبوا أنتم على أن أنتظر ليليان جين».

«كيسى -».

قلت قبل أن يبدأ ستيسى بمحاضرتى «سوف ألحق بكم هناك، خذ كتبى، هل تسمح؟». نظر إلىّ كأنه يريد أن يقول شيئًا آخر، لكنه قرر ألا يفعل ذلك، وقام بدفع الأولاد الصغار ولحق بهم.

عندما ظهرت ليليان جين تنهدت شكرا؛ لأن جيريمى فقط كان معها؛ من الممكن أن يكون اليوم بالتأكيد. جيريمى الذى كان يبدو لى محبطا مثل

ليتل مان، أسرع لكى يلحق بستيسى. كان هذا جيدا أيضًا؛ كنت أعرف أنه سوف يقوم بذلك. أخذت كتب ليليان جين، وحينما كنا نمشى الهوينى على الطريق، كنت أنصت لها بنصف تركيز؛ فقد كنت أمسح الطريق باحثة عن الأثر العميق بالغابة الذى قمت باختياره فى وقت مبكر هذا الأسبوع. عندما رأيته، قاطعت ليليان جين باعتذار. «اعذرينى يا آنسة ليليان جين، لكننى لدى مفاجأة سارة لك ... وجدتها اليوم الماضى فى الغابة».

سألت ليليان جين: «من أجلى؟ آه، إنك فعلاً لطيفة يا كيسى. أين هى؟».

«هيا تعالى، سوف أريك أين هى».

وطأت الجدول الجاف وتسلقت نحو الضفة. تباطأت ليليان جين بالخلف. «إنه لا بأس» أكدت لها «أنه ليس بعيدًا. لكن عليك أن تريه يا آنسة ليليان جين».

هذا كان كافيًا للقيام بذلك. ابتسمت مثل القط الأليف وعبرت الجدول وقامت بالقفز على الجدول. سألتنى وهى تتبعنى عبر الأثر الغائر إلى الغابة العميقة، «أمتأكدة أن هذا هو الطريق يا كيسى الصغيرة؟».

«إنه أبعد قليلا... أمامنا هناك. آه، ها هو».

دخلنا إلى أرض صغيرة ومظلمة مقطوعة الشجر بنباتات معترشة حولها، بعيدا تمامًا عن الطريق.

«حسنًا؟ أين هى المفاجأة؟».

قلت ضاربة كتب ليليان جين بالأرض «هنا تمامًا».

سألت ليليان جين مندهشة أكثر من كونها غاضبة «لماذا، لماذا فعلت هذا؟».

«لقد تعبت من حملهم» قلت لها.

«ألهذا الأمر أتيت بى كل ذلك الطريق إلى هنا!

حسنًا، من الأفضل لك أن تنتهى من تعبك وتلتقطى الكتب مرة أخرى».

ثم، توقعت أن إرادتها ستكون محط التنفيذ دون أن تلفظ بكلمة أخرى، التفتت لتترك الفرجة فى الغابة.

قلت لها بهدوء: «أرغمينى».

«ماذا؟». كانت الصدمة التى كست وجهها هزلية.

«قلت لك أرغمينى».

اتجهت برقة عبر الثغرة وبادرت بضربى بشدة على وجهى ولم أكن أسمح لها بضربى مرة أخرى. بعد ضربتها الأولى فضربتها بيدى وهجمت عليها بقوة أدت إلى وقوعنا معًا على الأرض ورغم مقاومتها بأقصى قوة لديها إلا أنها لم تكن كفؤًا لى.

كنت هادئة وكنت أعرف أين أريد أن أضربها. لكمتها ببطنها وردفها، ولويت شعرها، لكننى لم ألمس وجهها ولا مرة واحدة؛ وهى على الجانب الآخر استهلكت قواها فى السب الردىء الغاضب واستخدمت أظافرها، متمكنة من خدشى مرتين. حاولت أن تنزع شعرى لكنها لم تتمكن، فقد طلبت من الجدة الكبيرة عن قصد أن تقوم بتجديل شعرى إلى جدائل منبسطة على رأسى.

عندما قمت بتثبيت ليليان جين بامان تحتى، جذبت شعرها الطويل المسدول بدون رحمة وطالبتها بالاعتذار عن كل السباب التى سبتنى بها، وعن الحادث الذى وقع فى ستروبيرى. فى البداية حاولت أن تكون ظريفة - ثم قالت بوقاحة:

«إننى لن أقوم بالاعتذار لأية زنجية!».

«أتريدين أن ينتهى بك الأمر صلعاء يا فتاة؟».

وقامت بالاعتذار. عن نفسها وعن والدها. عن إخوتها وعن أمها. عن ستروبيرى وعن المسيسبى، وبالوقت الذى انتهيت فيه من رج رأسها بعنف، أعتقد أنها كانت على استعداد بالاعتذار عن العالم كونه مستديرا إذا قمت بمطالبتها بذلك. لكن حين أطلقت سراحها وانطلقت هى بأمان إلى الناحية الأخرى من الثغرة حيث كان الأثر أمامها، هددت بأن تقول لوالدها.

«هيا قومى بذلك يا ليليان جين. فقط قومى بذلك وسوف أتاكد من أننى سوف أطلع كل أصدقائك الممتازين على مقدرتك فى حفظ الأسرار. وأعتقد أنك لن تعرفى أسرار أحد بعد ذلك».

«كيسى! إنك لن تقومى بهذا، ليس بعد أن استأمنتك -»

«إذا تمتمت بكلمة واحدة بخصوص هذا الشأن إلى أى أحد، يا ليليان جين»، قلت لها، محاولة تضييق عينى كما يفعل أبى، «لشخص واحد فقط، وكل من فى مدرسة جيفرسون ديفيس سيعرف بمن تهيمين وكل أعمالك الأخرى... وأنت تعرفين أننى أعرف. إلى جانب ذلك، فإذا عرف أحد بهذه المشاجرة سيضحكون عليك حتى يصلوا إلى جاكسون. ها أنت فى الثالثة عشرة من عمرك وقد ضربتك فتاة بالتاسعة من عمرها».

بدأت أتوجه نحو الأثر، مزهوة بنفسى جدا، عندما سألتنى ليليان جين «لكن، يا كيسى، لماذا؟ لقد كنت فتاة صغيرة ولطيفة جدًّا..».

أمعنت النظر فيها بذهول. ثم استدرت وتركت الغابة، لا أريد أن أصدق أن ليليان جين لم تستطع التمييز وأن الموضوع برمته كان مجرد لعبة.

«كيسى لوجان!».

«نعم يا سيدتى، آنسة كروكر؟».

«هذه هى المرة الثالثة التى أضبطك مستغرقة فى أحلام اليقظة هذا الصباح. إن تمكنك من أن تحتلى المرتبة الأولى فى الاختبارات الأسبوع الماضى لا يعنى شيئًا هذا الأسبوع. إننا الآن فى فصل (ربع سنة)(*) جديد سجلاته نظيفة والكل معلوماته جديدة. إنك لن تحصلى على أية درجات عالية إذا استمررت فى الاستغراق بأحلام اليقظة. أتفهمين ذلك؟».

«نعم يا سيدتى»، قلت لها غير مهتمة بأن أخبرها أنها كانت تكرر نفسها كثيرًا لدرجة أن كل ما على المرء فعله هو الإصغاء لها فى أول دقائق من الدرس ويستمتع بأحلام اليقظة حتى يسر فؤاده.

قالت: «أعتقد أنه من الأفضل لك أن تجلسى بالخلف حيث لا تجدين راحتك، وربما عندها ستعيرى الدرس المزيد من الانتباه».

«لكن -»

رفعت الآنسة كروكر يدها، مشيرة إلى أنها لا تريد أن تسمع كلمة أخرى، وقامت بنفيى إلى آخر صف أمام النافذة. انسللت إلى المقعد البارد بعد أن غادره شاغله حتى يأخذ مكانى بجوار الموقد الدافئ. وحينما التفتت الآنسة كروكر بعيدا عنى، تمتمت ببعض العبارات الساخطة، ثم احتضنت سترتى الصوف هدية عيد الميلاد. حاولت أن أنتبه إلى الآنسة كروكر لكن البرد الذى كان ينسل من تحت عتبة النافذة جعل الأمر مستحيلا. عاجزة عن احتمال التيار الهوائى، قررت أن أقوم بتبطين العتبة بورق من دفترى. مزقت الورق، واستدرت نحو النافذة. فى حين كنت أقوم بذلك، مَرَّ رجل من تحت النافذة واختفى بعد ذلك.

هذا الرجل كان كالب والاس.

(*) ربع سنوى: يتماشى مع النظام التعليمى الأمريكى وهو أن كل فصل دراسى مدته ثلاثة شهور.

رفعت يدى، «أوه، يا آنسة كروكر، هل تسمحين لى يا سيدتى؟ يجب على ... حسنًا، أنت تعلمين..».

حينما استطعت الفرار من الآنسة كروكر، انطلقت إلى مقدمة المبنى. كان كالب والاس واقفا أمام مبنى الصف السابع يتحدث إلى السيد ويلفر مع رجلين آخرين ذوى بشرة بيضاء، لم أستطع تمييزهم من مكانى الذى كنت أقف به. عندما دخل الرجال إلى المبنى، استدرت وتوجهت نحو الخلف متسلقة كومة الخشب المكدسة خلفه بحرص. اختلست النظر بحيطة من خلال النافذة المكسورة بفصل أمى. كان الرجال قد دخلوا لتوهم إلى الفصل، كالب والاس أولا ثم تبعه رجل لم أكن أعرفه ثم السيد هارلان جرينجر.

كانت أمى تبدو مندهشة لرؤية هؤلاء الرجال، لكن عندما قال السيد جرينجر، «لقد سمعت الكثير عن تدريسك يا مارى، لذا بصفتنا أعضاء مجلس إدارة المدرسة، فقد عرجنا عليك لنتعلم شيئًا»، أَوْمَأَتْ بكل بساطة وواصلت درسها. ترك السيد ويلفر الغرفة، وعاد بعد فترة قصيرة بثلاث كراسى مطوية للزائرين؛ وظل هو نفسه واقفا.

كانت أمى فى منتصف درس التاريخ وعرفت أن هذا أمر سيئ. كنت أستطيع أن أجزم أن ستيسى كان يعرف هذا أيضًا؛ كان يجلس متوترا على مقربة من آخر الغرفة وشفتاه مزمومتان جدًّا وعيناه على الرجال. لكن أمى لم تجفل؛ كانت دائمًا تبدأ درس التاريخ أول شىء فى الصباح عندما يكون الطلبة فى كامل يقظتهم، وعرفت أن هذه الساعة لم تنته بعد. ليكون الأمر أسوأ، كان الدرس اليوم يتحدث عن العبودية. تحدثت عن قسوتها، وعن الدورة الاقتصادية الغنية التى أحدثتها حين كان العبيد ينتجون المواد الخام للمصانع الموجودة بالشمال وبأوربا؛ وكيف أن الدولة تكسبت ونمت من العمالة المجانية لأفراد لم يكونوا أحرارًا بعد.

لكن قبل أن تنتهى، التقط السيد جرينجر أحد كتب الطلبة وفتحه على الغلاف الملصوق عليه وزم شفتيه. «اعتقدت أن هذه الكتب ملك للمقاطعة» قال ذلك مقاطعا أمى. نظرت أمى إليه نظرة سريعة لكنها لم تجبه. قلَّب السيد جرينجر الصفحات، توقف ثم قرأ شيئًا. «إننى لا أرى كل تلك الأشياء التى تدرسينها هنا».

قالت أمى: «هذا لأن الأشياء التى أقوم بتدريسها ليست موجودة بالكتاب».

«حسنًا، إذا كانت ليست بالكتاب فإنه ليس لديك الحق فى أن تقومى بتدريسها. إن هذا الكتاب تمت الموافقة عليه من مجلس التعليم ومن المتوقع أن تقومى بتدريس ما هو موجود به».

«لا أستطيع أن أقوم بذلك».

«ولم لا؟».

أجابت أمى وظهرها مستقيم، وعيناها مثبتتان على الرجال، «لأن كل ما ذكر بالكتاب ليس صحيحا».

وقف السيد جرينجر. وأعاد الكتاب إلى المكتب واتجه نحو الباب. تبعه عضو مجلس ادارة المدرسة الأخر وكالب والاس. توقف السيد جرينجر عند الباب وأشار نحو أمى. «من الأكيد أنك ذكية بطريقة ما يا مارى، لتعرفى أكثر من الرجل الذى قام بكتابة هذا الكتاب. أذكى من مجلس التعليم أيضًا على ما أعتقد».

ظلت أمى صامتة، ولم يقم السيد ويلفر بدعمها على الإطلاق.

«فى الواقع»، واصل السيد جرينجر كلامه، واضعا قبعته على رأسه، «أعتقد أنك ذكية لدرجة أننى أريدك أن تنسى أمر التدريس برمته ... لذا بهذه الطريقة سيتسنى لك المزيد من الوقت لتقومى بكتابة كتابك الخاص». بهذه الكلمات استدار ونظر إلى السيد ويلفر ليتأكد من أن قصده واضح، وغادر مع الآخرين خلفه.

انتظرنا أمى بعدما انتهى اليوم الدراسى. كان ستيسى قد صرف تى جيه وكلود، وكان أربعتنا، صامتين وصبورين، جالسين على الدرج عندما ظهرت أمى. ابتسمت إلينا، ولم يبدُ عليها المفاجأة حيث رأتنا منتظرين هناك.

نظرت إليها لكننى لم أتمكن من الحديث. إننى لم أفكر فى تدريس أمى كثيرًا من قبل؛ فقد كان جزءا من كونها أمى. لكنها الآن لم تكن تستطيع أن تدرس، وشعرت بالامتعاض والغضب، وكرهت السيد جرينجر.

سألت أمى: «أتعرفون جميعًا؟». أَوْمَأنا وقامت هى بالنزول ببطء على الدرج. أمسك ستيسى بإحدى مقابض حقيبتها المدرسية السوداء الثقيلة وأمسكت أنا بالأخرى. أمسك كريستوفر جون وليتل مان كل منهم بيد أمى، وبدأنا نمشى تجاه المرجة.

قال كريستوفر جون عندما وصلنا إلى الطريق «أ-أمى ألن تستطيعى أن تقومى بالتدريس مرة أخرى؟».

لم تجبه أمى فورًا. وعندما أجابته، كان صوتها مختنقا. «ممكن فى مكان آخر، لكن ليس هنا - على الأقل ليس فى الفترة القادمة».

صاح لتيل مان: «لكن كيف يحدث ذلك، يا أمى؟ كيف لذلك أن يحدث؟».

عضت أمى على شفتها السفلى وحدقت بالطريق. وقالت أخيرا: «لأننى يا صغيرى قمت بتدريس بعض الأشياء التى لم يكن يريد بعض الناس سماعها».

عندما وصلنا إلى البيت كان أبى يجلس مع السيد موريسون فى المطبخ مع الجدة الكبيرة يحتسون القهوة. فى حين دخلنا، قام أبى بتفقد وجوهنا. واستقرت عيناه على أمى؛ وكان الألم واضحا على وجهها. سأل أبى: «ماذا بك؟».

جلست أمى إلى جواره. وقامت بدفع خصلة من شعرها كانت قد تحررت من تسريحة الشنيون، لكنها وقعت على وجهها مرة أخرى وتركتها كما هى. «لقد تم طردى».

قامت الجدة الكبيرة بوضع كوبها بضعف دون أن تتفوه بكلمة.

مد أبى يده ولمس أمى. قالت، «أتى هارلان جرينجر إلى المدرسة معه كالب والاس وأحد أعضاء مجلس إدارة المدرسة. لقد وشى أحدهم له بشأن الكتب التى قمت بلصقها ... لكن هذا كان عذرا فقط. إنهم يحاولون النيل منا بأية طريقة بسبب التسوق فى فيكسبرج». بح صوتها. «ما الذى سنفعله يا ديفيد؟ إننا فى حاجة إلى تلك الوظيفة».

قام أبى بدفع خصلة الشعر برفق إلى وراء إذنها. «سوف نتغلب على هذا الموقف ... ربما نقوم بزرع المزيد من القطن. لكننا سوف نتغلب على هذا الموقف».كان هناك تأكيد هادئ فى صوته. أومأت أمى ونهضت.

سألت الجدة الكبيرة: «إلى أين أنت ذاهبة يا طفلتى؟».

«إلى الخارج. أريد أن أمشى لفترة».

التفت أنا وكريستوفر جون وليتل مان لنلحق بها، لكن أبى دعانا إلى الرجوع. وقال لنا: «اتركوا أمكم لحالها».

فى حين راقبها وهى تعبر الفناء الخلفى تجاه المرعى الجنوبى، قال السيد موريسون «أتعرف يا سيد لوجان، بوجودك هنا، لا حاجة لك بوجودى. ربما يكون هناك بعض العمل بالجوار ... أعتقد أننى يمكننى الحصول على شىء ... لأقوم بمساعدتكم».

نظر أبى تجاه السيد موريسون: «ليس هناك أى داع لأن تقوم بهذا إننى لا أقوم بالدفع لك كما هو الأمر».

قال السيد موريسون بلطف «إن لدى منزلاً جميلاً أقيم به، وأفضل طهى قد يرغب به أى رجل، ولأول مرة منذ زمن طويل، فإن لدى أسرة. فى رأيى هذا أجر جيد».

أوْمَأ أبى: «إنك رجل صالح يا سيد موريسون وإننى أشكرك على هذا العرض، لكننى سوف أغادر بعد أسابيع قليلة وأفضل أن تبقى أنت هنا». ركزت عيناه على أمى مرة أخرى حيث أصبحت قامة صغيرة على مسافة بعيدة الآن.

«أبى» قال كريستوفر جون بنبرات مهاجة وهو يتحرك تجاهه «ه-هل ستكون أمى على ما يرام؟».

التفت أبى وهو يضع ذراعه حول كريستوفر جون، وقربه منه أكثر. «يا بنى، إن أمك ... ولدت لتدرس مثل ما ولدت الشمس لتشرق. وسوف يكون من الصعب عليها عدم التدريس مرة أخرى. سيكون من الصعب عليها لأنها منذ أن كانت فتاة صغيرة هناك فى دلتا، كانت ترغب كثيرًا فى أن تصبح معلمة».

قال كريستوفر جون: «وكان جدى يريد لها أن تكون كذلك، أيضًا، أليس كذلك يا أبى؟».

أَوْمَأ أبى: «كانت أمكم هى طفلته الصغرى وكان يدخر كل قرش يحصل عليه من أجل تعليمها ... وهذا لم يكن بالأمر السهل عليه أيضًا؛ لأنه كان مزارعًا مستأجرًا ولم يكن لديه الكثير من السيولة المالية. لكنه وعد جدتكم قبل وفاتها بأن يحرص على أن تحصل أمكم على تعليمها، وعندما وصلت أمكم إلى سن الثانوية، قام بإرسالها إلى جاكسون لتكمل تعليمها، ثم إلى مدرسة تدريب

المعلمين. كانت وفاته فى عامها الدراسى الأخير هى التى دفعتها للقدوم إلى هنا للتدريس بدلا من العودة إلى دلتا.

تدخل ليتل مان: «وتزوجتم أنتم ولم تعد هى إلى هناك بعد ذلك».

ابتسم أبى ابتسامة ضعيفة إلى ليتل مان وَهَمَّ واقفا. «هذا صحيح يا بنى. كانت أذكى وأجمل من أن أجعلها تفلت منى». انحنى لينظر من النافذة مرة أخرى، ثم إلينا مرة أخرى. «إنها امرأة قوية ورائعة، أمكم، ومثل هذه الأشياء لن تثبط من عزيمتها ... لكنه جرحها كثيرًا. لذا أريدكم جميعًا أن تكونوا أكثر اعتبارا للأيام المقبلة - وتذكروا ما قلته لكم، أتسمعون؟».

أجبنا: «نعم يا سيدى يا أبى».

تركنا أبى حينها وذهب إلى الشرفة الخلفية. هناك مال على ركيزة الشرفة لعدة دقائق محدقا تجاه المرعى؛ لكن بعد فترة اتجه نحو الفناء وعبر الحديقة لينضم إلى أمى.

سأل ستيسى ليتل ويلى ويجينز فى فترة الاستراحة فى اليوم التالى: «تى جيه؟ أأنت متأكد؟».

أومأ ليتل ويلى ويجينز بتجهم وأجاب: «لقد سمعت ذلك بنفسى. وكلارنس أيضًا. لقد كنا واقفين إلى جواره تمامًا بالمتجر عندما قام بإخبار السيد كالب. وبدأ يتحدث عن كيف قامت السيدة لوجان بإسقاطه فى الاختبار عمدا ثم قال إنها ليست معلمة جيدة وإنها هى التى أوقفت الجميع عن القدوم إلى المتجر. كما قال إنها تقوم بتدمير ممتلكات المدرسة - متحدثا عن تلك الكتب كما تعرف».

صحت أنا: «من الذى سيأخذه؟».

قال ستيسى «اصمتى يا كيسى كيف لك أن تخبرينا بهذا الآن فقط يا ليتل ويلى؟».

هز ليتل ويلى كتفيه. «أعتقد أن تى جيه قام بخداعى. قلت له أنا وكلارنس إننا سنخبر بما فعله حال خروجنا من المتجر، لكن تى جيه طلب منا ألا نقوم بذلك. قال إنه سوف يعود إلى الداخل فورا ويخبرهم بأن ما قاله كان مجرد دعابة، هذا ما قاله. وعاد إلى المتجر أيضًا، وأعتقد أنه لن يحدث شىء بعد ذلك، تردد للحظة ثم اعترف «لم أقل شيئًا بخصوص هذا الموضوع لأنه كان من المفترض ألا نكون هناك أنا وكلارنس ... لكن ها هو السيد جرينجر أتى إلى المدرسة أمس وقام برفد السيدة لوجان. أعتقد أن هذا العمل من تدبير تى جيه».«وأعتقد أنه فهم ذلك أيضًا» قال كريستوفر جون: «ألهذا السبب هو غير موجود بالمدرسة مدعيا بأنه مريض».

«إذا لم يكن مريضًا الآن فإنه سيكون مريضًا حتمًا»، تنبأ ليتل مان، ضامًّا قبضة يده متأهبًا للحدث. «ها هو ذا يمشى بأمى».

بعد المدرسة عندما ظهر كلود بأثر الغابة المؤدى إلى منزل آل أفرى، ذهبنا معه. فى حين ظهرنا من الغابة فى فناء آل أفرى، كان المنزل يبدو مهجورا، لكننا حينما لمحنا تى جيه، يتأرجح بكسل ممتطيًا كفرًا داخليًّا متدليًّا من شجرة سنديان عتيقة فى مقدمة الفناء. انقض عليه ستيسى مباشرة، وعندما رآه تى جيه متوجهًا نحوه حاول أن يؤرجح ساقه اليمنى فوق الكفر ليتمكن من الهرب. لكنه لم ينجح.

قفز ستيسى على الغطاء الداخلى، وأعطاهما هزة هوجاء قوية قبل أن يهبطا على شجيرة الأزلية الخاصة بالسيدة أفرى.

صرخ تى جيه حين تدحرج من تحت ستيسى لينظر إلى الشجيرة المنبسطة. «يا رجل، ما الذى حل بك؟ إن أمى سوف تقتلنى عندما ترى هذه الشجيرة».

قفز ستيسى وهز ياقة تى جيه قائلاً بعنف: «هل أنت السبب؟ هل أنت من قام بذلك؟».

كان تى جيه يبدو فى حيرة تامة. «أقوم بماذا؟ ما الذى تتحدث عنه؟».

«هل وشيت بذلك؟ هل وشيت بأمى إلى آل والاس؟».

«أنا؟» سأل تى جيه. «لماذا يا رجل أظن أنك تعرفنى أفضل من ذلك بكثير».

أجبته: «إنه بالفعل يعرفك؛ إذن لماذا تظن أننا أتينا إلى هنا؟».

اعترض تى جيه. «هيه، انتظر للحظة الآن إننى لا أعرف لماذا يقوم الجميع بإخباركم، لكننى لم أقل شيئًا لآل والاس».

اتهمه ستيسى «لقد كنت هناك اليوم الذى كشفتك فيه أمى وأنت تغش، لقد ذهبت هناك إلى آل والاس».

قال تى جيه، مفلتًا نفسه من قبضة ستيسى وواثبًا على قدميه. «حسنًا، هذا لا يعنى شيئًا إن أبى قال لى إننى أستطيع الذهاب إلى هناك متى شئت. وهذا لا يعنى أننى قمت بإخبارهم شيئًا».

«سمعت أنك قمت بإخبارهم بأشياء شتى ... مثل أن أمى لا تعرف شيئًا وأنها لم تقم بتدريس ما عليها تدريسه».

أنكر تى جيه «لم أقم بذلك حتى! لم أقل هذا أبدًا! كل ما قلته هو أنها هى التى ..» تلاشى صوته حين أيقن أنه تفوه بالكثير، وبدأ يضحك بعدم ارتياح.

«هيه، انظروا جميعًا، إننى لا أعرف كيف رفت السيدة لوجان، لكننى لم أقل شيئًا يجعل أى أحد يقوم برفتها. كل ما قلته هو أنها أرسبتنى مرة أخرى. إن المرء له كل الحق فى أن يغضب بشأن شىء كهذا، أليس كذلك؟».

ضاقت عينا ستيسى نحو تى جيه وقال: «ربما، لكنه ليس له الحق فى أن يثرثر بأشياء ليس من المفترض الحديث عنها».

أخذ تى جيه فى التراجع إلى الخلف ونظر بتوتر خلف كتفه نحو الجنوب، حيث كانت الحقول وراءه محروثه. كان طريق العربات الممهد المؤدى إلى قصر جرينجر البعيد يُظهر امرأة رفيعة تمشى بخفة تجاهنا. بدا على تى جيه القلق من هذا المظهر واغتر بنفسه مرة أخرى. « لا أعرف من الذى يقوم بالوشاية لكنه لم يكن أنا».

مرت لحظة صمت، ثم قال ستيسى وعيناه باردتان ومتهمتان، بهدوء، «إنه أنت بالتأكيد يا تى جيه. إنه أنت». ثم التفت وأشار إلينا بالرجوع تجاه الغابة.

صاح ليتل مان محبطًا «ألن تقوم بضربه؟».

أجاب ستيسى «سوف يناله ما هو أسوأ من الضرب».

«ما الذى قد يكون أسوأ من ذلك؟» سأل كريستوفر جون.

قال ستيسى «سترون وسيرى تى جيه».

كان أول يوم لتى جيه بالمدرسة بعد ما يقرب من أسبوع من الغياب كان أقل من أن يوصف بالنجاح. كان يحاول أن يتفادانا بالصباح، فوصل متأخرًا، فقط ليتجنبه الطلبة الآخرون. تظاهر فى البداية أن سلوك الطلبة تجاهه لم يكن يؤثر به،

لكن بعد الظهيرة عندما انتهت الدراسة، هرول وراءنا، محاولاً أن يقنعنا بأنه كان مجرد ضحية للظروف.

سألنا: «هيه، أنتم لن تتمسكوا جميعكم بما قاله ليتل ويلى ضدى، أليس كذلك؟».

تساءل ستيسى «هل أنت مصر على أن ما قاله ليتل ويلى ليس صحيحًا؟».

أعلن بقوة «تبا، بالطبع نعم! عندما أمسك بذلك الوغد الصغير، سوف أشبعه ضربًا، يمشى هنا ليقول للجميع إننى تسببت برفت السيدة لوجان. لا أحد يريد التحدث إلىّ بعد الآن. بالتأكيد إن ليتل ويلى هو الذى أخبر آل والاس بنفسه، إذ يعتقد أنه سيفلت منها بقوله للجميع إننى كنت الفاعل».

قلت بنزق: «آه، كفاك كذبا يا تى جيه، إن الجميع لا يصدقونك».

«حسنًا، كان بالأحرى أن أعرف أنك لن تصدقينى يا كيسى. إنك لم تكونى تحبينني على أية حال».

اتفقت معه «لكن على أية حال إنها الحقيقة».

قال تى جيه مبتسمًا مرة أخرى وملتفتًا تجاه ليتل مان وكريستوفر جون «لكن، إن صديقى الصغير كريستوفر جون يصدقنى، أليس كذلك يا صاح؟ وأنت أيضًا يا صديقى، أليس كذلك يا ليتل مان؟». نظر ليتل مان إلى تى جيه بغضب، لكن قبل أن يتحدث، قال كريستوفر جون الهادئ «لقد وشيت بأمى يا تى جيه. والآن هى غير سعيدة لأنها لن تستطيع التدريس فى المدرسة بعد ذلك وكل هذا بسببك، وإننا لم نعد نحبك بعد الآن!».

أضاف ليتل مان موافقًا «نعم!».

حدق تى جيه فى كريستوفر جون، غير مصدق أنه تفوه بهذه الكلمات، ثم بدأ يضحك باضطراب. «إننى لا أعرف ما الذى أصاب الناس. لقد فقد الجميع عقولهم»

قال ستيسى متوقفًا «انظر! أولا تقوم أنت بالوشاية إلى آل والاس، والآن تحاول أن تلقى باللوم على ليتل ويلى عما فعلته. لم لا تعترف ببساطة أنك أنت الذى قمت بذلك؟».

أعلن تى جيه بقوة، مبتسمًا ابتسامته الخفيفة «هيه يا رجل!». لكن تعبيرات وجهه انهارت بعد أن أيقن أن ابتساماته وكلماته لم تعد لها نفس المفعول كما سبق. «أوه، حسنًا. حسنًا. ما الأمر إذا كنت قد تحدثت عن شىء بشأن السيدة لوجان؟ إننى لا أتذكر أنى تحدثت فى هذا الموضوع، لكن إذا قال ليتل ويلى وكلارنس إننى قمت بذلك فلربما ما يقولانه صحيح. على أية حال، أنا آسف حقًّا بشأن أمكم وفقدها لوظيفتها و–».

كلنا بما فينا كلود نظرنا إلى تى جيه بازدراء ومشينا مبتعدين عنه. «هيه، انتظروا ... لقد قلت إننى آسف، أليس كذلك؟». لحق بنا وسألنا «انظروا، ما عسى المرء أن يفعل على أية حال؟ هيه، انظروا، إننى لا أزال أنا تى جيه القديم! إننى لم أتغير. لا تستطيعون التخلى عنى بهذا الشكل فقط لأن –».

قال ستيسى دون أن يلتفت له. «إنك أنت الذى تخليت عنا يا تى جيه الآن اتركنا لحالنا. إننا لا نريد أى شىء يربطنا بك بعد الآن».

تى جيه، لأول مرة يدرك أننا لم نعد أصدقاءه بعد الآن. ثم وقف وحده وسط الطريق، صاح ورائنا «من الذى يحتاجكم على أية حال؟ لقد سئمت

مرافقتكم منذ مدة طويلة الآن، لكننى امتنعت عن قول ذلك لكم حتى لا أجرح مشاعركم ... كان الأحرى بى أن أكون على وعى أكثر من ذلك. كيف يصبح شكلى عندما أكون محاطًا بمجموعة من الأطفال طوال الوقت وها أنا ذا أبلغ من العمر أربعة عشر عامًا، وقاربت أن أكون راشدًا ..».

استكملنا سيرنا ولم نتوقف.

«إن لى أصدقاء أفضل منكم جميعًا! يعطوننى أشياء ويعاملوننى كرجل و... وهم بيض أيضًا..».

تلاشى صوته فى صوت الرياح حينما تركناه ولم نسمع منه المزيد.

9

انسل الربيع غير مرئى إلى التربة الحمراء المتلهفة فى باكورة مارس، مليّنًا الأرض القاسية للحرث القادم وباعثًا الحياة التى كانت ترقد نائمة طوال الشتاء البارد. لكن فى نهاية شهر مارس كان جليًّا فى كل مكان: فى الحظيرة حيث كان يسمع خوار ثلاثة عجول أبقار جدد وسقسقة صغار الدجاج بلون ضياء الشمس الباهت الهادئ؛ وفى الفناء حيث تأهبت شجيرات نباتات الوستارية والقرانيا الإنجليزية لإزهارها السنوى لعيد الفصح، وتبرعمت شجرة التين مظهرة بشائرها من الفاكهة البنية الغضة حيث سنضطر أنا والأولاد لمنازعة جاك المحب

للتين فيها؛ وفى رائحة التربة نفسها. مشبعًا بالأمطار، منتعشًا، مفعمًا بالنشاط، مليئًا بالحياة، كأنَّ الربيع يغلفنا جميعًا.

كنت شغوفة بأن أكون فى الحقول مرة أخرى، لأستشعر صفوف الحرث الرطبة، والتربة الناعمة تحت قدمى؛ شغوفة بأن أمشى حافية القدمين خلال الغابة الباردة، وأحتضن الأشجار، وأجلس تحت ظلالها الواقية. لكن بالرغم من أن كل كائن حى كان على علم بأن هذا هو الربيع، فإنه كان من الواضح أن الآنسة كروكر وباقى المدرسين كأن لم يرد إليهم هذا النبأ، لأن الدراسة تباطأت بغير نهاية محددة. وفى الأسبوع الأخير من شهر مارس عندما بدأ أبى والسيد موريسون فى حرث الحقل الشرقى، تطوعت أن أضحى بالمدرسة لمساعدتهم. لكن تم رفض عرضى ومشيت متثاقلة إلى المدرسة لمدة أسبوع آخر.

قال جيريمى فى إحدى الأمسيات عندما قربنا من أثر الغابة الذى يؤدى إلى منزله: «أعتقد أننى لن أراكم كثيرًا بعد الجمعة القادمة».

قال ستيسى: «أعتقد لا، أعتقد أنه كان من الأفضل أن تنتهى مدارسنا فى نفس الوقت».

صرخت، متذكرة أن مدرسة جيفرسون ديفيس لا تصرف قبل منتصف شهر مايو: «أجننت!».

تلعثم جيريمى معتذرًا. «أ-أنا فقط كنت أقصد بإمكاننا أن نرى بعضنا البعض لفترة أطول». كان صامتًا للحظة، ثم أشرق وجهه. «ربما أستطيع أحيانًا أن أعرج عليكم لأراكم جميعًا».

هز ستيسى رأسه. «لا أعتقد أن أبى سوف يحب ذلك».

وهز كتفيه: «حسنًا ... لقد كنت أظن فقط .. سيكون الأمر موحشًا بدون وجودكم».

سألت أنا: «موحشًا؟ بكل هؤلاء الإخوة والأخوات لديك؟».

قطب جيريمى حاجبيه. «إن الصغار أصغر بكثير من أن أستطيع اللعب معهم، والكبار ... ليليان جين وآر دبليو وميلفن، لا أعتقد أننى أحبهم كثيرًا».

سأل ستيسى. «ما الذى تقوله؟ لا يمكنك أن تكره إخوتك وأخواتك».

قال باتزان: «حسنًا، أستطيع أن أعى هذا، لكننى لا أحبهم بالتأكيد».

فكر جيريمى بالأمر: «لكنهم أهله. يجب على المرء أن يحب أهله، حسنًا، إن ليليان جين لا بأس بها على ما أعتقد. إنها لم تعد بغيضة منذ أن توقفت كيسى عن مصادقتها» ابتسم ابتسامة باهتة وقال: «لكن آر دبليو وميلفن ليسا لطيفين فى الحقيقة. من الأحرى أن تنظروا إليهما كيف يعاملان تى جيه ..». توقف عن الكلام، ورفع نظره محرجًا ثم صمت.

توقف ستيسى «كيف يعاملونه؟».

توقف جيريمى أيضًا «إنى لا أعرف»، قال كأنه آسف لذكر هذا الموضوع: «إنهم فقط لا يعاملونه جيدًا».

سأل ستيسى: «كيف؟».

«اعتقدت أنك لم تعد تحبه الآن».

رد ستيسى بسرعة: «حسنًا، ... إننى لا أحبه، لكننى سمعت أنه بصحبة آر دبليو وميلفن الآن. وتعجبت عندما عرفت أن إخوتك من المؤكد فى سن الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة».

نظر جيريمى إلى الشمس، وأغمض عينيه نصف إغماضة، ثم نظر إلى أثر الغابة المؤدى إلى بيته الذى كان أمامنا بعدة أقدام. «لقد أحضروا تى جيه إلى المنزل بضع مرات عندما لم يكن أبى هناك. كانوا يعاملونه بطريقة شبه ودية، لكنه عندما غادر كانوا

يضحكون ويتحدثون عنه - وينعتونه ببعض الأسماء». أغمض عينيه نصف إغماضة مرة أخرى تجاه الأثر ثم قال بعجالة: «من الأفضل لى أن أذهب ... أراكم غدًا».

عندما كنت أعاير ملعقتين مكدستين من الدقيق من أجل الخبز سألت: «أمى، كيف تعتقدين أن آر دبليو وميلفن يقضيان الوقت مع تى جيه؟».

قطبت أمى حاجبيها تجاه برميل الدقيق «ملعقة واحدة يا كيسى، وليست مكدسة هكذا».

«لكن يا أمى إننا دائمًا نستخدم ملعقتين».

«إن هذا البرميل يجب أن يدوم حتى يعود أبوكم إلى السكة الحديد. الآن أعيديها إليه».

سألتها مرة أخرى حينما كنت أعيد ملعقة الدقيق إلى البرميل. «ما الذى تعتقدينه يا أمى؟ كيف لأولاد سيمز هؤلاء أن يرافقوا تى جيه؟».

عايرت أمى البيكنج باودر وأعطته لى. كانت ملعقة شاى أقل مما كنا نستخدمه، لكننى لم أسألها بشأنها. لقد بدأت تنفد هى الأخرى.

قالت أمى ملتفتة إلى الموقد لتحرك الحليب فى حبوب الزبد: «إننى لا أعلم حقًا يا كيسى، قد يكونون فى حاجة إليه معهم لأنه يجعلهم يشعرون أنهم أفضل».

«عندما كان تى جيه برفقتنا، لم يكن هذا يعطينى شعورًا جيدًا».

«حسنًا لقد أخبرتنى أن جيريمى يقول إنهم يضحكون على تى جيه من وراء ظهره. إن بعض الناس يحبون إبقاء الآخرين حولهم ليضحكوا عليهم ... ويستغلوهم».

«أتعجب لأن تى جيه لا يعرف أنهم يضحكون عليه؟ أتعتقدين أنه غبى؟».

«إن تى جيه ليس غبيا يا كيسى. إنه فقط يريد أن يجذب انتباه من حوله، لكنه يسعى إلى مراده بالطريقة الخاطئة».

كنت سوف أسأل ما فائدة تى جيه لأى أحد، لكن ليتل مان قاطعنى راكضا إلى المطبخ.

صرخ ليتل مان «أمى، لقد أتى السيد جيميسون لتوه بسيارته!». لقد كان فى ينظف حظيرة الدجاج مع كريستوفر جون وكان لا يزال هناك جزيئات صغيرة وثخينة عالقة برأسه. ضحكت من مظهره الفوضوى لكن لم يتح لى الوقت لإغاظته قبل أن يختفى مرة أخرى.

نظرت أمى إلى الجدة الكبيرة نظرة متسائلة، ثم تبعت ليتل مان إلى الخارج. قررت أن خبز الدقيق بإمكانه الانتظار وانطلقت وراءهم. أمرتنى الجدة الكبيرة: «يا فتاة، ارجعى حالاً إلى هنا وأكملى خلط خبز الدقيق هذا!».

قلت: «نعم يا سيدتى. سوف أعود حالاً». قبل أن تستطيع الجدة الكبيرة الوصول إلىَّ، كنت قد خرجت من الباب الخلفى قاطعة الفناء إلى المدخل.

قام السيد جيميسون بلمس قبعته فى حين اقتربت أمى. سأل «كيف حالك يا سيدة لوجان؟».

أجابت أمى: «بخير حال، يا سيد جيميسون. وكيف حالك أنت؟».

قال شاردًا: «بخير، بخير هل ديفيد هنا؟ إنه هناك بالحقل الشرقى».

تفحصت أمى السيد جيميسون «هل حدث شىء ما؟».

«أوه لا ... لا. لقد كنت أريد التحدث إليه فقط».

قالت أمى ملتفتة «ليتل مان اذهب وأحضر أباك».

«أوه، لا - لا تفعلى هذا. سأمشى أنا إلى هناك إذا لم يكن لديك مانع. إننى أحتاج إلى التمارين». أوْمأَتْ أمى، وبعد أن تحدث إلى السيد جيميسون، فى الطريق إلى الحقل. بدأت أنا وليتل مان نتبعه لكن أمى استدعتنا كى نعود ونكمل عملنا.

لم يبق السيد جيميسون لمدة طويلة.

ظهر بعد دقائق قليلة من الحقل وحده، وركب سيارته وغادر.

عندما كان العشاء جاهزًا، أمسكت الجرس الحديدى بشغف قبل أن يصل إليه كريستوفر جون أو ليتل مان، وركضت إلى الشرفة الخلفية لأدعو أبى والسيد موريسون وستيسى من الحقول. وحينما اغتسل ثلاثتهم على الشرفة الخلفية، ذهبت أمى إلى نهاية الشرفة حيث كان يقف أبى وحيدًا. «ما الذى أراده السيد جيميسون؟» سألته بصوت يكاد يكون مسموعًا.

أخذ أبى المنشفة التى أعطتها أمى له، لكنه لم يجب على الفور. لقد كنت بالداخل أصفى حبوب الزبدة. تحركت لكى أكون أقرب للنافذة حتى أتمكن من أن أستمع إلى إجابته.

«لا تخف شيئًا عنى يا ديفيد. أريد أن أعرف إذا كان هناك مشاكل».

نظر أبى إليها «لا يوجد شىء ليثير قلقك يا عزيزتى ... لكن يبدو أن ثيرستون والاس كان يتكلم بالبلدة عن كيف أنه لن يدع مجموعة من الأفراد الملونين الحاذقين يلحقون الضرر بتجارته. قال إنه سوف يضع حدًا لهذا التسوق فى فيكسبرج. هذا كل ما فى الأمر».

تنهدت أمى وأمعنت النظر فى الحقل الذى تم حرثه تجاه أرض المرعى المنحدرة. قالت، «لقد بدأت أشعر بالخوف يا ديفيد».

وضع أبى المنشفة جانبًا. «ليس بعد يا مارى. لم يحن الوقت للخوف بعد. إنهم فقط يتكلمون».

التفتت أمى لتواجهه «وعندما يتوقفون عن الكلام؟».

قال ممسكًا بيدها وهو يرشدها نحو باب المطبخ: «بعدها ... أعتقد أن بعدها سوف يحين الوقت. لكن الآن، يا سيدتى الجميلة» الآن لدى أشياء أفضل بكثير لأفكر بها».

سكبت بقية حبوب الزبد بسرعة إلى السلطانية وهرعت عبر المطبخ إلى المنضدة. فى حين دخل أبى وأمى، انسللت إلى المقعد بجوار ليتل مان وكريستوفر جون. أشرق وجه أبى عندما رأى المنضدة. «حسنًا، لننظر هنا!» هتف أبى، «إنها حبوب الزبد العزيزة وخبز القمح! من الأفضل لك أن تسرع يا سيد موريسون! وأنت أيضًا يا بنى!». ناداهما. «إن هؤلاء النساء ليعلنها قمن بتهيئة وليمة لنا».

بعدما انتهت الدراسة، تذابل الربيع بسرعة ليثمر صيفًا؛ لكن أبى لم يغادر بعد من أجل السكة الحديد. كان يبدو أنه منتظر شيئًا، وتمنيت سرًا ألا يأتى، مهما يكن هذا الشىء، حتى لا يضطر أبى إلى الرحيل .لكن فى إحدى الأمسيات حين كان جالسًا على الشرفة الأمامية هو وأمى والجدة الكبيرة والسيد موريسون وستيسى. سمعت أبى بالمصادفة يقول حينما كنت أنا وكريستوفر جون وليتل مان نتسابق فى الفناء محاولين الإمساك بحشرة بالحباحب «يجب على الرحيل الأحد القادم. إننى لا أريد الذهاب بالرغم من ذلك. إن لدى إحساسًا داخليًّا بأن الموضوع لم ينته بعد. إنه شديد السهولة هكذا».

أطلقت سراح الحُباحب التى أمسكت بها فى يدى وجلست إلى جوار أبى وستيسى على الدرج. «أبى، أرجوك»، قلت له وأنا أميل على قدمه «لا تذهب هذا العام». نظر ستيسى تجاه الليل الهابط، ووجهه مستسلم، ولم يقل شيئًا.

مد أبى يده الضخمة وربت على وجهى وقال بلطف. «إننى مضطر إلى ذلك يا فتاتى كيسى يا عزيزتى، هناك فواتير يجب أن نلتزم بدفعها ولا يوجد دخل

مادى قادم. إن أمك لن يكون لديها عمل الخريف القادم وهناك مصاريف الرهن العقارى وضرائب العام القادم لنضعها فى الاعتبار».

«لكن يا أبى، لقد قمنا بزراعة المزيد من القطن هذا العام. ألن يفى هذا بدفع الضرائب؟».

هز أبى رأسه. «بوجود السيد موريسون هنا كان بإمكانه زراعة المزيد، لكن هذا القطن لتغطية مصاريف معيشتنا؛ ونقود السكة الحديد للضرائب والرهن العقارى».

وجهت نظرى إلى أمى منتظرة منها أن تتكلم، أن تقنعه بأن يبقى، لكننى عندما رأيت وجهها علمت أنها لن تقوم بذلك. لقد كانت تعلم أنه سوف يغادر، مثلما علمنا نحن تمامًا.

«أبى، ابق فقط لأسبوع أو اثنين آخرين، ألن تستطيع -».

«لا أستطيع يا عزيزتى. قد أكون فقدت وظيفتى بذلك الحين».

«لكن يا أبى -».

قالت أمى من الظلال الدامسة: «كيسى، هذا يكفى الآن».

طال صمتى، ووضع أبى ذراعه حولى أنا وستيسى، ويده تتدلى بعفوية على كتفينا. هتف ليتل مان من حيث كان هو وكريستوفر جون يغامران على طرف المرجة الخضراء وراء الحباحب «هناك شخص قادم!». بعد دقائق ظهر السيد أفرى والسيد لانير من الظلام ومشوا تجاه المرجة المنحدرة. بعثت أمى ستيسى ليحضر مقاعد أكثر للشرفة، ثم استقررنا إلى جوار أبى مرة أخرى وهو لا يزال جالسا على الدرج، وظهره مستند إلى إحدى الركائز المواجهة للزائرين. سأل السيد أفرى «هل أنت ذاهب إلى المتجر غدًا يا ديفيد؟».

بعد أن قيلت كل التحيات. منذ أول زيارة إلى فيكسبرج فى يناير الماضى، قام السيد موريسون برحلة واحدة إلى فيكسبرج، لكن أبى لم يذهب معه.

أشار أبى إلى السيد موريسون. «إننى ذاهب أنا والسيد موريسون اليوم بعد الغداء. لقد أحضرت زوجتك قائمة بالأشياء التى تحتاجونها أمس».

رفع السيد أفرى صوته باضطراب: «إنـ-إنها القائمة التى أحضرتنى إلى هنا يا ديفيد ... إننى لست بحاجة إلى تلك الأشياء بعد الآن».

طال صمت الشرفة.

عندما لم يتحدث أحد، نظر السيد أفرى إلى السيد لاينر، هز السيد لاينر رأسه وأكمل: «إن السيد جرينجر يصعب الأمر علينا يا ديفيد. لقد قال إنه يجب علينا إعطاؤه ستين بالمائة من القطن، بدلاً من خمسين بالمائة ... الآن وقد قمنا بزراعة القطن، فقد تأخر الوقت لزراعة المزيد ... لا أعتقد أنه سيشكل فرقًا كبيرًا على أية حال. الطريقة التى يباع بها القطن هذه الأيام، يبدو أنه كلما زرعنا المزيد من القطن، نحصل على مال أقل على أية حال -».

قاطع سعال السيد أفرى كلامه وانتظر فترة حتى انتهى السعال قبل أن يستأنف كلامه. «سيكون من الصعب علىَّ القيام بسداد الدين فى فيكسبرج يا ديفيد، لكننى سوف أسدده ... أريدك أن تعرف هذا».

أَوْمَأَ أبى ناظرًا تجاه الطريق «أعتقد أن مونتيير وهاريسون قاما برفع النسب أيضًا».

أجاب السيد أفرى «قام مونتيير بذلك لكن على قدر علمى فإن السيد هاريسون لم يقم بذلك. إنه رجل كريم».

تنهدت أمى بسأم «لقد طفح الكيل». استمر أبى ناظرًا إلى الظلمة. «أربعون بالمائة، أتوقع أن الرجل الذى تعود العيش على خمسين بالمائة يستطيع العيش على أربعين ... إذا كان يرغب فى ذلك فعلاً».

هز السيد أفرى رأسه: «إن الأوقات عصيبة جدًا».

قال أبى: «إن الأوقات عصيبة على الجميع».

رفع السيد أفرى صوته: «أعرف ذلك. أنا-أنا أشعر بسوء تجاه ما فعله تى جيه -».

قال أبى بصراحة: «إننى لم أكن أتحدث عن ذلك». أَوْمَأ السيد أفرى بارتباك، ثم مال إلى الأمام بمقعده ونظر إلى الغابة. «لكن-لكن ليس هذا كل شىء قاله السيد جرينجر. لقد قال أيضًا إنه إذا لم نكف عن التسوق فى فيكسبرج، فعلينا أن نترك أرضه. قال إنه سأم من إثارتنا للمتاعب تجاه أناس بيض محترمين. ولقد أتى آل والاس إلى منزلى ومنزل الأخ لاينر وكل من هو مشترك فى هذا الموضوع ومدين لهم بالمال. قال إننا إن لم نتمكن من سداد ديوننا، فإنهم سوف يضطرونا للجوء إلى الشريف ليأتى ليأخذنا ... ويحكموا علينا بالأشغال الشاقة حتى نسدد ما علينا».

أعلنت الجدة الكبيرة بقوة «أوه، يا إلهى!».

أومأ السيد وأضاف: «يجب علينا الذهاب إلى ذلك المتجر غدًا حتى نقدم حسن النوايا».

بدأ سعال السيد أفرى مرة أخرى ولفترة لم يكن يسمع غير السعال والصمت. لكن عندما توقف السعال، قال السيد لاينر: «أدعو الله أن يجد لنا مخرجًا من هذا الموضوع، لكننا لن نستطيع تحمل الأشغال الشاقة يا ديفيد».

أَومَأَ أَبِى: «ولا أتوقع منكم ذلك يا سيلاس».

ضحك السيد أفرى بهدوء. «لقد آثرناهم لوقت طويل، أليس كذلك؟».

وافقه أبى «نعم، لقد قمنا بذلك بالتأكيد».

عندما غادر الرجال، فقد ستيسى أعصابه، «ليس لهم الحق فى أن ينسحبوا! فقط لأن آل والاس قاموا بتهديدهم لمرة واحدة يرتعبون هكذا مثل مجموعة من الأرانب الخائفة -»

وقف أبى فجأة وجذب ستيسى إلى أعلى: «أنت يا ولد، لا تتصرف كأنك كبرت هكذا وتتكلم عن أشياء لا تعرف عنها الكثير. إن هؤلاء الرجال يقومون بما يجب عليهم القيام به. هل لديك أدنى فكرة عن المخاطرة التى تكبدوها عندما قاموا بالتسوق فى فيكسبرج فى المقام الأول؟ إذا قاموا بأخذهم إلى الأشغال الشاقة فلن يبقى شىء لأسرهم. سيتم طردهم من الأرض ولن يكون لديهم مكان ليأووا إليه. أتفهم ذلك؟».

قال ستيسى: «نـ-نعم يا سيدى». أطلق أبى سراحه وحدق مكتئبًا فى الظلمة. «لقد ولدت مباركًا يا فتى، بأرض ملكك. إذا لم تكن كذلك كنت ستبكى من أجلها فى حين تحاول البقاء ... مثل السيد لاينر والسيد أفرى. ولربما كنت سوف تنتهج سلوكهم أيضًا الآن. إنه من الصعب على الرجل الاستسلام، لكن أحيانًا يبدو أنه ليس بإمكانه القيام بأى شىء غير ذلك».

تمتم ستيسى: «أنا ... أنا آسف يا أبى».

بعد لحظة. مد أبى ذراعه، أراحه حول كتف ستيسى.

قلت: أنا واقفة لأنضم لهم «أبى، هل سنستسلم نحن أيضًا؟».

نظر أبى إلىَّ وضمنى بالقرب منه، ثم أشار بيده نحو المدخل. «أترين شجرة التين هنالك يا كيسى. وهذه الأشجار الموجودة حولها ... شجرة السنديان

وشجرة الجوز، إنهما أكبر منها بكثير ويشغلان مساحة أكبر منها ويورفان ظلالاً تكاد تغطى على ظلال شجرة التين الصغيرة تلك. لكن لشجرة التين جذور تمتد بعمق، وتنتمى إلى هذا الفناء مثل شجرتى السنديان والجوز. وتستمر فى التبرعم، وتثمر عن فاكهة جيدة عامًا وراء عام، وهى تعرف أنها لن تصل أبدًا إلى حجم الأشجار الأخرى. لكنها تستمر فى النمو والقيام بما عليها القيام به. ولا تستسلم. وإذا استسلمت فسوف تموت. هناك درس نتعلمه من هذه الشجرة الصغيرة يا فتاتى كيسى، لأننا مثلها. يجب أن نستمر فيما يجب علينا القيام به ولا نستسلم. لا نستطيع أن نستسلم.

بعد أن أوى السيد موريسون إلى بيته وذهبت الجدة الكبيرة وأنا والأولاد إلى الفراش، بقى أبى وأمى على الشرفة، يتكلمون بالهمس. كان مريحًا أن أستمع إليهم، كان صوت أمى دافئًا وجزلاً، وصوت أبى همهمة هادئة ومسترسلة. تركا الشرفة بعد عدة دقائق وتلاشت أصواتهم. نزلت من على السرير، حريصة على ألا أوقظ الجدة الكبيرة، وذهبت إلى النافذة. كانا يمشيان ببطء عبر العشب المكسو بنور القمر وذراعاهما ملتفتين بعضهما ببعض.

قال أبى، متوقفًا تحت شجرة السنديان بالقرب من المنزل «وأول ما أبدأ به غدًا الذهاب لأرى عدد الناس الذين لا يزالون منضمين إلى هذا الموضوع، أريد أن أعرف قبل القيام بتلك الرحلة إلى فيكسبرج».

كانت أمى صامتة لفترة قصيرة. «لا أعتقد أنه يجب عليك أنت والسيد موريسون الذهاب إلى فيكسبرج الآن، يا ديفيد. ليس فى وجود آل والاس وتهديداتهم للناس كما يفعلون. انتظر لفترة قصيرة».

مد أبى يده إلى الشجرة وكسر غصينًا. «لا يمكننا التوقف عن مراعاة هذا العمل بسبب آل والاس يا مارى. أنت تعرفين ذلك».

لم تُجب أمى.

مال أبى على الشجرة. «أعتقد أننى سأخذ ستيسى معى».

«الآن يا ديفيد، لا -».

«سيبلغ عامه الثالث عشر الشهر القادم يا عزيزتى، ويحتاج إلى أن يكون معى أكثر. لا أستطيع أن آخذه معى إلى السكة الحديد لكننى أستطيع أن آخذه معى إلى حيثما أذهب هنا. أريده أن يعرف الأمور ... وكيف يعتنى بها، كيف يعتنى بكل شيء عندما لا أكون موجودًا».

«لكن يا ديفيد إنه لايزال فتى».

«يا عزيزتى، عندما يصبح الفتى فى عمر ستيسى فى هذا المكان فإنه يقارب أن يكون رجلاً. يجب عليه أن يلم بالأمور التى يلم بها الرجال. يجب عليه أن يتعلم كيف يعتنى بنفسه».

«أعرف هذا، لكن -».

«يا مارى، إنى أريده أن يكون قويًا ... وليس مغفلاً مثل تى جيه».

ردت أمى بعنف: «إن لديه العقل والتعليم ليكون أفضل من هذا».

رد أبى بهدوء: «أعرف هذا، لكن الأمر لا يزال يقلقنى أن أرى تى جيه يتحول هكذا».

«يبدو لى أن الأمر يزعج جو أفرى كثيرًا. لكنه لا يبدو أنه يقوم باتخاذ أى موقف تجاه هذا الوضع».

سمح أبى للصمت أن ينسل بينهما قبل أن يقول، «إنه ليس من طبعك يا عزيزتى أن تكونى حاقدة».

قالت أمى وهى تضم ذراعيها إلى صدرها. «إننى لست حاقدة. الأمر فقط هو أن هذا الفتى قد خرج عن السيطرة،ولا يبدو أن هناك أى أحد يريد أن يحزم أمره».

«لقد أخبرنى جو يوم أمس أنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا بشأن تى جيه بعد الآن. إن هذا لأمر صعب أن يعترف به الرجل».

«لا يستطيع حتى الآن أن يوسعه ضربًا على عجيزته، أليس كذلك؟». كان من الواضح أن أمى غير متعاطفة مع مشكلة السيد أفرى.

«لقد قال إنه منهك، لكن صحته أصبحت ضعيفة، وانتهى بنوبة سعال شديدة أقعدته الفراش. وقال بعد ذلك: إن فانى حاولت أن تضرب الفتى بالسوط لكن تى جيه أقوى منها، ولم تجد نفعًا». صمت أبى للحظة قصيرة، ثم أضاف، «لقد أصبح وقحًا جدًا أيضًا، كما فهمت».

تذمرت أمى: «سواء كان وقحًا أم لا، فمن الأفضل لهم أن يجدوا طريقة ليعيدوا هذا الفتى إلى الطريق القويم لأنه بهذا الأسلوب سيواجه مشاكل أكبر بكثير».

تنهد أبى بقوة ثم ترك الشجرة. «من الأفضل لنا الذهاب إلى الداخل. على أن أستقيظ باكرًا جدًا إذا كنت سأقوم بزيارة الجميع».

«هل تزال مصرًا على الذهاب إلى فيكسبرج؟».

«لقد قلت لك إننى كذلك».

ضحكت أمى خفيفة بسخط: «أحيانًا يا ديفيد لوجان أتعجب لأمرى، لماذا لم أتزوج من رونالد كارتر الفاتن الهادئ أو هارولد ديفيس الدمث اللطيف».

قال أبى واضعًا ذراعه حولها «آه يا امرأة، لقد نظرت إلى الكبير والوسيم نظرة واحدة ولم يستطع أحد آخر القيام بذلك». ثم ضحك كلاهما، وتحركا معًا ببطء إلى جانب المنزل.

لا تزال هناك سبع عائلات بما فيها عائلتنا ترفض التسوق فى متجر والاس حتى بعد التهديد بالأشغال الشاقة. قالت أمى إن الرقم لم يكن ذا دلالة كافية لإيذاء آل والاس، لكنه كاف لإغاظتهم، وكانت خائفة بشأن قيام أبى والسيد موريسون وستيسى بتلك الرحلة. لكن لم يكن هناك شىء تستطيع قوله لتغيير رأى أبى، وغادروا كما هو مدبر صباح يوم الأربعاء قبل الفجر بكثير.

وفى يوم الخميس، عندما كان مقدرًا لهم العودة، بدأت تمطر بغزارة مطر الصيف الغزير الذى يصاحبه ظلام أخضر اضطررنا إلى ترك عزق حقل القطن والعودة إلى المنزل. فى حين قعقع صوت الرعد فوق رءوسنا، أمعنت أمى النظر من النافذة إلى الطريق المظلم. قالت لنفسها أكثر من سؤال أى شخص آخر: «إنى لأعجب ما الذى يؤخرهم».

قالت الجدة الكبيرة: «من المحتمل أنهم علقوا بمكان ما. من الممكن أن يكونوا توقفوا ليتفادوا تلك العاصفة».

التفتت أمى من النافذة. «من الأرجح أنك على حق» وافقت أمى الجدة الكبيرة، ملتقطة سروال كريستوفر جون لتصلحه.

حين حل المساء بظلامه التام، طال صمتنا، أنا والأولاد قلما قلنا شيئًا، أمى والجدة الكبيرة تركزان على حياكتهما، مقطبتى الحواجب. شد حلقى، وبدون أن أعرف سبب خوفى، كنت خائفة.

قلت: «ماما إنهم بخير أليس كذلك؟».

حدقت أمى بى «بالطبع هم بخير. لقد تأخروا فقط، هذا كل ما فى الأمر».

«لكن يا أمى، ألا تفترضين أن أحدًا قام -».

قالت أمى بحدة دون أن تترك لى فرصة لأكمل كلامى «أظن أنه من الأفضل لكم يا أطفال أن تخلدوا إلى النوم».

اعترض ليتل مان «لكننى أريد أن أبقى منتظرًا أبى».

قال كريستوفر جون ناعسًا «أنا أيضًا».

«سوف ترونه فى الصباح. الآن اذهبوا إلى فراشكم!».

فى حين لم يكن لدينا شىء نفعله غير أن نطيعها، ذهبنا إلى الفراش. لكننى لم أستطع النوم. كان هناك خوف مصحوب ببرد تسلل إلى جسدى، مخضًا بطنى ومحكمًا قبضته على حلقى. أخيرًا، عندما شعرت بأننى سوف يصيبنى الغثيان من الخوف، نهضت وأسرعت إلى غرفة أبى وأمى.

كانت أمى واقفة وظهرها إلى، وذراعاها مطويتان، وكانت الجدة الكبيرة لا تزال ترتق الملابس. ولم تسمع واحدة منهما الباب وهو يفتح. كنت على وشك أن أبدأ بالكلام، لكننى سمعت أمى تتحدث فقررت عدم مقاطعتها.... قالت: «إن الشك يراودنى لدرجة أننى أريد أن أمتطى صهوة الفرس ليدى وأخرج بحثا عنهم».

تساءلت الجدة الكبيرة: «الآن يا مارى، على رسلك، ما الفائدة من تصرفك هذا؟ هل من المنطقى أن تخرجى إلى هناك بهذا الفرس وحدك فى هذا الظلام وهذه الأمطار؟».

«لكن هناك خطبًا حدث لهم! إننى أشعر بذلك».

تهكمت الجدة الكبيرة بغير إقناع: «إنه فى رأسك فقط يا صغيرتى إن هؤلاء الرجال بأفضل حال».

قالت أمى وهى تهز رأسها: «لا ... لا إن آل والاس ليسوا فقط فى عقلى، إنهم -» توقفت فجأة ووقفت دون حراك.

«ماری -».

«أعتقد أننی سمعت شیئًا» بدأت الکلاب النباح والتفتت تکاد ترکض عبر الغرفة.

قامت بدفع القفل فی تعجل طائش، وفتحت الباب وصرخت وسط العاصفة: «دیفید! دیفید!».

غیر قادرة علی التزام مکانی، انطلقت عبر الغرفة، سألت الجدة الکبیرة وهی تضربنی بعنف عندما مررت من أمامها: «کیسی، ما الذی تفعلینه فی هذا الوقت ولم أنتِ مستیقظة یا فتاة؟». لکن أمی، محدقة بالظلام المبلل، لم تقل شیئًا عندما وصلت إلیها.

سألت «أهؤلاء هم؟».

ظهر ضوء دائری من الظلام وتحرك ببطء عبر المدخل، وانتقل صوت السید موریسون بلطف نحونا. «هیا تقدم یا ستیسی» قال له «لقد أمسکت به». ثم ظهر ستیسی إلی مرآنا ممسکًا بمصباح یدوی ووراءه السید موریسون یحمل أبی.

«دیفید!». لهثت أمی بصوت خوف هامس.

قامت الجدة الکبیرة الواقفة خلفی بالرجوع خطوة إلی الوراء، تسحبنی معها. جردت السریر من الملاءات وأمرت «ضعه هنا تمامًا یا سید موریسون».

فی حین صعد السید موریسون الدرج، کان من الواضح لنا أن ساق أبی الیسری کانت ممدودة إلی الخارج، مجمدة ببندقیة الصید الخاصة به والتی تم ربطها إلی ساقه بحبل. کان رأسه ملفوفًا بقطعة من القماش حیث کان ینسل منها لون الدماء الداکنة. أدخل السید موریسون أبی من الباب بلطف حریصًا علی أن لا تصطدم الساق المربوطة، وأراحه بلطف علی السریر. اتجهت أمی مباشرة إلی السریر وأخذت بید أبی.

قال أبی بصوت ضعیف: «أهلا یا عزیزتی .. إننی ... بخیر. لقد کسرت ساقی، هذا کل ما فی الأمر ..».

«تدحرجت العجلة عليها» قال السيد موريسون متجنبًا عين أمى «من الأفضل أن نقوم بتثبيت هذه القدم. لم يكن لدينا الوقت الكافى لذلك على الطريق».

قالت أمى وعيناها تسائل السيد موريسون «لكن رأسه -». لكن السيد موريسون لم يقل شيئًا أكثر من ذلك والتفتت أمى إلى ستيسى. «هل أنت بخير يا بنى؟».

قال ستيسى ووجهه شاحب اللون بطريقة غريبة، وعيناه على أبى «نعم يا سيدتى».

«إذن تخلص من هذه الملابس المبتلة. لا أريدك أن تلتقط الالتهاب الرئوى. كيسى، اذهبى إلى الفراش».

قالت الجدة الكبيرة وهى تدخل إلى المطبخ: «سأوقد نارًا» فى حين التفتت أمى إلى الخزانة لتحضر الملاءات لتصنع بها ضمادة من الجبس. لكننى بقيت أنا وستيسى راسخين، نشاهد أبى، ولم نتحرك حتى دخل كريستوفر جون وليتل مان ناعسين إلى الغرفة.

سأل ليتل مان، مقطبًا حاجبيه فى الضوء «ما الذى يحدث؟».

قالت أمى وهى تهرع لتجنبهم الدخول إلى الغرفة أكثر من هذا «عودوا إلى الفراش يا أطفال»، لكن قبل أن تصل إليهم لمح كريستوفر جون أبى على السرير وجرى من جانبها. «أبى، لقد عدت!».

التقطه السيد موريسون إلى الأعلى قبل أن يقوم بهز السرير.

سأل كريستوفر جون، وهو متيقظ تمامًا الآن. «ما- ما الأمر؟ يا أبى، ما الأمر؟ لم هذا الشىء الذى على رأسك؟».

قالت أمى: «إن أباكم نائم» ووضع السيد موريسون كريستوفر جون على الأرض مرة أخرى. «ستيسى، أعدهم إلى الفراش ... وتخلص من هذه الملابس».

لم يتحرك أحد منا. «تحركوا عندما أطلب منكم هذا!». استهجنت أمى بنفاد صبر، ووجهها قلق أكثر مما هو غاضب.

قادنا ستيسى إلى حجرة الأولاد.

حينما انغلق الباب وراءنا، سألت، «ستيسى، كيف تعرض أبى للأذى؟». تحسس ستيسى فى الغرفة باحثًا عن المصباح، قام بإشعاله، ثم تساقط منهكًا على جانب السرير. احتشدنا حوله. «حسنًا؟».

هز ستيسى رأسه. «لا أعرف. لقد سقطت قدمه تحت العربة ... وقد أطلق عليه النار».

صاح كريستوفر جون وليتل مان فى خوف «أطلق عليه النار!»، لكننى كنت صامتة، خائفة من التحدث على ما أظن.

«السيد موريسون يقول إنه لا يعتقد أن الرصاصة آذته كثيرًا. قال إنه يعتقد أنها استقرت بسطح جلده فقط ... هنا». مرر ستيسى سبابته على صدغه الأيمن. «ولم تدخل إلى أى مكان».

ليتل مان ثائرًا: «لكن من أطلق النار على أبى؟ لا يستطيع أى أحد أن يطلق النار على أبى هكذا!».

وقف ستيسى وأشار إلى كريستوفر جون وليتل مان تحت الأغطية. «لقد تفوهت بالكثير على أية حال. كيسى، اذهبى إلى فراشك».

بقيت جالسة، وعقلى غير قادر على الحركة.

«كيسى، اذهبى الآن كما قالت لك أمى».

«كيف تدحرجت العربة فوقه؟ كيف تعرض لإطلاق النار؟». انطلق لسانى فجأة بغضب، وقد كنت بالفعل أدبر مكيدة للثأر من تجرأ على إيذاء أبى.

«كيسى ... اذهبى إلى الفراش!».

«إننى لن أتحرك قبل أن تقوم بإخبارى!».

قام بتهديدى «سوف أنادى أمى».

قلت: «إنها مشغولة»، وطويت ذراعى وأنا أشعر بالثقة أنه سوف يسرد القصة.

ذهب إلى الباب وقام بفتحه. راقبناه أنا وكريستوفر جون وليتل مان بشغف. لكنه سرعان ما أغلق الباب ورجع إلى السرير.

سأل ليتل مان: «ما الذى كانوا يفعلونه؟».

«إن الجدة الكبيرة تعتنى برأس أبى».

تنهد ستيسى يائسًا وجلس. «لقد كنا عائدين من فيكسبرج عندما تحررت العجلتان الخلفيتان»، قال وصوته مثل الهمس الأجوف. «كان الظلام قد حل سابقًا وكان المطر يتساقط أيضًا، وأبى والسيد موريسون اعتقدا أن شخصًا ما قام بالعبث بهذه العجلات لأن كلتيهما انفكتا فى وقت واحد. ثم عندما أخبرتهما أننى رأيت ولدين بالقرب من العربة عندما كنا فى فيكسبرج، قال أبى إننا ليس لدينا الوقت لفك البغل من العربة وتفريغها كما يجب علينا أن نعيد العجل إلى مكانه. هل تعتقد أن شخصًا ما يتبعنا.

«لذا بعد أن وجدنا العجل والبراغى، أمرنى أبى أن أمسك باللجام بشدة على جاك كى يثبت بمكانه ... ولكن جاك كان خائفًا جدًّا بسبب العاصفة. ثم ذهب السيد موريسون ورفع العربة بنفسه تمامًا. وكانت ثقيلة جدًّا، لكن السيد موريسون قام برفعها كأنها لم تكن شيئًا. ثم ركب أبى العجلة الأولى ... هذا عندما تعرض لإطلاق النار -».

«لكن من -» بدأت بالحديث.

«جاءت شاحنة على الطريق ووقفت وراءنا فى حين كنا نحاول تثبيت تلك العجلة، لكن لم يستطع أى منا سماعها بسبب المطر والرعد وكل شىء، ولم يقوموا بإضاءة أنوارهم إلا عندما توقفت الشاحنة.

على أية حال، كان هناك ثلاثة رجال بالشاحنة ما إن رآهم أبى، حاول الوصول إلى بندقيته. فى هذا الحين قاموا هم بإطلاق النار عليه فوقع على ظهره وانزلقت ساقه اليمنى تحت العربة ... ثم تراجع جاك إلى الوراء، خائفًا من صوت إطلاق النار، وأنا- أنا لم أتمكن من الإمساك به ... و... وتدحرجت العربة فوق ساق أبى». بح صوته بحدة، وانفجر بذنب، «إنه ذ- ذنبى أنا إن ساقه أصيبت!».

فكرت فيما قاله وقلت له وأنا أضع يدى على كتفه: «لا، ليس ذنبك. إنه ذنب الرجال».

لم يتحدث ستيسى لفترة قصيرة ولم أحثه على استكمال الحديث. أخيرًا رفع صوته وواصل بصوت مبحوح. «حينما استطعت قمت ... قمت بربط جاك إلى شجرة وركضت عائدًا إلى أبى، لكن أبى قال لى ألا أحركه وأن أنزل إلى الجدول. بعد أن قام هؤلاء الرجال بإطلاق النار على أبى، حاولوا النيل من السيد موريسون، لكنه كان أسرع وأقوى بكثير من أن يستطيعوا النيل منه. لم أستطع أن أرى كل ما يحدث لأنهم لم يبقوا طيلة الوقت أمام مصباح السيارة الأمامى، لكننى رأيت السيد موريسون يقوم برفع أحد هؤلاء الرجال كما لو لم يكن شيئًا أكثر من كيس ريش دجاج وقام بطرحه أرضًا بشدة، بالتأكيد تسببت فى كسر ظهره. لم أر شيئًا كهذا طيلة حياتى. كان مع أحد الرجلين الآخرين مسدس وقام بإطلاق النار على السيد موريسون، لكنه لم يصب. وابتعد عن ضوء المصباح واختفى فى الظلام، وقام الرجال بملاحقته.

قال وهو ينظر تجاه الباب حيث يرقد أبى: «لم أستطع أن أرى شيئًا بعد ذلك.. سمعت العظام وهى تتكسر. وسمعت أحدا يسب ويبكى. ولم أستطع بعدها أن أسمع شيئًا إلا المطر، وكنت خائفًا جدًا. خفت من أن يكونوا قد قتلوا السيد موريسون».

ذكَّره ليتل مان بعينين تشعان إثارة: «لكنهم لم يستطيعوا».

أَومأَ ستيسى: «الشىء التالى الذى رأيته هو رجل قادم ببطء تجاه المصباح الأمامى للشاحنة رفع الرجل الملقى بمنتصف الطريق - الرجل الذى قام السيد موريسون بطرحه أرضًا - أدخله إلى الشاحنة، ثم رجع وساعد الآخر. ذاك الرجل كان يبدو كأن ذراعه مكسورة. كانت تتدلى بشكل واهن إلى جانبه. ثم قاموا بتشغيل الشاحنة وعادوا أدراجهم».

استعلم ليتل مان: «ثم ماذا؟».

هز ستيسى كتفيه: «لا شىء، قمنا بتركيب العجلة الأخرى وعدنا إلى المنزل».

قلت بنبرات مهتاجة، ممسكة بأنفاسى: «من كانوا هؤلاء؟».

نظر إلى ستيسى وقال ببرود: «آل والاس، على ما أعتقد».

كانت هناك لحظة صمت مرعب، ثم سأل كريستوفر جون والدموع تملأ عينيه الداكنتين، «ستيسى، هل ... هل سيموت أبى؟».

«لا! بالطبع لن يموت!» أنكر ستيسى بسرعة.

«لكنه كان راقدًا تمامًا -»

بدأ ليتل مان فى النحيب «إننى لا أريد أن يموت أبى!».

«لقد كان نائمًا - مثلما قالت أمى. هذا كل ما فى الأمر».

صاح كريستوفر جون والدموع تنهمر على وجنتيه الممتلئتين «حسنًا، متى سوف يستيقظ؟».

قال ستيسى وهو يحاول مواساة كريستوفر جون وليتل مان بوضعه ذراعيه حولهما «فى- فى الصباح».

«انتظروا وسوف ترون. سيكون بخير حال فى الصباح».

ستيسى، الذى كان لا يزال بملابسه المبتلة الملطخة بالوحل، لم يقل كلمة أخرى، ولا أىٌّ منا كذلك. لقد أجيب على كل الأسئلة، ولكننا كنا خائفين، وجلسنا نسمع صوت المطر فى صمت لطيف الآن على السطح، ونراقب الباب الذى يرقد أبى وراءه، ونتمنى بزوغ الصباح.

10

«كيف يبدو؟». سأل أبى حين كنت أمر بغرفة المعيشة فى طريقى إلى الخارج من الباب الجانبى. لقد مر أكثر من أسبوع منذ إصابته، وكان هذا أول صباح له يستيقظ به. كان يجلس بالقرب من الموقد غير المشتعل، وكانت رأسه لا تزال مربوطة، وساقه المكسورة مسندة على مقعد خشبى. كانت عيناه على أمى الجالسة على مكتبها.

وضعت أمى قلمها وعبست بدفتر الحسابات المفتوح أمامها. رمقتنى وهى شاردة وانتظرت حتى أغلقت الباب المصنوع من السلك ورائى، ثم قالت «ديفيد، هل تعتقد أنه علينا أن نخوض فى هذا الآن؟ إنك لا تزال متوعكا -».

«إننى بخير حال يكفى لأعرف كم بقى لنا. أخبرينى الآن».

قفزت على الدرج وجلست على الدرجة الأخيرة.

كانت أمى صامتة للحظة قبل أن تجيبه. «بالجزء الخاص بهامر من مال الرهن العقارى، فإن لدينا المال الكافى لسداد دفعة يونيو المالية .... ».

«ولا شىء آخر؟».

«دولاران آخران، لكن هذا كل شىء».

كان كلاهما صامتًا.

سألت أمى: «هل تعتقد أنه علينا مكاتبة هامر لنقترض منه بعض المال؟».

لم يجبها أبى على الفور. قال أخيرًا «لا .. إننى مازلت لا أريده أن يعلم بما حدث. إذا عرف أننى لم أعد أعمل بالسكة الحديد، فسيريد أن يعرف سبب ذلك. وأنا لا أريد أن أجازف بطبعه الحاد عندما يعلم بما فعله آل والاس».

تنهدت أمى: «أظن أنك على صواب».

قال أبى «أعلم أننى كذلك، إن الأمور كما هى، إذا أتى إلى هنا ثائرًا غاضبًا، فسيؤدى بنفسه إلى الشنق. مادامت الأمور لم تنزلق إلى مسار سيئ، فأعتقد أننا سوف نستطيع اجتيازها بدونه. سوف نفى بدفعة يونيو القادمة بهذا المال الذى لدينا هنا». صمت لفترة قصيرة. «سنحتاج إلى أن نلجأ لبيع بقرتين وعجولهما حتى نستطيع أن نفى بقسطى يوليو وأغسطس ... وقد نبيع كذلك الخنزيرة الكبيرة. لكن بنهاية أغسطس سوف يكون لدينا ما يكفى من القطن لنسدد قسط سبتمبر ... بالطبع قد نلجأ إلى أن نقطع الطريق كله إلى فيكسبرج حتى يتم حَلْجُه. لن نستطيع بالطبع استخدام مِحْلَج القطن الخاص بجرينجر هذا العام».

كان هناك صمت مرة أخرى، ثم قالت أمى، «ديفيد، لقد كانت أمى تتحدث عن الذهاب إلى السوق فى ستروبيرى الـ -».

قال أبى دون أن يسمح لها باستكمال كلامها. «لا، يوجد الكثير من المشاعر السيئة هناك».

ـ «لقد قلت لها ذلك».

ـ «سوف أتحدث إليها ... هل سنحتاج إلى أى شىء قبل أن نحصد محصول القطن الأول؟».

ـ «حسنًا ... لقد أحضرت معك البطاريات والكيروسين فى رحلتك الأخيرة هذه ... لكن الذى سوف نحتاج إليه أكثر من أى شىء آخر هو بعض المبيد الحشرى لنقوم برش القطن. إن الحشرات بدأت تنتشر بشكل سيئ ..».

ـ «ماذا عن الطعام؟».

ـ «الدقيق والسكر والبيكنج باودر يكاد ينفد منا، لكننا سوف نستطيع العيش بها - إنه ليس ضروريًا أن يكون لدينا بسكويت وخبز الدقيق كل يوم. لقد نفد منا الفلفل وليس لدينا الكثير من الملح، لكن ليس من الضرورى أن نحصل عليها أيضًا. وقد نفدت القهوة تمامًا ... إن الحديقة بدأت تثمر بشكل جيد بالرغم من ذلك. فلا داعى للقلق».

«لا داعى للقلق» تمتم أبى فى حين طال صمت كليهما. ثم كان هناك انفجار مفاجئ كما لو أن شيئًا قد صعق بقوة عاتية. «لو لم تكن هذه القدم مكسورة!».

حذرته أمى بلطف. «لا تدع ستيسى يسمعك تقول شيئًا يا ديفيد أنت تعرف أنه يلوم نفسه بسبب قدمك».

«لقد قلت للفتى إنه ليس ذنبه. إنه لم يكن بالقوة الكافية للإمساك بجاك».

«إننى أعرف ذلك، لكنه لا يزال يلوم نفسه».

ضحك أبى بطريقة غريبة: «أليس هذا شيئًا؟ يحاول آل والاس التصويب إلى رأسى فتنكسر قدمى، ويلوم ابنى نفسه لذلك. حسنًا، أشعر بأننى أريد أن آخذ السوط معى وأذهب إلى ثلاثتهم من آل والاس وأقوم بضربهم، ولا أتوقف حتى لا أستطيع أن أرفع ذراعى بالضرب من شدة التعب».

«إنك تتحدث مثل هامر».

«حقًا؟ حسنًا، فى كثير من الأحيان أشعر وكأننى أريد أن أعالج الأمور بأسلوب هامر. أعتقد أنه سيغمرنى شعور كبير بالرضا إذا قمت بضرب كالب والاس وإخوته بالسوط».

«إن أسلوب هامر سيؤدى إلى قتلك وأنت تعرف هذا، لذا توقف عن التحدث بهذه الطريقة. أليس لدينا ما يكفى لنقلق بشأنه؟ إلى جانب ذلك فإن كلاً من ديوبيرى وثيرستون والاس لا يزال طريح الفراش حتى الآن، كما سمعت. يقول بعض الأشخاص إن ظهر ديوبيرى قد كسر. على أية حال فإن السيد موريسون قد أصابهم إصابات بالغة».

«أين هو على أية حال؟ إننى لم أره هذا الصباح».

كان هناك لحظة من الصمت قبل أن تجيبه أمى. «لقد خرج باحثًا عن عمل مرة أخرى منذ الفجر».

«لن يجد أى عمل هنا. لقد أخبرته بذلك».

وافقت أمى «أعرف هذا لكنه قال إنه سوف يحاول. ديفيد ..». توقفت أمى، وعندما تحدثت مرة أخرى كان قد وهن صوتها، كما لو كانت مترددة فى أن تقول ما يدور بعقلها. «ديفيد، ألا تعتقد أنه من الأحرى له أن يذهب؟ إننى لا أريده أن يغادر، لكن بعد ما فعله بآل والاس، إننى أخاف عليه».

«إنه يعرف ما قد يحدث يا ماري، لكنه يريد البقاء - وبصراحة، إننا في حاجة له هنا. لذا فلا تزعجيه بهذا الشأن».

«لكن، يا ديفيد، إذا -».

قبل أن تكمل أمي كلامها، لمحت السيد موريسون قادمًا من الغرب من ناحية سميلينجز كريك. تركت الدرج وهرعت لمقابلته.

هتفت حين جرَّ جاك العربة إلى المدخل: «أهلا بك يا سيد موريسون!».

رحب بي السيد موريسون: «أهلا يا كيسي»، وسألني: «هل أبوك مستيقظ؟».

«نعم يا سيدي. إنه جالس خارج السرير هذا الصباح».

«ألم أقل لك إنه لا يوجد شيء يستطيع أن يثبط من عزمه؟».

«نعم يا سيدي، لقد قلت ذلك».

ترجل من فوق العربة ومشى متجهًا إلى المنزل.

«يا سيد موريسون، هل تريدني أن أفك جاك من العربة من أجلك؟».

«لا يا كيسي، اتركيه كما هو. سوف أتحدث إلى أبيك ثم أعود» قلت وأنا أربت على البغل: «أهلاً يا جاك العزيز»، حينما راقبت السيد موريسون وهو يدخل إلى البيت من الباب الجانبي فكرت في أن أعود إلى جلستي على الدرج، لكنني قررت ألا أفعل ذلك. بدلا من ذلك، بقيت مع جاك، أحاول استيعاب كل ما سمعته، حتى خرج السيد موريسون من المنزل. ذهب إلى الحظيرة، ثم ظهر بآلة الزراعة، وهي أداة شبيهة بالمحراث بها وعاء صغير مستدير لبذر البذور متصلة بمنتصفه. وضع آلة الزراعة بمؤخرة العربة.

ـ «إلى أين أنت ذاهبِ الآن يا سيد موريسون؟».

ـ «إلى منزل السيد ويجينز هناك. لقد رأيت السيد ويجينز هذا الصباح وطلب منى أن يستخدم آلة الزراعة الخاصة بأبيك. وليس لديه عربة؛ لذا عرضت عليه أن أطلبها من أبيك إذا كان يستطيع استعمالها، سأخذها إليه».

ـ «أليس الوقت متأخرًا للبذر؟».

ـ «حسنًا، ليس لما يدور برأسه. لقد فكر فى أن يزرع لنفسه بعض الذرة الصيفية. سيحين وقت حصادها فى سبتمبر».

سألته حين قام بركوب العربة: «هل أستطيع الذهاب معك يا سيد موريسون؟».

«حسنًا، سأكون مسرورًا بصحبتك يا كيسى. لكن عليك أن تسألى أمك أولاً».

ركضت نحو المنزل. كان الأولاد الآن بغرفة أبى وأمى، وعندما طلبت الذهاب إلى ليتل ويلى مع السيد موريسون، كان ليتل مان وكريستوفر جون بالطبع يريدون الذهاب أيضًا.

ـ «لقد قال السيد موريسون إنه لا بأس بذهابنا يا أمى».

ـ «حسنًا، لا تعترضوا طريقه. ستيسى، أستذهب معهم؟».

كان ستيسى يجلس أمام أبى وينظر باكتئاب إلى الساق المكسورة. قال أبى برفق: «اذهب يا بنى».

«لا يوجد شىء لتفعله هنا. سيتيح هذا فرصة لك للتحدث إلى ليتل ويلى».

ـ «أمتاكد أنه لا يوجد شىء لأفعله من أجلك يا أبى؟».

ـ «اذهب فقط واستمتع بنزهتك إلى منزل ليتل ويلى».

حيث إنها كانت فكرتى بطلب الذهاب، فإننى طالبت بالمقعد المجاور للسيد موريسون، وركب الأولاد بالخلف. كانت عائلة ليتل ويلى تعيش على أربعين فدانًا ملكًا لهم على بعد حوالى ميلين من جريت فيث. كان صباحًا جميلاً من أجل

التنزه ومضت الأميال الستة بسرعة مع السيد موريسون وهو يغنى بأعمق درجات من صوته العميق وكنا نشاركه أنا وكريستوفر جون وليتل مان الغناء كلما استطعنا، فى حين عبرنا حقول القطن المتفتحة بأزهار حمراء وبيضاء ووردية. ولأن ستيسى كان فى أحد طباعه المكتئبة، فإنه لم يشاركنا الغناء، وتركناه لحاله.

لقد بقينا لأقل من ساعة عند مزرعة آل ويجينز، ثم توجهنا إلى المنزل مرة أخرى. كنا قد عبرنا لتونا كنيسة جريت فيث وكنا مقتربين من طريق مدرسة جيفرسون ديفيس عندما ظهرت أمامنا شاحنة بالية. قال السيد موريسون بمنتهى الهدوء، «كيسى، اذهبى إلى الخلف».

«لكن لماذا يا سيد موريسون -».

«اذهبى بسرعة كما قلت لك يا كيسى» كان صوته يتعدى بصعوبة الهمس الودود، لكنه كان به إلحاح، أطعته وزحفت على المقعد لأنضم إلى الأولاد. «ابقوا جميعًا منخفضين الآن».

شدت الشاحنة مكابحها بضجة كبيرة بصرير عال صادر عن الصلب. توقفنا. استرقنا النظر أنا والأولاد من حافة العربة. كانت الشاحنة قد انحرفت على الطريق، قاطعة علينا الطريق. انفتح باب الشاحنة وترجل منها كالب والاس، مشيرًا بأصبع اتهام طويل إلى السيد موريسون.

ترنح دون كلام لفترة طويلة وبشعة، ثم تكلم ناثرًا لعابه، «أنت أيها الزنجى الكبير الأسود، يجب على أن أقوم بشق قلبك لما فعلته! إن إخوتى راقدون كما هم هكذا وها أنت تمشى حرًا كأنك رجل أبيض. إن هذا الإثم بعينه، أنت لست على حق! أعتقد أنه يجب على أن أطلق عليك النار حيث أنت الآن -».

«هل ستقوم بتحريك العربة؟».

حدق كالب والاس بالسيد موريسون، ثم بالشاحنة كأنه يحاول فهم الصلة بين الاثنين. «أهذه الشاحنة تقف بطريقك يا فتى؟».

ـ «هل ستقوم بتحريكها؟».

ـ «سأقوم بتحريكها بالفعل ... عندما أكون مستعدًا لذلك -» توقف فجأة، وعيناه تجحظان وهو يحدق برعب فى السيد موريسون حينما ترجل عن العربة. سقط خيال السيد موريسون الطويل عليه وللحظة تلاشت منها الأنفاس، أحس السيد موريسون بالقرب منه بخطر. فى حين نضح الرعب شحوبا على وجه كالب والاس، توجه السيد موريسون دون كلمة إلى الشاحنة وأنعم النظر بها.

همست «ما الذى يبحث عنه؟».

رد ستيسى «من المحتمل أنه يبحث عن البندقية».

طوق السيد موريسون الشاحنة، وتفحصها عن قرب. ثم عاد إلى مقدمتها وثنى ركبتيه وظهره مستند إلى الهيكل، ثبت يديه الكبيرتين تحت ممتص الصدمات. وببطء، الْتَوَت عضلاته بشدة على قميصه الرقيق وتناثر العرق على جسده مثل الزيت على المياه، ورفع الشاحنة بحركة واحدة سلسة وقوية حتى ارتفعت المقدمة عن الأرض بعدة بوصات ثم تحرك ببطء إلى يسار الطريق، حيث وضعها برفق كأنما يضع طفلاً صغيرًا نائمًا. ثم تحرك إلى خلف الشاحنة وكرر العمل.

أصيب كالب والاس بالخرس. حدقت أنا وكريستوفر جون وليتل مان بأفواه مفتوحة، وحتى ستيسى، الذى شهد قوة السيد موريسون الاستثنائية من قبل، حدق باندهاش.

تطلب الأمر عدة دقائق حتى يسترجع كالب والاس صوته. كنا قد ابتعدنا بالطريق، تقريبًا بعيدًا عن مرمى السمع، عندما وصلتنا صرخة الكره الشديدة

الاهتياج. «إحدى هذه الليالى، فقط راقب أيها الزنجى! سوف آتى إليك لأثأر مما فعلته! فقط راقب! فى ليلة قريبة جدًّا ..».

عندما وصلنا إلى البيت وأخبرنا أبى وأمى والجدة الكبيرة بما حدث، قالت أمى للسيد موريسون، «لقد قلت لك من قبل إننى أخاف عليك. واليوم كان يستطيع كالب والاس إيذاءك ... والأطفال».

نظر السيد موريسون إلى عينى أمى بصراحة. «يا سيدة لوجان، إن كالب والاس من هؤلاء الناس الذين لا يقدرون على فعل شىء بنفسه. يجب أن يكون معه الكثير من الناس الآخرين لمساندته بالإضافة إلى بندقية محشوة ... وقد علمت أنه لم يكن معه بندقية، على الأقل بالشاحنة. لقد تحققت من ذلك».

ـ «لكن إذا بقيت، فسيقوم بإحضار أحد وسيأخذونك، كما قال لك -»

ـ «يا سيدة لوجان، لا تطلبى منى الرحيل».

مدت أمى يدها النحيلة على يد السيد موريسون. «يا سيد موريسون، لقد بت جزءًا منا الآن. ولا أريد أن يمسك الأذى بسببنا».

خفض السيد موريسون نظره وظل ينظر حول الغرفة حتى استقر نظره علىَّ أنا والأولاد. «لم أحظ أبدًا بأولاد من صلبى. وأحيانًا أفكر إذا كان لى أولاد، فإننى أريد أن يكون لى صبى وفتاة مثلك أنت والسيد لوجن ... وأحفاد مثل أطفالكم هؤلاء..».

«لكن يا سيد موريسون، إن آل والاس -»

قال أبى بهدوء: «مارى، اتركى الأمر».

نظرت أمى إلى أبى، وشفتاها لاتزالان على أهبة الكلام. ثم لم تتفوه بالمزيد؛ لكن علامات القلق كانت لا تزال مرتسمة على جبينها.

بزغ شهر أغسطس بحره وزرقته. انقض الحر قريبًا من الأرض متعلقًا كأنه غطاء غير مرئى، ومن خلاله تحرك الناس ببطء وتأنٍّ، كما لو أنهم يتحركون تحت الماء. فى الحقول اليانعة كان القطن والذرة المجففة تمتد منتظرة برودة الأمطار التى كانت تهدد بالهطول من حين لآخر لكنها لم تأتِ أبدًا، وأخذت الأرض مظهرًا كأنها دخلت الفرن واحمر وجهها.

وحتى نفر من الحر، عادة ما كنا نسير الهوينى أنا والأولاد نحو برودة الغابة بعد انتهائنا من فروضنا. وهناك حيث كانت ترعى الأبقار مع عجولها على مقربة منا، كنا نجلس عند ضفة البحيرة ساندين ظهورنا إلى شجر الجوز أو الصنوبر، وأقدامنا متدلية باسترخاء فى الماء البارد، وانتظرنا البطيخ القادم من الحقل أن يبرد. أحيانا كان ينضم إلينا جيريمى هناك، وهو يشق طريقه من خلال الغابة الكثيفة من مزرعته التى كانت على بعد ميل أو أكثر، لكن هذه اللقاءات لم يتم التدبير لها مطلقا؛ لم يكن ليعجب أى من آبائنا بهذا.

«كيف حال أبيك؟» سأل جيريمى فى أحد الأيام حين أتى ليجلس معنا.

قال ستيسى: «إنه بخير إلا أن قدمه تضايقه فى هذا الحر. وتحكه كثيرًا. لكن أمى تقول إنها من علامات الشفاء».

تمتم جيريمى «هذا جيد لسوء حظه إنه جرح عندما فرغ من راحته حتى يذهب إلى السكة الحديد».

تحرك ستيسى باضطراب ونظر إلىَّ أنا وكريستوفر جون وليتل مان، يذكرنا بعينيه أنه ليس مَسْمُوحًا لنا بالتحدث عن الجزء الخاص بآل والاس بالنسبة إلى إصابة أبى وقال فقط: «نعم».

كان جيريمى صامتًا لفترة قصيرة ثم قال بتلعثم: «إن بعض الأشخاص يقولون إنهم مسروروون لإصابته. مـ- مسروروون لأنه لا يستطيع كسب المال بالسكة الحديد».

صرخت وأنا أقفز واقفة من على الضفة. «من قال ذلك؟ قل لى فقط من قال ذلك وأنا سوف -»

أمرنى ستيسى: «كيسى! اجلسى وكونى هادئة». قمت بما طلبه منى على مضض، متمنية لو أن الأمر بين أبى وآل والاس لم يكن بهذا التعقيد. بدا لى أنه منذ هجوم آل والاس على أبى والسيد موريسون فإن أبسط شىء للقيام بعمله هو إخبار الشريف والزج بهم، لكن أمى قالت إن الأمور لا تسير بهذه الطريقة. وشرحت أنه مادام آل والاس لم يقوموا بتقديم شكوى رسمية بسبب خجلهم مما فعله بهم السيد موريسون، فإن علينا نحن أيضًا الحفاظ على صمتنا. وإن لم نقم بذلك، فقد يتهم السيد موريسون بالهجوم على رجال بيض ويتم الحكم عليه بالأشغال الشاقة، أو ما هو أسوأ من ذلك.

تلعثم جيريمى باعتذار «لست - لست أنا من قال ذلك يا كيسى».

قلت غاضبًا: «حسنًا، أيًّا كان من قال ذلك فليس من اللائق به هذا القول».

أَومَأَ جيريمى بتفكر وقام بتغيير الموضوع: «هل رأيتم تى جيه مؤخرًا؟».

قطب ستيسى حاجبيه معتبرًا ما إذا كان عليه الإجابة أم لا؟ كان هناك الكثير من الحديث بخصوص تى جيه والإخوة سيمز، وكله سيئ. قال والد مو تيرنر لأبى: إن تى جيه مر عليهم مع الأخوين سيمز مرة، وبعد أن غادروا اكتشفوا أن ساعته قد اختفت؛ وكان لآل لاينر نفس التجربة مع قلادة. قال السيد لاينر،

«لقد تغير تى جيه إلى الأسوأ كثيرًا.. ولا أريد أن يكون لى علاقة بلص ... خاصة لصًا يصاحب أولادًا بيضًا ويرافقهم فى كل مكان».

قال ستيسى أخيرًا «إننى لا أراه كثيرًا هذه الأيام».

ضغط جيريمى على شفتيه: «إننى أراه طيلة الوقت».

قلت له متعاطفة: «إنه لأمر مؤسف».

نظر إلىَّ ستيسى نظرة عتاب ثم رقد على بطنه أرضًا ورأسه على راحة يديه. قال مغيرًا الموضوع بوضوح مرة أخرى: «إنه فعلا لمكان جميل بالأعلى هناك».

رقد بقيتنا أيضًا. كانت تتقابل أغصان أشجار الجوز قائمة فوق رءوسنا مثل مراوح طويلة خضراء تظلنا. وعلى بعد عدة أقدام كانت الشمس تكون طرقًا كهرمانية من ضوء الشمس المتلألئ على البحيرة. وعم السكون وهب الهواء العليل، لطيفًا، هادئًا ومسالمًا.

قال جيريمى: «أعتقد أنه حين أكبر، سوف أبنى لنفسى بيتًا فوق بعض الأشجار بمجرد أن أعيش هناك طوال الوقت».

سأل ليتل مان: «كيف ستفعل ذلك؟».

ـ «أوه، سأعثر لنفسى على بعض الأشجار القوية وأبنى البيت. أعتقد أنه سيكون هناك جذع شجرة فى غرفة النوم والجذع الآخر بالمطبخ».

استعلم كريستوفر جون: «ولماذا تريد العيش على الأشجار؟».

ـ «إن المكان هادئ هناك جدًا ... ومسالم. إنه بارد أيضًا» أجاب جيريمى «خاصة فى الليل».

قلت له: «كيف لك أن تعرف ما إذا كان باردًا بالليل؟» .

أنار وجه جيريمى: «لأن غرفة نومى بالأعلى».

نظرنا إليه غير مصدقين.

«أنا – أنا بالفعل لدى غرفة. بنيتها بنفسى وأنام فيها. وإذا أتت إحدى هذه الليالى الحارة، أتسلق شجرتى ويكون الإحساس كما لو أننى انتقلت إلى عالم آخر. حتى إننى أستطيع أن أسمع وأرى أشياء هناك أراهنكم أن السناجب والطيور فقط تستطيع سماعها ورؤيتها. أحيانًا أعتقد أننى أستطيع أن أرى كل الطريق إلى منزلكم».

قلت له. «آه، تبا يا فتى، إنك لقصة، إن بيتك بعيد جدًا وأنت تعرف هذا».

سقط وجه جيريمى. «حسنًا ... ربما أنا لا أستطيع، لكن هذا لا يمنعنى من التخيل أنى أراه، هذا كل ما بالأمر». كان صامتًا لثانية ثم قفز فجأة إلى قدميه ووجهه منير مرة أخرى. «هيه، لماذا لا تأتون معى لتروه؟ إن أبى سوف يغيب طوال اليوم وسيكون مسليا جدًا، وأستطيع أن أريكم جميعًا –».

قال ستيسى بهدوء: «لا»، وعيناه لا تزالان مثبتتين على الأشجار فوق رأسه.

جلس جيريمى فى مكانه مرة أخرى منكمشًا. «لـ– لقد كنت أريد منكم أن تروه، هذا كل ما فى الأمر..». للحظة كان يبدو كأنه مجروح من رفض ستيسى البارد؛ ثم، وهو يبدو كأنه تقبل هذا كجزء من الأشياء التى يجب تقبلها كما هى، أخذ موضعه مرة أخرى وتطوع بنية حسنة، «إذا سنحت لكم الفرصة لتبنوا لأنفسكم بيتًا بالشجرة، فأعلمونى فقط وسوف أقوم بمساعدتكم. أنه بارد مثل ..».

كان أبى يجلس على مقعد بالحظيرة، وقدمه المكسورة ممدودة بغرابة أمامه، وهو يقوم بإصلاح معدات جاك. كان هناك منذ الصباح الباكر، وعبسة عميقة ترتسم على جبينه، وهو يصلح الأشياء التى تحتاج إلى إصلاح. طلبت منا أمى ألا نقوم بمضايقته، وابتعدنا عن الحظيرة قدر استطاعتنا، لكن فى وقت متأخر من الظهيرة عرجنا عليها بالطبع وبدأنا بفروضنا. كان أبى قد اختفى بنفسه ولم يلاحظ وجودنا بالبداية، لكن بعد فترة قصيرة، رفع بصره وظل يراقبنا عن قرب.

عندما كدنا ننتهى من فروضنا، وصل السيد موريسون من ستروبيرى، حيث ذهب إلى هناك ليقوم بسداد قسط شهر أغسطس الخاص بالرهن العقارى. دخل إلى الحظيرة ببطء وأعطى أبى ظرفًا فى يده. نظر إليه أبى باستغراب، ثم قام بفتحه. فى حين قرأ الخطاب، ضغط على فكه بشدة، وعندما انتهى، ضرب قبضة يده على المقعد بشدة لدرجة أننى والأولاد توقفنا عما كنا نقوم به، موقنين بأن خطبًا ما قد حدث.

سأل السيد موريسون بصوت جاف وغاضب «هل قاموا بإخبارك؟».

أَومأَ السيد موريسون: «حاولت أن أقنعهم بالانتظار بعد حصاد القطن، لكنهم قالوا لى إنه واجب السداد حالا، هذه كانت كلماتهم».

قال أبى بهدوء: «هارلان جرينجر». مد يده ليصل إلى عصاه ووقف: «أتشعر بأنك تريد العودة إلى ستروبيرى ... الليلة؟».

«أستطيع القيام بذلك، لكننى لا أعرف إذا كان يستطيع هذا البغل العجوز تحمل رحلة أخرى».

قال مشيرًا إلى الفرس: «إذن شد الفرس ليدى فى العربة».

التفت وذهب إلى المنزل. تبعته أنا والأولاد، غير متأكدين مما كان يحدث. دخل أبى إلى المطبخ وبقينا نحن بالشرفة نسترق النظر من خلال الحاجز.

«ديفيد، أيوجد خطب ما يا بنى؟».

«لقد أرسل المصرف بمذكرة. إننى ذاهب إلى ستروبيرى».

رددت الجدة الكبيرة. «هل أرسلوا مذكرة؟ يا إلهى، ليس هذا أيضًا».

حدقت أمى فى أبى، والخوف يملأ عينيها «أأنت ذاهب الآن؟».

رد أبى: «الآن»، تاركًا المطبخ ومتجهًا إلى غرفتهم.

تلاشى صوت أمى وراءه. «ديفيد، لقد تأخر الوقت كثيرًا. من المؤكد أن المصرف قد أغلق الآن. ولا يمكنك أن ترى أحدًا إلا فى الصباح ..».

لم نستطع أن نسمع رد أبى، لكن علا صوت أمى بحدة. «هل تريد أن تخرج إلى ذلك الطريق مرة أخرى فى منتصف الليل بعد ما حدث؟ هل تريدنا أن نموت قلقًا عليك؟».

قال أبى بصوت عال أيضًا «مارى، ألا تفهمين، إنهم يريدون أن يأخذوا هذه الأرض؟».

«ألا تفهم أنت، إننى لا أريدك أن تموت؟».

لم نستطع سماع شىء آخر. لكن بعد بضع دقائق خرج أبى وقال للسيد موريسون بأن يرجع ليدى من العربة. سوف يذهبون إلى ستروبيرى فى الصباح.

فى اليوم التالى كان أبى قد غادر مع السيد موريسون حتى قبل أن أستيقظ من النوم. عندما عادوا فى آخر الظهيرة، جلس أبى متعبًا على طاولة المطبخ والسيد موريسون إلى جواره. قال وهو يحك شعره الكثيف بيده، «لقد قمت بالاتصال بهامر».

سألت أمى: «مالذى قلته له؟».

ـ «فقط ما ورد بالمذكرة. قال إنه سوف يجلب المال».

ـ «كيف؟».

ـ «لم يقل ولم أسأل. لقد قال فقط: إنه سوف يحضر المال».

قالت الجدة الكبيرة: «والسيد هيجينز بالمصرف يا ديفيد.. ماذا كان لديه ليقوله؟».

«قال إن رصيدنا لم يعد له فائدة بعد الآن».

قالت أمى بغضب مرير «كى لا نؤذى آل والاس الآن.. إن هارلان جرينجر ليس له حاجة فى أن -»

قال أبى وهو يجذبها إليه: «عزيزتى، أنت تعلمين أن له حاجة.. إن له لحاجة أن يظهر لنا أين يجب أن يكون مكاننا فى مخطط الأشياء. إن لديه حاجة قوية للقيام بذلك. إلى جانب ذلك، فإنه يريد الحصول على هذا المكان».

«لكن يا بنى، إن الرهن العقارى يعطينا أربع سنوات إضافية».

ضحك أبى ضحكة جافة: «أتريدين أن آخذ الأمر إلى المحكمة يا أمى؟».

تنهدت الجدة الكبيرة ووضعت يدها على يد أبى. «ماذا سوف يحدث إذا لم يستطع هامر الحصول على المال؟».

لم ينظر إليها أبى، لكنه نظر إلى السيد موريسون بدلا من ذلك.

«لا تقلقى يا أمى. لن نخسر الأرض ... ثقى بى».

فى يوم الأحد الثالث من شهر أغسطس، بدأت اجتماعات الصحوة الدينية السنوية. كانت هذه الاجتماعات تؤخذ على محمل الجد الشديد، وعلى الرغم من ذلك كانت تتسم بالمرح ويخطط لها منذ أمد طويل، فهى شئون؛ كانت تخرج الأوانى

غير المستعملة من مكانها والفساتين المخزنة بالنفتالين والسراويل المكوية من الخزائن المخبأة، وكان كل الناس من المجتمع والمجتمعات المجاورة يأتون عن طريق المدرسة الأحمر إلى كنيسة جريت فيث. كانت الصحوة تدوم لسبعة أيام وكانت مناسبة يتطلع الجميع إليها، لأنها كانت تحب أكثر من مجموعة من القداسات؛ لقد كانت المناسبة الاجتماعية الوحيدة التى يتم التخطيط لها فى السنة، معطلة رتابة حياة الريف اليومية. كان المراهقون يتوددون علانية، وقابل الراشدون أقاربهم وأصدقاءهم الذين لم يروهم منذ «الاجتماع الكبير» بالعام الماضى وكان الأطفال منطلقين بكامل حريتهم تقريبًا.

بالنسبة إلى، كان أهم جزء من الصحوة هو اليوم الأول. بعد انصراف القداس الأول من ثلاث، كان الجمع الإنسانى الذى تكدس داخل الكنيسة فى الحر القائظ قد خرج إلى فناء المدرسة، وقامت السيدات بإعداد عشائهن بنشاط على ظهر عرباتهن وعلى الطاولات الممتدة حول الكنيسة.

كانت وليمة لا يمكن نسيانها.

كانت هناك سلطانيات مكدسة من اللفت الأخضر واللوبيا بقطع اللحم، وشرائح غليظة من لحم العام الماضى المدخن بالسكر وشرائط من الضلوع المشوية، ودجاج محمر ومقرمش ولقم من السناجب الذهبية والأرانب، ورقائق بسكويت الزبدة وخبز القمح، وشرائح من فطير البطاطا وكعكات الزبد وأشياء أخرى كثيرة وكانت كلها للجميع. مهما كانت مؤنًا ضئيلة، فقد كانت تتمكن كل عائلة من تقديم شىء ما، وحين قام المواظب على الذهاب إلى الكنيسة بالدوران من طاولة إلى أخرى، كانت الأوقات الصعبة نسيت، على الأقل فى هذا اليوم.

لقد كنت أنا والأولاد قد ملأنا أطباقنا للمرة الأولى لتونا وأخذنا مقاعدنا تحت شجرة الجوز القديمة، حين وضع ستيسى طبقه ووقف مرة أخرى.

«ما الأمر؟». سألت وأنا أملأ فمى بخبز القمح.

قطب ستيسى حاجبيه فى الشمس: «إن هذا الرجل القادم من الطريق ..».

أخذت لحظة لأنظر إلى أعلى، ثم أخذت كاحل الدجاجة. «إذن؟».

«إنه يشبه ... العم هامر!». صرخ وانطلق بعيدًا. ترددت وأنا أراقبه، غير مستعدة لترك طبقى إلا إذا كان فعلاً العم هامر. عندما وصل ستيسى إلى الرجل وقام باحتضانه، وضعت طبقى جانبًا وجريت عبر المرجة نحو الطريق. ركض كريستوفر جون والطبق لا يزال فى يده وليتل مان ورائى.

سأله ليتل مان بعد أن قمنا كلنا باحتضانه «يا عم هامر، أين سيارتك؟».

قال: «بعتها».

صرخنا فى صوت واحد «بعتها!».

سأل ستيسى: «لـ- لكن لماذا؟».

قال العم هامر بصراحة «إننى فى حاجة إلى المال».

فى حين اقتربنا من الكنيسة، قابلنا أبى وعانق العم هامر.

«لم أتوقع منك أن تأتى كل الطريق إلى هنا».

ـ «هل كنت تتوقع منى أن أرسل هذا القدر من المال عبر البريد؟».

ـ «كان من الممكن أن ترسله تلغرافيًّا».

ـ «إننى لا أثق بهذا أيضًا».

ـ «كيف حصلت عليه؟».

قال وهو يهز كتفيه: «اقترضت البعض منه، وقمت ببيع بعض الأشياء»، ثم أومأ مشيرًا إلى ساق أبى: «كيف حدث لك هذا؟».

التقت عينا أبى والعم هامر وابتسم أبى ابتسامة باهتة: «كنت آمل نوعًا ما ألا تسأل هذا السؤال».

«نعم».

قلت أنا: «أبى، لقد باع العم هامر سيارته الباكارد».

تلاشت ابتسامة أبى: «لم أقصد أن يحدث هذا يا هامر».

وضع العم هامر ذراعه حول أبى: «ما فائدة السيارة؟ لا تستطيع أن تزرع القطن. ولا يمكنك أن تبنى بها بيتًا. ولا يمكن أن تربى بها أربعة أطفال متفوقين».

أومأ أبى متفهما.

«الآن هل ستخبرنى بأمر هذه الساق؟».

حدق أبى فى الحشد المجتمع حول موائد العشاء وقال: «دعنا نحضر لك شيئًا لتأكله أولاً» قال: «ثم سأخبرك. أعتقد أن الأمر سيكون ذا وقع أفضل مع بعض من هذا الطعام فى معدتك».

لأن العم هامر كان سيغادر باكرًا صباح يوم الإثنين، فسمح لى أنا والأولاد بالسهر أطول من المعتاد حتى نكون معه. لساعات طويلة كان يجب علينا أن نقضيها بالفراش، قضيناها على الشرفة الأمامية مضاءة فقط ببياض القمر المكتمل وجلسنا نسمع أصوات أبى والعم هامر المريحة ممتزجة مرة أخرى.

«سوف نذهب إلى ستروبيرى ونقوم بالسداد أول شىء غدًا» قال أبى: «لا أعتقد أنه من الأفضل لى قطع الرحلة كلها إلى فيكسبرج بهذه الساق، لكن السيد موريسون سوف يصطحبك إلى هناك - يصطحبك إلى القطار.

أجاب العم هامر: «ليس عليه القيام بذلك.. يمكننى الوصول إلى فيكسبرج بخير».

«لكننى سأرتاح أكثر إذا عرفت أنك على هذا القطار متوجهًا إلى الشمال ... ولست ذاهبًا لتوريط نفسك بأمر أحمق».

تمتم العم هامر. «ليس هناك شىء أحمق بما سأفعله بآل والاس ... ولا هارلان جرينجر أيضًا».

لم يكن هناك شىء يقال قد يعبر عن إحساسه، ولم يحاول أحد ذلك.

سأل العم هامر بعد وقت قصير: «ما الذى تخطط له بالنسبة إلى المال؟».

قال أبى: «القطن يبدو جيدا. سنكون على ما يرام بفضله، وسنتمكن من تصريف أمورنا بخير».

صمت العم هامر للحظة قبل أن يواصل حديثه: «ستقومون بشد الحزام أكثر، أليس كذلك؟».

عندما لم يجب أبى قال العم هامر: «من الأفضل لى أن أبقى».

قال أبى بشدة: «لا.. إنك ستكون بحال أفضل فى شيكاغو».

«قد أكون بحال أفضل لكننى سوف أقلق كثيرًا».

صمت للحظة، وهو يشد أذنه: «لقد أتيت من ستروبيرى بصحبة رجل من فيكسبرج. يبدو أن الأمور أسوأ من المعتاد هناك. عندما يكون الطقس حارًّا هكذا يصبح الجميع مستائين من الحياة، فيبدءون فى البحث عن شخص ليفرغوا به غضبهم ... ولا أريد أن يكون هذا الشخص أنت».

قال أبى: «لا أعتقد أنه سيكون أنا ..... إلا إذا بقيت».

فى الصبح بعد أن غادر الرجال، قالت الجدة الكبيرة لأمى «كنت أتمنى لو أن هامر استطاع البقاء لفترة أطول».

عقبت أمي: «من الأفضل له أنه غادر».

أومأت الجدة الكبيرة: «أعرف هذا. فإن الأمور على حالها هذه، فإنها لا تستلزم إلا القليل حتى تشتعل، وهامر بطبعه هذا لديه ما يستلزم ذلك. لكن على الرغم من ذلك»، تمتمت بحزن: «كنت بالتأكيد أتمنى لو أنه بقى..».

فى آخر ليلة للصحوة أخذت السماء ملامح غريبة مائلة إلى الصفرة. كان الهواء يبدو متدنيًا وخانقًا ولم تكن هناك أى رياح تتحرك.

سألت أمي حينما وقفت هى وأبى بالشرفة الأمامية ينظران إلى السماء: «ماذا تعتقد يا ديفيد؟ أتعتقد أن علينا الذهاب؟».

مال أبى على عصاه: «إن الرياح سوف تهب بالتأكيد ... لكنها قد لا تعصف قبل وقت متأخر بالليل».

لقد قرروا الذهاب. كانت أغلب العائلات قد وصلت إلى نفس القرار، لأن أرض الكنيسة كانت مزدحمة بالعربات عندما وصلنا.

نادى أحد الشماسين لأبى حين كان ينزل بغرابة من العربة، «يا أخ لوجان إن الكاهن جابسون يريدنا أن نعجل باللقاء بقدر المستطاع حتى نستطيع أن ننصرف باكرا لنصل إلى بيوتنا قبل أن تضرب هذه العاصفة».

قال أبى وهو يوجهنا إلى الكنيسة «حسنًا». لكن حين اقتربنا إلى المبنى قام آل لاينر باعتراض طريقنا. فى حين تكلم الراشدون أشار ليتل ويلى ويجينز ومو تيرنر إلى ستيسى من الطريق حينما كانوا يقفون مع عدة أولاد آخرين. طاف ستيسى بعيدًا ليتحدث معهم وتبعناه أنا وكريستوفر جون وليتل مان أيضًا.

قال ليتل ويلى لستيسى وهو يقترب: «احزر ما الذى رأيناه؟ إنه تى جيه والأخوان سيمز».

سأل ستيسى «أين؟».

أشار ليتل ويلى «هناك.. لقد أوقفوا السيارة بالقرب من الفصول. انظر، ها هم قادمون».

كل العيون تتبعت اتجاه أصبع ليتل ويلى. من خلال الغبش المستقر ظهر ثلاثة أشخاص يمشون الهوينى بثقة عبر المرجة العريضة، كان الأخوان سيمز على الجانبين وتى جيه يتوسطهما.

سأل مو تيرنر بغضب «كيف له أن يحضرهم إلى هنا؟».

هز ستيسى كتفيه: «لا أعرف، لكن أعتقد أننا سوف نكتشف».

لاحظت عندما استطعت أن أرى تى جيه بوضوح أكثر «إنه يبدو مختلفا». كان يرتدى سروالا طويلا غير مرقع وبالرغم من حرارة الجو والرطوبة العالية، كان يرتدى سترة ورابطة عنق، وقبعة موضوعة على جانب رأسه بمرح.

تمتم مو بمرارة: «أعتقد أنه يبدو مختلفا».

هتف تى جيه بصوت عالٍ في حين اقترب منا «حسنًا، حسنًا، حسنًا! ماذا لدينا هنا؟ هل سترحبون بنا جميعا إلى قداس الصحوة الخاص بكم؟».

سأل ستيسى «ما الذى تفعله هنا يا تى جيه؟».

ضحك تى جيه: «لى الحق فى القدوم إلى كنيستى، أليس كذلك؟ وأن أرى أصدقائى القدامى؟» جالت عيناه بالمجموعة، لكن لم يظهر أحد منهم أية علامة بالسرور لرؤيته. انكمشت ابتسامته العريضة قليلا، ثم انحنى وربت على وجهى بيده الرطبة: «هيه يا كيسى، كيف حالك؟».

قذفت يده بعيدا بقوة. حذرته: «لا تأت لتعبث معى يا تى جيه!».

ضحك مرة أخرى ثم قال برزانة: «حسنًا، إن هذا ترحيب جيد. لقد قطعت كل الطريق إلى هنا لأعرِفكم بأصدقائى آر دبليو وميلفن، إليكم كلكم وها أنتم تتصرفون كأنكم مفتقدون للأخلاق الحميدة. نعم، آر دبليو وميلفين العزيزان»، قال وهو يطلق أسماء الأخوين سيمز من فمه ببطء ليلفت انتباهنا لدرجة أنه حتى لم يتكلف عبء إضافة «سيد» إلى أى من أسمائهم: «لقد كانوا أصدقاء جيدين بالنسبة إلىَّ، أفضل من أىٍّ منكم. انظروا، انظروا هنا إلى الأشياء التى أعطونى إياها». وبفخر، سحب السترة: «أشياء جميلة جدًّا، أليس كذلك؟ إن كل الأشياء التى أريدها يمنحونى إياها. إننى صديقهم المفضل».

التفت إلى الأخوين سيمز: «أليس كذلك يا آر دبليو وميلفن؟».

أومأ ميلفن، وتنازل بابتسامة متكلفة على وجهه، والتى ضاعت عند تى جيه.

«أى شىء - مجرد أى شىء على الإطلاق قد أريده - سيحضرونه من أجلى، بما فيه -» تردد كأنه غير متأكد مما إذا كان تجاوز الحدود، ثم استمر مقتحما الكلام: «بما فيه المسدس ذو المقبض اللؤلئى الموجود بمتجر بارنت».

تقدم آر دبليو إلى الأمام وصفع تى جيه على كتفه مؤكدًا «هذا صحيح يا تى جيه، فقط أخبرنا بما تريد وستحصل عليه».

ابتسم تى جيه ابتسامة عريضة. والتفت ستيسى بعيدًا فى اشمئزاز وقال: «هيا بنا.. إن القداس يوشك أن يبدأ».

صاح تى جيه فى حين استدارت المجموعة واتجهت نحو الكنيسة. نظرت إليه نظرة خاطفة «هيه، ماذا أصابكم جميعا؟». هل كان أحمق لهذه الدرجة؟

قال ميلفن فى حين مشينا مبتعدين: «حسنًا يا تى جيه».

لقد أتينا إلى هنا كما طلبت منا. الآن ستأتى إلى ستروبيرى معنا كما وعدت».

تمتم تى جيه: «إن - إن الأمر لم يؤثر فيهم».

قال آر دبليو: «ماذا؟ إنك سوف تأتى، أليس كذلك؟ إنك لا تزال تريد هذا المسدس ذا المقبض اللؤلئى، صحيح؟».

«نعم، لكن -»

أمره: «إذن هيا بنا»، واستدار مع ميلفن متوجها إلى الشاحنة.

لكن تى جيه لم يتبعهم على الفور. لقد ظل واقفا فى وسط الحضور، ووجهه مرتبك وغير مستقر. لم أر تى جيه بائسًا ووحيدًا لهذه الدرجة أبدًا من قبل، ولثانية عابرة شعرت بالأسى من أجله.

عندما وصلت إلى درج الكنيسة، نظرت ورائى مرة أخرى. كان تى جيه لا يزال واقفا هناك، غير واضح، يكاد يختفى فى الظلمة، وبدأت أفكر أنه ربما لا يذهب مع الإخوة سيمز. لكن انطلق صوت الشاحنة العالى ليزعج المساء الساكن، والتفت تى جيه بعيدًا عنا وركض عبر الحقل.

11

أيا دوى الرعد

اسمع صراخى

فوق المياه

هناك وهناك

إن الرجل آتٍ

على الطريق

بسوط فى يده

ليضربنى به

لكننى لن

أسمح له

أن يغيرنى

همس الليل بصوت رعد بعيد. وكان الجو رطبًا وحارًا والليلة لا تصلح للنوم. استيقظت مرتين متمنية أن يكون الوقت قد حان للاستيقاظ، لكن كل مرة كانت ظلمة الليل حالكة دون أية إشارة إلى الفجر. كان السيد موريسون بالشرفة الأمامية يغنى بصوت هادئ ومنخفض فى الليل الطويل، ينشد الرعد القادم. كان هناك منذ أن أظلم المنزل بعد توديع الكنيسة، يراقب وينتظر كما يفعل كل ليلة منذ إصابة أبى. لم يشرح أحد لماذا كان يراقب وينتظر، لكننى كنت أفهم. كان الأمر متعلقًا بآل والاس.

تلاشت أغنية السيد موريسون وافترضت أنه فى طريقه إلى ظهر البيت. كان سينتظر هناك لفترة، ماشيًا على قدميه مثل القطط، ثم يعود للشرفة الأمامية مرة أخرى. وأنا غير قادرة على النوم، عهدت لنفسى بعدّ الولايات منتظرة عودته. كانت الآنسة كروكر عندها ولع بالولايات، ووجدت أحيانًا أنه إذا قامت بالتظاهر بأنها تعدّ الولايات قد أستغرق أنا فى النوم. قررت بأن أقوم بعدّ الولايات حسب موقعها الجغرافى بدلا من ترتيبها الأبجدى؛ كان هذا تحديًا أكبر. كنت قد وصلت بالعدّ إلى غرب ولاية داكودا عندما قوطع سردى الصامت بنقر على الشرفة. رقدت ساكنة تمامًا. لم يصدر السيد موريسون أصواتًا كهذه أبدًا.

ها هو الصوت مرة أخرى.

بحذر، قمت بالنزول من على السرير، حريصة على عدم إيقاظ الجدة الكبيرة، والتى كانت لا تزال فى سبات عميق، وتسللت إلى الباب. واستهجنت التصرف: «يا فتى، ما الذى تفعله هناك؟!».

همس تى جيه، وهو غير مرئى بالظلام: «هيه يا كيسى، هلا خَفَضْتَ صوتك؟». ثم نقر بخفة على باب الأولاد مرة أخرى، وينادى بهدوء: «هيه يا ستيسى، هيا استيقظ أرجوك. أدخلنى».

فتح الباب وانسل تى جيه إلى الداخل. سحبت بابى وأغلقته وتبعت تى جيه قال: «أنا -أنا فى ورطة يا ستيسى أعنى أننى حـ- حقا فى ورطة».

أجبته: «هذا ليس شيئًا جديدًا».

همس ستيسى ببرود: «ما الذى أتى بك إلى هنا؟ اذهب إلى آر دبليو وميلفن ليخرجوك من مأزقك».

كان هناك بكاء صامت فى الظلام وتى جيه وهو بالكاد يتكلم مثل تى جيه تمتم: «هم الذين أوقعونى بهذا المأزق. أين السرير؟ يجب أن أجلس».

تلمس طريقه فى الظلام باحثًا عن السرير، وقدماه متثاقلتان كأنه بالكاد يقدر على رفعهما. صحت فور وقوع يديه على: «إننى لست بسرير!».

كانت هناك تنهيدة عميقة. أضاء ستيسى المصباح ووجد تى جيه السرير، جلس ببطء وأمسك ببطنه كأنما جرح بها.

سأل ستيسى بنبرة متحفظة: «ما الأمر؟».

همس تى جيه: «آر دبليو وميلفن لقد آذونى بشدة». رفع نظره كأنما يتوقع الشفقة. لكن وجوهنا التى كانت متجهمة وراء الضوء الذى كان يمسك به ستيسى، لم تظهر أى تعاطف تجاهه. بهتت عينا تى جيه وهو يفك أزرار قميصه، فتح القميص ونظر إلى معدته.

كشرت وجهى وَهَزَزْتُ رأسى من المنظر: «يا إلهى يا تى جيه!» صاح ستيسى بهمس: «ماذا حدث؟».

لم يجب تى جيه فى البداية، وهو يحدق مرتعبًا بالورم الأزرق المائل إلى السواد بمعدته وصدره.

وأخيرًا تلفظ لاهثًا: «أعتقد أن شيئًا ما قد تلف.. لقد أوذيت بشدة».

سأل ستيسى: «لماذا فعلوا بك هذا؟».

نظر تى جيه إلى الضوء الساطع: «ساعدنى يا ستيسى. ساعدنى على الوصول إلى المنزل ... لا أستطيع أن أذهب فى هذا الطريق بمفردى».

ـ «قل لى كيف لهم أن يفعلوا هذا بك».

ـ «لأن ... لأنى قلت إننى سأبلغ بما حدث».

أنا وستيسى نظرنا إلى بعضنا البعض، ثم ملنا نحو تى جيه معًا سألناه: «تبلغ بماذا؟».

بلع تى جيه ريقه ومال إلى الأمام، ورأسه بين ساقيه: «إننى ... إننى مريض يا ستيسى. يجب أن أعود إلى المنزل قبل أن يستيقظ أبى ... لقد قال إذا غبت عن المنزل لليلة أخرى، فسوف يطردنى منه، وليس لدى مكان أذهب إليه. يجب أن تساعدنى».

«قل لنا ماذا حدث».

بدأ تى جيه بالبكاء: «لكنهما قالا إنهما سيقومان بما هو أسوأ من هذا إذا قلت شيئًا!».

قال ستيسى بحسم: «حسنًا، إننى لن أذهب إلى أى مكان حتى أعرف ماذا حدث».

تدارس تى جيه وجه ستيسى فى الضوء الواهن الصادر من المصباح. ثم حكى قصته.

بعد أن غادر هو والإخوة سيمز كنيسة جريت فيث، ذهبوا مباشرة إلى ستروبيرى ليجلبوا المسدس ذا المقبض اللؤلؤى، لكن عندما وصلوا إلى المتجر كان

قد أغلق فى ذلك الحين. وقال الإخوة سيمز إنه لا جدوى من العودة مرة أخرى من أجل المسدس؛ فسوف يذهبان ببساطة ويأخذانه.

كان تى جيه مُرْعَبًا من الفكرة، لكن الإخوة سيمز أكدا له أنه لا يوجد هناك خطر من ذلك. وإذا تم القبض عليهما، سيقولا إنهما ببساطة كانا فى حاجة إلى المسدس تلك الليلة لكنهما كانا ينويان دفع ثمنه يوم الاثنين.

كان هناك فى غرفة المخزن الموجودة بآخر المتجر نافذة صغيرة يسمح لطفل أو لشخص رفيع مثل تى جيه بالمرور منها. عقب الانتظار لما يقرب من الساعة بعد أن انطفأت الأنوار بمنزل آل بارنت فى الطابق الثانى، انسل تى جيه من النافذة وقام بفتح الباب، دخل الإخوة سيمز ووجوههما مقنعة بجوارب وأيديهما مغطاة بقفازات. تى جيه كان يخاف الآن من أن يكون هناك شىء آخر ببالهم، وأراد أن يغادر بدون المسدس، لكن آر دبليو أصر على أن يحصل تى جيه عليه. كسر آر دبليو قفل صندوق المسدسات ببلطة وأعطى تى جيه المسدس الذى طالت الرغبة به.

ثم ذهب آر دبليو وميلفن إلى كابينة بالحائط وحاولا أن يكسرا القفل النحاسى. بعد عدة دقائق غير ناجحة ضرب آر دبليو بشدة القفل بالبلطة ففتح القفل. لكن حين مد ميلفن يده ليأخذ الصندوق المعدنى الموجود بالكابينة، ظهر السيد بارنت على الدرج، بمصباح فى يده وزوجته تقف وراءه.

للحظة طويلة لم يتحرك أحد أو يقول كلمة حين أشار السيد بارنت بالمصباح نحو تى جيه ثم إلى آر دبليو وميلفن، وكانت وجوههم داكنة بسبب الجوارب. لكن عندما رأى السيد ميلفن أن قفل الكابينة قد كسر، انطلق بهياج شديد يقفز على الدرج بجنون محاولاً الإمساك بالصندوق المعدنى من ميلفن.

تنازعوا حيث كان السيد بارنت متغلبًا على ميلفن، حتى ضرب آر دبليو السيد بارنت على رأسه بشدة بظهر البلطة فانهار السيد بارنت وتحول إلى كتلة على الأرض كأنه مات.

عندما رأت السيدة بارنت أن زوجها وقع على الأرض، انطلقت عبر الغرفة وهجمت على آر دبليو وهى تصرخ: «أيها الزنوج لقد قتلتم جيم لى! لقد قتلتموه!». صفعها آر دبليو محاولا الإفلات من قبضتها ووقعت على ظهرها وضربت رأسها بأحد الأفران حيث لم تتحرك بعدها.

بمجرد أن خرجوا من المتجر أراد تى جيه العودة إلى البيت مباشرة، لكن الأخوان سيمز قالا إنهما لديهما أعمال عليهما رعايتها أولا وطلبا منه أن ينتظر فى مؤخرة الشاحنة. عندما اعترض تى جيه وقال إنه سوف يخبر الجميع أن آر دبليو وميلفن هما من قاما بإيذاء آل بارنت إلا وأخذاه إلى المنزل، وهجم عليه الاثنان يضربانه ضربات همجية حتى لم يستطع الوقوف على قدميه، ثم رمياه فى مؤخرة الشاحنة ونزلا إلى الشارع باتجاه صالة البلياردو. رقد تى جيه هناك لما يظن أنه أكثر من ساعة قبل أن يزحف نازلاً من العربة ومتجها إلى البيت. وعلى بعد ميل خارج البلدة استطاع أن يجد مطية مع مزارع متجه إلى سميلينجز كريك عن طريق سولدجرز رود. كان لا يريد العبور من أمام بيت آل سيمز خوفًا من أن يكون آر دبليو وميلفن قد أخذا طريقهما عبر جاكسون رود إلى منزلهما، لم ينزل عند تقاطع طريق مدرسة جيفرسون ديفيس لكن بدلاً من ذلك عبر جسر سولدجرز بريدج مع المزارع ونزل عند التقاطع بعد الجسر ومشى متجهًا إلى بيتنا من ناحية الغرب.

سأل ستيسى عندما طال صمت تى جيه: «تى جيه هل ... هل مات آل بارنت؟».

هز تِى جِيه رأسه: «لا أعلم. لكن كان يبدو عليهما الموت بالتأكيد. ستيسى، إذا علم أى أحد بما حدث، أتعلمون ما الذى سيفعلونه بى؟». وقف ووجهه يتلوى من الألم. توسل إليه: «ستيسى، ساعدنى فى الوصول إلى المنزل.. إننى خائف من الذهاب إلى هناك وحدى ... قد يكون آر دبليو وميلفن فى انتظارى ..».

سألته بارتياب: «هل أنت متأكد من أنك لا تكذب يا تى جيه؟».

«أقسم بأن كل ما قلته لكم هو الحقيقة. إننى ... إننى أعترف بالكذب فيما يخص الوشاية بأمكم، لكننى لا أكذب الآن، إننى لا أكذب!».

فكر ستيسى للحظة: «لماذا لا تبقى هنا الليلة؟ سيقول أبى لأبيك ما حدث ولن يعرضك إلى...».

صاح تى جيه، واتسعت عيناه من الرعب: «لا.. لا أستطيع أن أخبر أحدًا! يجب أن أذهب!». اتجه إلى الباب ممسكًا بجانبه، لكن قبل أن يصل إليه، خانته قدماه وأمسك به ستيسى وأعاده إلى السرير.

تفحصت تى جيه عن قرب تحت الضوء، متأكدة من أنه يقوم بلعب خدعة أخرى علينا. لكنه سعل وتدفقت الدماء من فمه؛ كانت عيناه تلمعان، وشحب وجهه وعرفت أن تى جيه هذه المرة لم يكن يخدعنا.

قال ستيسى: «لقد تأذيت بشدة دعنى أنادى الجدة الكبيرة - إنها ستعرف ما يلزم فعله».

هز تى جيه رأسه بضعف: «أمى ... سأقول لها إن هؤلاء الأولاد البيض قاموا بضربى بدون سبب وستصدق هى ذلك ... سوف تقوم برعايتى. لكن إذا ذهبت لجدتك فإن أباك سوف يتدخل فى الأمر. ستيسى أرجوك! أنت صديقى الوحيد ... إننى لم أحظ أبدًا بصديق مخلص غيرك ..».

همست، خائفة مما قد يقوم به «ستيسى؟».

بقدر ما أتذكر، فإن ستيسى كان دائمًا لديه إحساس بالمسئولية تجاه تى جيه. لم أفهم أبدًا لماذا؟ ربما كان يشعر أنه شخص جدير بالازدراء ومثل تى جيه يحتاج إلى شخص ما يكون له «صديقًا»، أو ربما استشعر ضعف تى جيه أكثر مما استشعره تى جيه نفسه. «ستيسى إنك لن تذهب، أليس كذلك؟».

بلل ستيسى شفتيه مفكرًا، ثم نظر إلىّ: «عودى أنت إلى فراشك يا كيسى، سأكون أنا على ما يرام».

صرخت والتفت لأخرج إلى الغرفة الأخرى «نعم أعرف أنك سوف تكون على ما يرام لأننى سوف أخبر أبى!». لكن ستيسى مد يده فى الظلام وأمسك بى «انظرى يا كيسى، لن يستغرق الأمر أكثر من خمسة وعشرين دقيقة إلى ثلاثين دقيقة حتى أذهب إلى هناك وأعود مرة أخرى. صدقينى، سيكون الأمر على ما يرام».

اتهمته بعصبية: «إنك إذن لأحمق مثله تمامًا إنك لا تدين له بشىء، خاصة بعد ما فعله بأمى».

أطلقنى ستيسى: «لقد جرح جرحًا بالغًا يا كيسى. يجب أن آخذه إلى المنزل». التفت بعيدًا عنى وأمسك بسرواله.

حدقت به ثم قلت له: «حسنًا إنك لن تذهب بدونى». إذا كان ستيسى سيتصرف بحماقة ويخرج راكضا بالليل؛ ليأخذ من هو أكثر حمقًا منه إلى منزله، فإن أقل شىء أستطيع القيام به هو أن أتاكد أنه سيعود جثة هامدة.

«كيسى، إنك لا تستطيعين الذهاب».

هتف ليتل مان وهو يعتدل بسريره «تذهب إلى أين؟». اعتدل كريستوفر جون أيضًا وهو يتثاءب بخمول متسائلاً: «أبزغ الصباح؟ مالذى تفعلونه جميعًا؟».

أومض الضوء وحك عينيه: «تى جيه؟ أهذا أنت؟ ما الذى تفعله هنا؟ إلى أين أنتم ذاهبون جميعًا؟».

قال ستيسى: «ليس إلى أى مكان. إننى فقط سوف أرافق تى جيه إلى منزله عودوا الآن إلى نومكم».

قفز ليتل مان من السرير وسحب ملابسه من على الشماعة حيث كان قد علقها قبلا بترتيب صاح ليتل مان: «إننى ذاهب أيضًا».

قال كريستوفر جون وهو يتمدد لينام مرة أخرى: «ليس أنا».

فى حين حاول ستيسى وضع ليتل مان بالفراش مرة أخرى، تأكدت من الشرفة لأتاكد من أن السيد موريسون لم يكن على مقربة، ثم انسللت إلى غرفتى لأبدل ملابسى. عندما ظهرت مرة أخرى كان الأولاد على الشرفة وكريستوفر جون بسرواله على ذراعه يتمتم باحتجاج قوى إلى جولة ما بعد منتصف الليل هذه. حاول ستيسى أن يقنعهما هو وليتل مان بالرجوع إلى الداخل، لكن ليتل مان لم يكن ليتزحزح وكريستوفر جون، بقدر احتجاجه، يرفض أن يتم تركه وحده. أخيرًا استسلم ستيسى وتى جيه يميل بثقل عليه، أسرع عبر المرجة. وتبعناه جميعًا.

أول ما وصلنا إلى الطريق، عاف كريستوفر جون ارتداء سرواله وأصبحنا جزءًا من الليل .هادئين وخائفين،ومتمنيين أن نرمى تى جيه بشرفة بيته الأمامية ونرجع إلى أمان سررنا، أسرعنا على الطريق غير المرئى، ينيره فقط شعاع المصباح.

كان الرعد يزحف بالقرب منا الآن، يدوى بغضب فى أعماق الغابة ومصحوبًا بالبرق، وحينما ظهرنا من الممر إلى فناء آل أفرى المهجور. طلب تى جيه «انـ– انتظر حتى أدخل إلى البيت، هل لى ذلك؟».

قلت بمرارة: «لا يوجد أحد هنا، لماذا تريدنا أن ننتظر؟».

قال ستيسى: «هيا يا تى جيه، اذهب سوف ننتظرك».

قال تى جيه: «شكـ- شكرًا لكم كلكم» ومشى يعرج إلى جانب البيت وانزلق بغرابة إلى غرفته من نافذة مفتوحة.

قال ستيسى، وهو يقودنا رجوعًا إلى الممر: «هيا بنا، لنخرج من هنا». لكن حينما اقتربنا إلى الغابة، التفت ليتل مان: «هيه،أنتم كلكم، انظروا هناك! ما هذا؟».

من الجانب الأخر لبيت آل أفرى ظهرت أضواء ساطعة من بعيد على الطريق بالقرب من قصر جرينجر. للحظة انقطعت بها الأنفاس، تباطئوا هناك، ثم اندفعوا فجأة إلى الأسفل باتجاه آل أفرى. كان الزوج الأول من الأضواء قد تبع بالثانى ثم الثالث حتى وصل عددهم إلى نصف دستة من أزواج المصابيح تسطع بالأثر.

صرخ كريستوفر جون: «ما- ماذا يحدث؟».

إلى ما بدا كأنه انتظار لا نهاية له، وقفنا نراقب هذه الأضواء تقترب وتقترب قبل أن يطفئ ستيسى المصباح وأمرنا بالدخول إلى الغابة. بصمت انسللنا إلى الغابة ووقعنا منبسطين على بطوننا بالأرض. جلجلت شاحنتان وأربع سيارات إلى الفناء، وأضواؤها مسلطة مثل الأضواء الكاشفة على شرفة آل أفرى الأمامية. قفز رجال غاضبون يثيرون ضوضاء من السيارات وحاصروا المنزل.

قام كالب والاس وأخوه ثيرستون بذراعه اليسرى المتدلية إلى جانبه بقرع الباب الأمامى بمؤخرة مسدساتهم. صرخ كالب: «أخرجوا جميعكم من هناك! إننا نريد ذلك الزنجى السارق القاتل الذى تؤوونه جميعكم».

«ستـ- ستيسى» تلعثمت، وأنا أشعر بنفس الإحساس الغث الذى شعرت به الليلة التى مر بها هؤلاء الرجال وعندما عاد أبى إلى البيت مصابًا ومكسورًا: «مـ- ماذا سيفعلون؟».

همس ستيسى: «أنا - أنا لا أعلم» فى حين انضم رجلان آخران إلى آل والاس على الباب هتفت: «أليس هذان ... هذان آر دبليو وميلفن؟ ما الذى يفعلانه بحق الشيطان».

كممنى ستيسى مسرعا براحة يده فى حين دفع ميلفن بنفسه إلى الباب محاولا كسره ليفتح وكسر آر دبليو نافذة ببندقيته. على جانب البيت كان هناك عدة رجال يتسلقون من نفس النافذة التى انْسَلَّ منها تى جيه قبلهم بعدة دقائق. بعد قليل انفتح الباب الأمامى على مصراعيه من الداخل وتم جر السيد والسيدة أفرى بوحشية من أرجلهما من المنزل. وتم قذف بنات آل أفرى من النوافذ المفتوحة. كانت الفتيات الأكبر سنا يحاولن جمع الأطفال الأصغر إليهن لكن تم صفعهن والبصق عليهن. ثم سحب كلود الرقيق الهادئ إلى الخارج حيث ضُرب بالأرض وركل.

شب كريستوفر جون، محاولا النهوض «كـ-كلود!». لكن ستيسى أسكته وأمسك به.

قال ستيسى بنبرات مهتاجة: «يـ-يجب علينا المساعدة»، لكن لم يستطع أى منا التحرك. راقبت العالم من خارج نفسى.

ثم ظهر تى جيه، وهم يجرونه من المنزل على ركبتيه. كان وجهه يدمى وعندما حاول الكلام كان يصرخ من الألم، ويتمتم بالكلمات من فمه كأن فكه قد كسر. حاول السيد أفرى النهوض ليمسك به، لكن تم طرحه إلى الأرض مرة أخرى.

قال أحد الرجال ممسكا بمسدس: «انظر ماذا لدينا هنا! هل هذا المسدس ذو المقبض اللؤلئى من متجر جيم لى».

تأوه ستيسى: «يا إلهى!! لماذا لم يتخلص من هذا الشىء؟».

تمتم تى جيه شيئًا لم نستطع سماعه ثم دوى صوت كالب والاس: «كف عن الكذب يا فتى لأنك واقع فى مشكلة كبيرة. لقد كنت هناك - عندما أفاقت السيدة بارنت وهرعت طالبة النجدة، قالت إن ثلاثة أولاد زنوج قاموا بسرقة متجرهم وأفقدوها هى وزوجها الوعى. ورآك آر دبليو وميلفن وأنت تركض مع ولدين آخرين من وراء المتجر عندما أتوا إلى البلدة للعب البلياردو».

بدأت بالتحدث قبل أن يضع ستيسى يده على فمى مرة أخرى «لكنه كان آر دبليو وميلفن هما من قاما».

«الآن أين الاثنان الآخران؟ وأين المال الذى سرقتموه كلكم؟».

مهما كان رد تى جيه، كان من الواضح أنه لم يكن الرد الذى أراد كالب والاس سماعه، لأنه أرجع قدمه إلى الوراء وضرب تى جيه بمعدته المتورمة بقوة جعلت تى جيه يصدر صرخة ألم فظيعة ووقع منكبًا على الأرض.

«يا إلهى الرءوف! يا إلهى الرءوف!» صرخت السيدة أفرى، وهى تسحب نفسها لتتحرر من الرجال الذين كانوا يمسكون بها وهرعت نحو ابنها: «لا تدعهم يؤذون صغيرى أكثر من هذا. اقتلنى أنا يا إلهى لكن لا تدعهم يؤذون طفلى!». لكن قبل أن تتمكن من الوصول إلى تى جيه، أمسكوا بها من ذراعها وأطاحوا بها بوحشية شديدة لدرجة أنها وقعت فاقدة الوعى، وكان السيد أفرى يقاوم ليصل إليها، لكنه كان عاجزًا عن مساعدتها هى وتى جيه.

كان كريستوفر جون يبكى بوضوح الآن. همس ستيسى: «كيسى خذى كريستوفر جون وليتل مان وعودوا كلكم».

ظهرت مصابيح سيارتين أخريين من بُعد وصمت ستيسى فورًا. إحدى السيارتين توقفت عند طريق جرينجر بمصابيحها غير موجهة نحو ظلمة حقول القطن، لكن السيارة الرمادية جاءت بسرعة جنونية إلى الأثر المخدد تجاه منزل آل أفرى. وقبل أن تتوقف تمامًا قفز السيد جيميسون من السيارة. لكن بمجرد أن خرج من السيارة وقف بثبات متفحصًا الموقع؛ ثم حدق فى كل رجل كأنه يستعد لاتهامهم فى ساحة المحكمة ثم قال بهدوء: «هل قررتم جميعًا إقامة قاعة للعدالة هنا الليلة؟».

كان هناك صمت وخجل. ثم تحدث كالب والاس: «الآن انظر هنا يا سيد جيميسون إنك لا تريد أن تأتى إلى هنا لتعبث بهذا الأمر».

حذره ثيرستون بتحمس: «فعلا إنك لا تحب ذلك، فمن المرجح أننا قد نتدبر أمر محبى الزنوج بأنفسنا الليلة أيضًا».

ملأ الجو توتر كهربى، لكن وجه السيد جيميسون الساكن لم تغيره التهديدات.

«إن جيم لى بارنت وزوجته لا يزالان على قيد الحياة. من الأفضل لكم أن تتركونى أنا والشريف نتدبر أمر الولد. واتركوا القانون ليقرر ما إذا كان مذنبًا أم لا».

سأل أحدهم «أين هناك؟ إننى لا أرى أى قانون».

قال السيد جيميسون وهو يلوح بيده وراء كتفه: «إنه هناك عند بيت هارلان جرينجر، سيأتى إلى هنا بعد دقيقة. والآن اتركوا الولد لحاله».

صاح صوت: «من أجل مالى، أرشح بأن نقوم بهذا الآن لا حاجة لنا بإهدار الوقت الجيد والمال فى محاولة لإلحاق السرقة بزنجى!».

صعدت موجة عالية من الكره من الرجال فى حين اقتربت السيارة الثانية.

صمتوا للحظة فى حين ترجل الشريف من سيارته.

كان الشريف ينظر مضطربًا إلى الجمهور كما أنه لم يرد أن يكون هنا بالمقام الأول، ثم إلى السيد جيميسون.

سأل السيد جيميسون: «أين هارلان؟».

التفت الشريف من السيد جيميسون إلى الجمهور دون أن يجيبهم. ثم تحدث إلى الرجال: «إن السيد جرينجر يبعث بكلمة من خلالى بأنه لن يساند أى شنق فى مكانه. وهو يقول: إذا لمستم شعرة واحدة من رأس هذا الفتى على هذه الأرض، فإنه سيحمل المسئولية إلى كل رجل يقف هنا».

تلقى الرجال هذا الكلام بصمت محبط.

ثم صاح كالب والاس: «إذن لماذا لا نذهب إلى مكان آخر؟ أقول إنه يجب علينا أن نأخذه إلى الطريق ونتولى أمر العملاق الكبير الأسود الزنجى فى نفس الوقت!».

قال ثيرستون: «ولماذا لا نأخذ أيضًا الفتى الذى يعمل لحسابه؟».

شهقت: «ستيسى!».

«اصمتى!».

كان هناك تأكيد متدفق من الرجال. هتف كالب: «لقد أحضرت ثلاثة حبال جديدة!».

سأل ميلفن سيمز: «جديدة؟ هل تريد أن تهدر الحبال الجديدة على الزنوج؟».

«بحجم هذا الزنجى فإن الحبال القديمة قد تنقطع!».

كانت هناك ضحكات ساخرة وتحرك الرجال نحو سيارتهم وهم يجرون تى جيه معهم.

صاح السيد جيميسون، وهو يهرع ليحمى تى جيه بجسده «كلا!».

همس ستيسى بصوت غليظ: «كيسى.. كيسى يجب أن تذهبى وتحضرى أبى الآن. احك له ما حدث. أنا لا أعتقد أن السيد جيميسون سيستطيع أن يمنعهم من...».

«تعالى أنت أيضًا».

«لا ، سأنتظر هنا».

أعلنت أنها خائفة من أن يقوم بعمل أحمق مثل إنقاذ تى جيه وحده «إننى لن أذهب بدونك!».

«انظرى يا كيسى، هلا ذهبت أرجوك؟ إن أبى سيعرف ما عليه القيام به. يجب أن يبقى أحد هنا فى حالة ما قاموا بأخذ تى جيه إلى الغابة فى مكان ما. سأكون على ما يرام».

ـ «حسنًا ..».

ـ «أرجوك يا كيسى؟ هلا وثقت بى؟».

ترددت: «أ- أتعد أنك لن تذهب إلى هناك وحدك؟».

ـ «نعم. أعدك. فقط اذهبى وأحضرى أبى والسيد موريسون قبل أن يقوموا بإيذائهم أكثر من هذا!». وضع المصباح غير المطفأ فى يدى ودفعنى إلى الأمام. أمسكت بيد ليتل مان وقلت له أن يمسك بيد كريستوفر جون، وثلاثتنا معًا أخذنا طريقنا عبر الممر الحالك خائفين من إضاءة المصباح حتى لا يتم رؤية ضوئه، شق الرعد أطراف العالم وفلق البرق السماء حين وصلنا إلى الطريق، لكننا لم نتوقف. لم نجرؤ على ذلك. كان يجب علينا أن نصل إلى أبى.

12

عندما اقتربنا من المنزل، كان هناك الوهج الضعيف لمصباح الكيروسين يسطع بشحوب من غرفة الأولاد. سأل كريستوفر جون وهو حبيس النفس حينما ركضنا عبر المرجة فقلت له: «هل تعتقدون أنهم يعرفون الآن؟ لا أعرف بهذا الأمر.. لكنهم يعرفون بأننا لسنا موجودين حيث المفترض بنا أن نكون».

ركضنا مثيرين ضوضاء إلى الشرفة فتحنا الباب غير المقفل على مصراعيه. كانت أمي والجدة الكبيرة تقفان مع السيد موريسون بالقرب من حافة السرير، ثم التفتوا حينما دخلنا وصاحت الجدة الكبيرة، «يا إلهي، ها هم!».

سألت أمى، ووجهها قد صعق بطريقة غريبة: «أين كنتم؟ ماذا تقصدون بانطلاقكم بالخارج فى هذا الوقت من الليل؟».

لكن قبل أن نتمكن من الإجابة على أى من هذين السؤالين، ظهر أبى على المدخل، وهو يرتدى ملابسه وحزامه الجلدى الأسود العريض بيده.

أبى بدأ بالحديث.

«أين ستيسى؟».

ـ «إنه - إنه هناك عند منزل تى جيه يا أبى»

قال أبى، وكان غضبه جليا. «إن هذا الفتى قد كبر كثيرًا.. سوف ألقنكم جميعا درسا بشأن التسكع فى منتصف الليل ... وخاصة ستيسى. يجب عليه أن يتصرف أفضل من هذا. إذا لم يكن السيد موريسون قد رأى الباب مفتوحا، أعتقد أنكم كنتم ستظنون أنكم ستفلتون بأمر كهذا - مثل تى جيه. حسنًا، سوف أعلمكم جميعًا الآن كيف يكون تى جيه بهذا المنزل».

«لكن يا أبى، لقد آذوا كلود!» بكى كريستوفر جون والدموع تنهمر على وجنتيه من أجل صديقه المصاب.

ردد ليتل مان مرتعدا «وتى جيه أيضًا».

سأل أبى وعيناه تضيقان: «ماذا؟ ما الذى تتحدثون عنه؟».

«أبى لقد آذوهم بشدة و... و..». لم أستطع أن أستكمل كلامى. أتى أبى إلىّ وأخذ وجهى بيديه. «ما الأمر يا فتاتى كيسى؟ حدثينى».

كل شىء. سكبت كل شىء. عن اقتحام تى جيه للمتجر مع الإخوة سيمز وعن قدومه بالليل هاربا من الإخوة سيمز، وعن قدوم الرجال وعما فعلوه بآل أفرى. عن السيد جيميسون وعن تهديد الرجال بقدومهم إلى المنزل ليجلبوه هو والسيد موريسون.

سأل أبى عندما انتهيت من الكلام «وهل لا يزال ستيسى هناك؟».

«نعم يا سيدى. لكنه مختبئ بالغابة. إنهم لا يعلمون بوجوده».

التفت أبى حوله فجأة. قائلاً وهو يتحرك بسرعة أكبر مما تخيلت أنه يستطيع بقدمه المكسورة: «يجب أن أخرجه من هناك». تبعته أمى إلى غرفتهما وتبعتها أنا والأولاد. سحب أبى بندقيته من فوق السرير. «ديفيد، ليس بالبندقية. إنك لا تستطيع منعهم هكذا».

قال وهو يفرغ علبة قذائف فى جيب قميصه: «ليس لدى طريقة أخرى».

«إذا أطلقت عليهم النار سوف يقومون بشنقك لهذا السبب بالتأكيد. لن يحبوا شيئًا أفضل من ذلك».

«إذا لم أقم بذلك فسوف يقومون بشنق تى جيه. إن هذا الأمر كان قريبًا منذ فترة يا عزيزتى، وصادف أن تى جيه هو الأحمق بما فيه الكفاية وتمتم لكى يطلقه. لكن سواء كان أحمق أم لا ، فلا أستطيع أن أجلس وأتركهم يقتلون الفتى. وإذا وجدوا ستيسى -»

«أعرف يا ديفيد، أعرف، لكن يجب أن يكون هناك وسيلة أخرى. وسيلة لا تتسبب فى قتلك أنت أيضًا!».

قال أبى ملتفتا بعيدا عنها «يبدو أنهم يخططون للقيام بذلك على أية حال.. إذا قدموا إلى هنا فلا داعى أن أقول لك عما سيحدث وسأستخدم كل طلقة فى حوزتى قبل أن يقدموا على المساس بأى أحد فى هذا المنزل».

أمسكت أمى بذراعه بقوة: «اجعل هارلان جرينجر يوقف ما يحدث. إذا أمرهم بذلك فسوف يعودون إلى منازلهم».

هز أبى رأسه: «لقد مرت هذه السيارات بمنزله ليذهبوا تجاه منزل آل أفرى، وإذا كان ينوى إيقافهم، فقد كان سيقوم بذلك دون أن أطلب منه».

قالت أمى «إذن، أجبرهم على أن يتوقفوا عن هذا».

سأل أبى بحدة «كيف؟ هل أصوب البندقية إلى رأسه؟». تركها عائدا إلى غرفة الأولاد. «هل أنت قادم يا سيد موريسون؟».

أومأ السيد موريسون وتبع أبى إلى الشرفة، ببندقية فى يده. قفزت أمى مثل القطة وراءهم وأمسكت بأبى مرة أخرى «ديفيد، لا تستخدم ... لا تستخدم السلاح».

حدق أبى فى الظلام كأنه صاعقة برقية انشقت لتحول الظلام إلى إشراق ساطع. كانت الرياح تهب بنعومة وبلطف تجاه الشرق وبدأ بالكلام «ربما...»، ثم صمت.

«ديفيد؟».

لمس أبى وجه أمى بنعومة بأطراف أصابعه وقال: «سوف أقوم بما علىّ القيام به يا مارى ... وأنت أيضًا ستقومين بما عليك القيام به». ثم استدار بعيدا عنا واختفى مع السيد موريسون فى الظلام.

دفعتنا أمنا إلى داخل الحجرة مرة أخرى، حيث جثت الجدة الكبيرة على ركبتيها ودعت دعاء شديدا. بعد ذلك قامت أمى والجدة الكبيرة بتبديل ملابسهما، ثم جلسنا فى هدوء شديد حيث زحف الحر إلى ملابسنا لَزِجًا ومبللاً وقرع الرعد متوعدا فوق رءوسنا. كانت أمى وهى جالسة على مقعدها بمقدم أصابعها مشدودة ببشرتها حين أمسكت بذراع المقعد وهى تنظر إلينا أنا وكريستوفر جون وليتل مان حيث كانت عيوننا يقظة من شدة الخوف. «لا أعتقد

أنه سيفيدكم كثيرًا إذا دثرتكم بفراشكم» قالت بهدوء رفعنا نظرنا إليها. لم تقصد أن تحصل على إجابة؛ ولم نعطها شيئًا، ولم يتم التفوه بشىء آخر.

حين انسلت دقائق الليل بعيدا وكان الانتظار يثقل كاهله علينا مثل الحر.

تعصبت أمى ثم شمت الهواء ونهضت من مكانها سألت الجدة الكبيرة: «ما الأمر يا طفلتى؟».

قالت أمى وهى متجهة إلى الباب الأمامى وفتحته «هل تشمين رائحة الدخان؟». تبعناها أنا وكريستوفر جون وليتل مان، مسترقين النظر من حولها فى المدخل. من الحقول العميقة حيث كانت تميل الأرض إلى أعلى باتجاه غابة جرينجر، كان هناك حريق منتفخ وتحمله الرياح شرقا.

صرخت: «أمى، القطن! إن النار تشتعل به!».

«أوه يا إلهى!» هتفت الجدة الكبيرة، مسرعة لتنضم لنا «هذا من فعل البرق!».

قالت أمى: «إذا وصل الحريق إلى تلك الأشجار فسوف يحرق كل شىء من هنا إلى ستروبيرى». استدارت بسرعة وركضت عبر الغرفة إلى الباب الجانبى، أمرتنا، وهى تفتح الباب وتهرع عبر الفناء إلى الحظيرة «ابقوا هنا». ثم صاحت من وراء كتفها: «أمى، من الأفضل أن تجلبى بعض الماء!».

أسرعت الجدة الكبيرة إلى المطبخ وكنا أنا وكريستوفر جون وليتل مان نجرى فى أعقابها: «ما الذى نستطيع القيام به يا جدة؟».

خرجت الجدة الكبيرة إلى الشرفة الخلفية وأحضرت حوض الغسيل وبدأت تملؤه بالماء. «يجب علينا محاربة هذا الحريق محاولة إيقافه قبل أن يصل إلى تلك الأشجار. قفوا إلى الوراء الآن وابتعدوا حتى لا تبتلوا».

عادت أمى بعد عدة دقائق، ويداها مليئتان بأكياس الخيش. رمت الأكياس بسرعة بالماء وركضت إلى الخارج مرة أخرى. عندما عادت كانت تحمل مجرفتين وعدة أكياس أخرى. سأل ليتل مان: «أمى، مالذى ستفعلينه بكل هذا؟».

أجابت أمى بعجالة: «إنه من أجل مقاومة الحريق».

«أوه» قال ليتل مان وهو يمد بيده إلى إحدى المجرفتين، فى حين شرعت أنا فى تناول الآخر.

قالت أمى «لا.. أنتم سوف تبقون هنا».

اعتدلت الجدة الكبيرة من حيث ما كانت منحنية تغمس الأكياس بالماء. «مارى يا طفلتى، ألا تعتقدين أنه من الأفضل أن نأخذهم معنا؟».

تفحصتنا أمى عن قرب وعضت على شفتها السفلية. كانت صامتة لعدة لحظات، ثم هزت رأسها: «لا أحد يستطيع أن يأتى من اتجاه جرينجر دون أن نراهم أولا. أفضل أن يبقوا هنا عن أن نجازف بأخذهم بالقرب من ذلك الحريق. إذا أخرجتم قدما واحدة من هذا المنزل فسوف أسلخكم أحياء ... هل تسمعوننى الآن؟».

أَومَأْنا بوقار: «نعم يا سيدتى يا أمى».

«وابقوا بالداخل. إن هذا البرق لخطر».

صرخ كريستوفر جون، «لكـ- لكن يا أمى.. أنتم كلكم ستخرجون فى هذا البرق!».

قالت: «لا مفر من ذلك يا صغيرى.. يجب أن يتم إيقاف الحريق».

ثم وضعت هى والجدة الكبيرة الجرفتين على قمة الحوض وأمسكت كل منهما بمقبض من مقبضيه. حين خرجتا من الباب الخلفى، نظرت أمى إلى الخلف نحونا، وعيناها مترددتان، كما أنها لم تكن تريد أن تتركنا. «من الأفضل أن تنتبهوا لحالكم الآن»، أمرت الجدة الكبيرة بصوت أجش، وعبرت كلتاهما الفناء وهما تحملان الحوض الثقيل باتجاه الحديقة. من الحديقة سيشقون طريقهم عبر المرعى الجنوبى إلى حيث كان القطن يتوهج. راقبناهم حتى ابتلعتهم الظلمة التى كانت بين البيت والحريق، ثم هرعنا عائدين إلى الشرفة الأمامية حيث كانت الرؤية أوضح. هناك حدقنا بأعيننا ونحن ثابتون فى أماكننا فى حين ابتلع اللهب القطن وزحف منذرًا بخطر تجاه حافة الغابة.

«هذ -هذا الحريق يا كيسى» قال كريستوفر جون «سوف يحرقنا».

«لا ... إنه يسلك الاتجاه الآخر. تجاه الغابة».

قال كريستوفر جون بحزن: «إذن سوف يحرق الأشجار».

شد ليتل مان ذراعى. «إن أبى والسيد موريسون ومتيسى يا كيسى! إنهم بتلك الأشجار!». ثم بدا ليتل مان ذو الإرادة الحديدية بالبكاء. وكريستوفر جون أيضًا. واحتشد ثلاثتنا، وحدنا تمامًا.

«هيه، هل أنتم بخير؟».

حدقت بنظرى فى الليل، حيث كنت لا أرى شيئًا سوى لون الحريق الرمادى والإطار الأحمر للحريق باتجاه الشرق. «من هناك؟».

قال جيريمى سيمز وهو يركض عبر المرجة: «إنه أنا».

سألته مندهشة لرؤيته: «جيريمى، ما الذى تفعله فى هذا الوقت من الليل؟».

«إنه لم يعد ليلا الآن يا كيسى. لقد قارب الفجر على البزوغ».

كرر ليتل مان بتلهف: «لكن مالذى تفعله هنا؟».

«لقد كنت نائما بشجرتى كما هى عادتى دومًا -».

صحتُ: «فى ليلة كهذه؟! يا فتى إنك فعلا فقدت عقلك!».

كان يبدو على وجه جيريمى الخجل وهز كتفيه. «حسنًا على أية حال، لقد كنت هناك وشممت الحريق. وعرفت أنه قادم من هذا الاتجاه وكنت خائفا من أن يكون منزلكم قد تضرر، لذا ركضت وقلت لأبى وجئت أنا وهو إلى هنا منذ أكثر من ساعة».

«أتعنى أنك كنت هناك بالخارج تحارب الحريق؟».

أَومأَ جيريمى: «وأبى وآر دبليو وميلفن أيضًا».

«آر دبليو وميلفن؟». هتفت أنا وليتل مان وكريستوفر جون فى وقت واحد.

«لكنهم كانوا -» وَكَزْتَ كريستوفر جون ليصمت.

«نعم، لقد وصلوا إلى هنا قبلنا وكان هناك الكثير من الرجال من البلدة هناك أيضًا». كان يبدو متحيرًا. «أتساءل ما الذى أتى بهم كلهم إلى هنا؟».

سألته متجاهلة تعجباته: «إلى أى مدى سيسوءنا الأمر؟ هل تضرر الكثير من القطن؟».

أومأ جيريمى شاردًا. «إنه لأمر مضحك. أن الحريق أتى من البرق عندما صعق عمودًا خشبيًّا بالسور، على ما أعتقد، وأشعل النار فى هذا القطن. من الأكيد أنه أحرق ما يزيد عن ربعه ... إنكم محظوظون أن الحريق ليس آتيًا فى هذا الاتجاه».

قال كريستوفر جون «لكن الأشجار.. إن الحريق سوف يصل إلى الأشجار، أليس كذلك؟».

نظر جيريمى عبر الحقل، وهو يحمى عينيه من وهج الحريق. «إنهم يحاولون بشتى الطرق منعه. إن أباكم والسيد جرينجر لديهم... -»

صرخ كريستوفر جون بأنفاس محتبسة «أبى؟ هل رأيت أبى؟ هل هو بخير؟».

أومأ جيريمى، وهو ينظر إليه باستغراب. «نعم، إنه بخير»

استعلم ليتل مان: «وستيسى، هل رأيته؟».

أومأ جيريمى لمرة ثانية «نعم إنه هناك أيضًا».

نظرت أنا وكريستوفر جون وليتل مان إلى بعضنا البعض، مرتاحين قليلا، وتابع جيريمى كلامه بالرغم من أنه كان يرمقنا بارتياب نوعا ما. «إن أباكم والسيد جرينجر أمرا الرجال بحفر خندق عميق عبر الميل وقالا إن الحريق سوف يلتهم العشب الموجود بالمرعى ثم يعود إلى القطن».

سألته: «هل تعتقد أن ذلك سوف يوقف الحريق؟».

حدق جيريمى مشدوهًا على نحو خال من التعبير نحو الحريق وهز رأسه. «لا أعلم»، قال أخيرا: «لكننى أتمنى أن يجدى ذلك نفعا». كان هناك قصف رعدى عنيف، وغمر البرق الحقل. «إن الشىء الوحيد الذى قد ينقذ الوضع حقا هو إذا قرر المطر العزيز النزول».

نظر أربعتنا إلى السماء وانتظرنا دقيقة حتى ينزل المطر. وعندما لم يحدث شىء استدار جيريمى وتنهد. «من الأفضل لى أن أعود أدراجى الآن. قالت السيدة لوجان إنها تركتكم هنا لذا عرجت عليكم لأتفقد حالكم». ثم جرى نازلا المنحدر وهو يشير إلينا مودعا. عندما وصل إلى الطريق توقف فجأة وثبت تمامًا مكانه؛ ثم مد يده، وتردد للحظة، ثم بدا بالالتفاف حول نفسه بمرح كأنه فقد عقله.

صاح جيريمى «إنها تمطر! لقد جاء المطر العزيز!».

قفزنا أنا وليتل مان وكريستوفر جون من الشرفة وركضنا حفاة الأقدام على المرجة، نتحسس المطر، جميل وبارد على وجوهنا. وضحكنا وهتفنا مرحين فى الليل الملىء بالرعد، متناسيين للحظة أننا لا زلنا نجهل ماذا حدث لتى جيه.

عندما أقبل الفجر متشِحًا بلون أصفر رمادى على الأفق، كان الحريق قد انطفأ وكانت العاصفة الرعدية قد انتقلت نحو الشرق بعد ساعة من المطر الغزير. وقفت متجمدًا وعيناى تدمعان من الدخان اللاذع ونظرت عبر حقل القطن إلى المنحدر، بالكاد مرئى من خلال الفجر الملىء بالضباب. بالقرب من المنحدر حيث كانت تقف قبل ذلك سيقان القطن، كانت هناك سيقان بنية اللون محملة بانتفاخ قطنى خفيف، وكانت الأرض متفحمة، مقفرة وسوداء، ولا يزال البخار يخرج منها منذ الليل.

أردت أن أذهب لآخذ نظرة عن كثب، لكن لأول مرة لم يتزحزح كريستوفر جون «كلا!». كررها مرات ومرات. «إننى لن أذهب!».

«لكن الذى كانت تقصده أمى هو أنها لم تُرِدْنَا قرب الحريق، وقد انطفأت النار الآن».

لكن كريستوفر جون ضغط على شفتيه بشدة، وطوى ذراعيه المنتفختين على صدره وكان متعنتًا. عندما رأيت أنه من الصعب إقناعه، أمعنت النظر مرة أخرى بالحقل وقررت ألا أنتظر أكثر من هذا. «حسنًا، ابق أنت هنا إذن. سنعود على الفور» وركضنا أنا وليتل مان على الطريق المبلل متجاهلين احتجاجاته.

قال ليتل مان مندهشا، وهو ينظر وراء كتفه: «إنه لن يأتى بالفعل».

قلت وأنا أبحث عن علامات الحريق فى القطن: «لا أعتقد». على بعد أكثر وفى الطريق كانت السيقان محترقة ورماد الحريق الرمادى الناعم يرقد كثيفا عليها وعلى الطريق وعلى آثار الغابة.

عندما وصلنا إلى الجزء المحترق من الحقل، قمنا بتفحص الدمار. بقدر ما استطعنا أن نرى فإن خط الحريق كان قد امتد إلى منتصف الطريق نحو المنحدر، لكن وقف عند الخندق. لم يتم المساس بشجرة البلوط. وعبر الحقل كانت هناك مجموعة من الرجال والنساء يتحركون ببطء وآلية كأنهم يمشون فى منامهم، وهم يرمون الوحل على رقع الحريق التى رفضت أن تنطفئ. كانوا يرتدون مناديل عريضة على وجوههم والكثير كانوا يضعون قبعاتهم، مما جعل أمر التعرف على أى منهم صعبا، لكن رُتَبُ رجال الإطفاء كانت واضحة من بين المجموعتين من رجال البلدة والمزراعين المجاورين. استطعت أن أميز السيد لاينر بقبعته الزرقاء العريضة يعمل جنبا إلى جنب مع السيد سيمز وكل منهم غير مدرك لوجود الأخر إلى جواره، وكان أبى بالقرب من المنحدر يعطى تعليمات إلى اثنين من رجال المدينة. كان السيد جرينجر يضرب بعض سيقان النباتات بظهر مجرفته، بالقرب من المرعى الجنوبى حيث كان السيد موريسون وأمى يقومان بضرب الأرض المشتعلة.

بالقرب من السور كان هناك رجل بدين وقصير مقنع مثل الآخرين، يمشى بالحقل بشكل آلى باحثا عن أية نيران خفية تحت بقايا سيقان القطن المتفحمة. عندما وصل إلى السور، مال متعبا وعليه تناول منديله ليمسح به العرق والأوساخ التى على وجهه.

سعل ونظر حوله مشدوهًا على نحو خال من التعبير. وقعت عيناه علينا أنا وليتل مان ونحن نحدق فيه. لكن كالب والاس كان يبدو وكأنه لم يتعرف علينا، وبعد لحظة التقط مجرفته واتجه نحو المنحدر دون أن ينطق بكلمة.

ثم وكزنى ليتل مان: «انظرى إلى هناك يا كيسى. ها هما أمى والجدة الكبيرة ذاهبتان!». تتبعت إشارة يده. كانت أمى والجدة الكبيرة متجهتين إلى البيت عبر الحقل.

قلت له ونحن نعدو عودة إلى الطريق: «هيا بنا».

عندما وصلنا إلى المنزل، قمنا بسحب أقدامنا عبر المرجة المبللة لكى نمسحه وانضممنا إلى كريستوفر جون على الشرفة. كان يبدو خائفا قليلا لجلوسه هناك وحده تمامًا وكان السرور واضحا عليه عندما عدنا. سألنا: «هل أنتم بخير؟».

قلت له وأنا قافزة على الشرفة محاولة التقاط أنفاسى: «بالطبع نحن بخير».

«كيف كان الأمر يبدو؟».

قبل أن أستطيع أنا وليتل مان الإجابة، كانت أمى والجدة الكبيرة قد ظهرتا من الحقل مع ستيسى، وكانت الأكياس الآن عبارة عن بقايا سوداء فى أيديهما. ركضنا نحوهما بشغف.

صرخت: «ستيسى هل أنت بخير؟ ماذا عن تى جيه؟».

«وكـ- كلود؟». تلعثم كريستوفر جون.

سأل ليتل مان: «أليس أبى والسيد موريسون قادمين؟».

رفعت أمى يدها بإرهاق. «يا أطفالى! يا أطفالى!». ثم وضعت ذراعها حول كريستوفر جون.

قالت وهى تنظر إلى ليتل مان «إن كلود بخير يا عزيزى.. وإن أباك والسيد موريسون قادمان قريبًا».

سألت بإصرار: «لكن تى جيه يا أمى.. ماذا عن تى جيه؟».

تنهدت أمى وجلست على الدرج، واضعة الأكياس على الأرض. وجلست أنا والأولاد إلى جوارها.

قالت الجدة الكبيرة وهى تصعد الدرج وتفتح باب غرفتنا: «سوف أدخل لأبدل ملابسى يا كارى، إن السيدة فانى سوف تحتاج إلى شخص بجوارها».

أَوْمَأَتْ أمى: «قولى لها إننى سوف أحضر إليها حينما أضع الأطفال بالفراش وأسوى الأمور هنا». ثم استدارت ونظرت إلينا أنا وليتل مان وكريستوفر جون حيث كنا شغوفين لمعرفة ما حدث. ابتسمت قليلا لكن لم يكن هناك أية سعادة بهذه الابتسامة. «إن تى جيه على ما يرام. لقد أخذه الشريف والسيد جيميسون إلى ستروبيرى».

سأل ليتل مان: «لكن لماذا يا أمى؟ هل ارتكب أمرًا سيئًا؟».

ـ «إنهم يعتقدون أنه فعل ذلك يا صغيرى. إنهم يعتقدون أنه قام بذلك».

ـ سألت: «إذن -إذن لم يقوموا بإيذائه أكثر من هذا؟».

نظر ستيسى نحو أمى ليرى إذا كانت تنوى الإجابة؛ ثم قال بصوت عميق متوتر «لقد قام السيد جرينجر بإيقافهم وأرسلهم لإطفاء الحريق».

استشعرت بأنه يوجد المزيد، لكن قبل أن أسأل ماذا، صرخ كريستوفر جون: «و-وأبى والسيد موريسون، لم يضطرا إلى الصراع مع هؤلاء الرجال؟ لم يضطرا إلى استخدام بنادقهما؟».

قالت أمى «شكرا لله ــ كلا ــ لم يضطرا إلى ذلك».

قال ستيسى «لقد اشتعلت النار وجاء السيد موريسون وأخذنى وجاء هؤلاء الرجال إلى هنا لمحاربة الحريق ولم يضطر أحد إلى الصراع مع الآخر».

سألته متحيرة: «هل أتى السيد موريسون لإحضارك وحده؟ أين كان أبى؟».

نظر ستيسى إلى أمى مرة أخرى وللحظة كان كلاهما صامتا، ثم قال ستيسى «إنكم تعرفون أنه لم يكن ليتمكن من قطع هذا المنحدر بساقه المكسورة تلك».

نظرت إليه بارتياب. لقد رأيت أبى وهو يتحرك على هذه الساق. كان يستطيع أن يجتاز المنحدر لو أراد ذلك.

قالت أمى وهى تنهض «حسنًا الآن.. لقد كانت ليلة طويلة ومرهقة وحان الوقت لتذهبوا جميعكم إلى الفراش».

مددت يدى لأمسك ذراعها «أمى، ما مدى سوء الأمر فى الحقيقة؟ أقصد، أيوجد ما يكفى من القطن لسداد الضرائب؟».

نظرت إلىّ أمى باستغراب: «منذ متى بدأت تقلقين بشأن الضرائب؟» هززت كتفى ثم ملت نحوها، أريد إجابة، ومع ذلك أنا خائفة من سماعها. «سيتم دفع الضرائب، لا تقلقى» كان كل ما استطعت الحصول عليه كإجابة منها «الآن لنذهب إلى الفراش».

احتج ليتل مان: «لكننى أريد انتظار أبى والسيد موريسون!».

تثاءب كريستوفر جون «وأنا أيضًا!».

«إلى الداخل!».

دخلنا كلنا إلى البيت ماعدا ستيسى، ولم تجبره أمى على ذلك. لكن عندما اختفت فى غرفة الأولاد؛ لتتأكد من أن ليتل مان وكريستوفر جون قد ذهبا إلى النوم، عدت أنا إلى الشرفة وجلست بجواره. قال: «أعتقد أنك ذهبت إلى فراشك».

«أريد أن أعرف ما الذى حدث بالفعل هناك».

«قلت لك، السيد جرينجر -».

ذكرته: «لقد أتيت لإحضار أبى والسيد موريسون كما طلبت منى، الآن أريد أن أعرف كل ما حدث بعد أن غادرت».

تنهد ستيسى وحك صدغه الأيسر وهو شارد، كما لو كانت رأسه تؤلمه. «لم يحدث الكثير إلا أن السيد جيميسون حاول التحدث إلى هؤلاء الرجال أكثر، وبعد قليل قاموا بدفعه عن طريقهم وزجوا بتى جيه فى إحدى سياراتهم. لكن السيد جيميسون قفز إلى سيارته وانطلق أمامهم وقاد سيارته نحو منزل السيد جرينجر وأدار سيارته بعرض الطريق حتى لا يتمكن أحد من تجاوزه. ثم بدأ يضغط على بوق سيارته».

أومأ ستيسى: «هل ذهبت إلى هناك؟».

«فى الوقت الذى عبرت فيه الحقل إلى المكان الذى أستطيع فيه سماع ما يجرى، كان السيد جرينجر يقف على شرفته والسيد جيميسون يقول له إنه لا الشريف ولا أى شخص استطاع إيقاف عملية الشنق بهذه الرسالة المهلهلة التى أرسلها عند آل أفرى. لكن السيد جرينجر لم يزد أن وقف على شرفته وهو يبدو نعسا وضجرًا، وأخيرا قال للشريف، «ها أنت، تولّ أنت هذا الأمر. لهذا السبب قام الناس بانتخابك».

«ثم قفز كالب والاس من سيارته وحاول الإمساك بمفاتيح السيد جيميسون. لكنه رماها فى حوض الزهور الخاص بالسيدة جرينجر ولم يستطع أحد العثور عليها، لذا جاء آر دبليو وميلفن وقاما بدفع سيارة السيد جيميسون من عرض الطريق. ثم كانت السيارات توشك على الانطلاق عندما أتى السيد جرينجر وهو

يركض من على الشرفة وهو يصرخ كمن فقد عقله. وكان يصرخ، «هناك دخان قادم من غاتى هناك!».

«فى ظل جفاف الأشجار هذا، سوف تمسك بها النيران ولن تتوقف عن الاحتراق قبل أسبوع. أعطوا هذا الفتى لويد كما يريد واذهبوا أنتم إلى هناك!» وبدا الرجال يركضون فى كل مكان باحثين عن مجاريف وأشياء ثم قطعوا كلهم الطريق نحو منزل آل أفرى إلى الغابة واتجهوا نحو منزلنا».

أومأ ستيسى: «وهذا عندما أتى السيد موريسون وأحضرك؟».

«وجدنى عندما كنت أتبعهم فى الغابة».

جلست ثابتة تمامًا، مستمعة إلى الأصوات الناعمة للصباح الباكر، وعينى على الحقل. كان هناك شىء لم أستطع فهمه بعد. أومأ ستيسى باتجاه الطريق. «ها هما أبى والسيد موريسون قادمان». كانا يمشيان بخطى بطيئة ومتعبة باتجاه المدخل.

ركضنا نحن الاثنين على المرجة لكن قبل أن نصل إلى الطريق، كانت هناك سيارة تقترب ووقفت وراءهما تمامًا. كان السيد جيميسون هو من يقود. وقفت أنا وستيسى بفضول على المرجة، بعيدين بما فيه الكفاية حتى لا تتم ملاحظتنا، لكن بالقرب الكافى لنسمع.

قال السيد جيميسون. «ديفيد، أعتقد أنه يجب أن تعرف .. لقد أتيت لتوى من ستروبيرى لأتفقد آل أفرى... -».

«إلى أى مدى سيسوء الأمر؟».

حدق السيد جيميسون فى الطريق مباشرة. «جيم لى بارنت ... لقد توفى بالساعة الرابعة هذا الصباح».

ضرب أبى سقف السيارة بشدة بقبضة يده والتفت باتجاه الحقل ورأسه منحنية.

لدقيقة طويلة، طويلة لم يتكلم أحد من الرجال؛ ثم قال السيد موريسون برفق، «الفتى، كيف حاله؟».

«قال الدكتور كراندون إن اثنين من أضلعه مكسوران وفكه مكسور، لكنه سيكون على ما يرام ... الآن. إننى ذاهب إلى أهله لأخبرهم وآخذهم إلى البلدة. فكرت فى أن أخبرك أولا».

قال أبى: «إننى ذاهب مهما».

نزع السيد جيميسون قبعته ومرر يده بشعره، مبتلا على جبينه. ثم وهو يغمض عيناه نصف إغماضة نظر وراء كتفه إلى الحقل. «إن الناس يعتقدون أن البرق قد صعق السور الخاص بك وأضرم الحريق ..». وشد أذنه. «إنه من الأفضل، على ما أعتقد، أن تبقى خارج هذا الموضوع برمته الآن يا ديفيد، ولا تعط أى أحد فرصة للتفكير بك على الإطلاق، باستثناء أنك نلت جزاءك بخسارتك لربع محصول القطن..».

كان هناك صمت حذر حين حدق بأبى والسيد موريسون، حيث كانت وجوههما من التعب. »... أو قد يبدأ أحد بالتساؤل عن سبب الحريق..».

همست: «ستيسى، ما الذى يتحدث عنه؟».

قال ستيسى وعيناه مثبتتان على الرجال: «اصمتى يا كيسى».

«لكننى أريد أن أعرف -»

التفت ستيسى ونظر إلىّ بحدة، ووجهه صارم وعيناه قلقتان وبدون تمتمة منه عرفت فجأة. عرفت لماذا ذهب السيد موريسون إلى ستيسى وحده. ولماذا كان السيد جيميسون يخاف على أبى من الذهاب إلى البلدة. لقد وجد أبى طريقة، كما طلبت منه أمى، لكى يجعل السيد جرينجر يوقف عملية الشنق: لقد أضرم هو الحريق.

وورد إلى ذهنى أن هذا من الأشياء المعروفة وغير المعروفة، أشياء لا يتم التحدث عنها أبدًا، وليس مع بعضنا البعض. نظرت إلى ستيسى، ورأى فى عينى أننى عرفت، وفهمت معنى أننى عرفت، وقال ببساطة «إن السيد جيميسون سوف يذهب الآن».

استدار السيد جيميسون فى المدخل واتجه عائدا إلى منزل آل أفرى. راقبه أبى والسيد موريسون وهو يغادر، ثم مشى السيد موريسون فى صمت إلى المدخل ليقوم بالفروض الصباحية. أما أبى، حين لاحظنا للمرة الأولى، حدق فينا وعيناه محتقنتان بالدماء وغير سعيدة. قال أبى، «اعتقدت أنكما سوف تكونان فى الفراش فى هذا الوقت».

همس ستيسى بصوت غليظ «أبى، ما الذى سيحدث لتى جيه الآن؟».

نظر أبى إلى الشمس الصاعدة، وهى ظل أحمر مستدير وراء الحر والدخان. لم يُجب فورا، وبدا أنه يفكر فى الأمر بما إذا كان سيقول أم لا. أخيرا، وببطء شديد، نظر إلى أسفل، أولا تجاهى، ثم نحو ستيسى. وقال بهدوء: «إنه فى السجن فى الوقت الحالى».

سأل ستيسى: «و –وماذا بعد ذلك؟».

تفحصنا أبى: «من الممكن أن يحكموا عليه بالأشغال الشاقة ..».

سأل ستيسى وهو يستطيع بالكاد التنفس «أبى، هل يمكن أن ... هل يمكن أن يموت؟».

ـ «يا بنى –».

ـ «أبى، هل من الممكن؟».

وضع أبى يدا قوية على كل منا وراقبنا عن كثب: «إننى لم أكذب عليكما قط، وكلكم تعلمون هذا».

«نعم يا سيدى».

انتظرت، وعيناه علينا. «حسنًا، أنا ... أنا أتمنى أن أستطيع الكذب عليكم الآن».

صرخت: «كلا! آه يا أبى لا! إنهم لن يفعلوا هذا بتى جيه العزيز! إنه بإمكانه أن يتحدث ويخرج نفسه من أى شىء على الإطلاق بأسلوب كلامه وحجته! إلى جانب ذلك، فإنه لم يرتكب شيئًا بهذا السوء. لقد قام الإخوة سيمز بهذه المشكلة! قل لهم هذا!».

ستيسى، هز رأسه، تراجع إلى الخلف، صامتا، لا يريد التصديق، لكنه كان يصدق بالرغم من ذلك. كانت عيناه مليئتان بدموع ثقيلة، ثم استدار وانطلق إلى المرجة وعبر الطريق إلى ملاذ الغابة.

حدق أبى وراءه، ممسكا بى بشدة إليه: «أوه يا أ- أبى، هـ- هل يجب أن يكون الأمر هكذا؟».

أمسك أبى بذقنى ونظر إلىّ بلطف. «كل ما أستطيع قوله يا فتاتى كيسى ... هو أنه ليس يجب أن تكون الأمور هكذا». ثم نظر إلى الغابة مرة أخرى، وأخذ بيدى وأرشدنى إلى المنزل.

كانت أمى فى انتظارنا حين صعدنا الدرج، ووجهها شاحب ومرهق. كان كريستوفر جون وليتل مان بالفراش الآن، وبعد أن تحسست أمى جبينى وسألت عما إذا كنت بخير، أرسلتنى إلى الفراش أنا أيضًا. كانت الجدة الكبيرة فى ذلك الحين قد غادرت متجهة إلى منزل آل أفرى وصعدت إلى السرير بمفردى. بعد دقائق قليلة جاء أبى وأمى كلاهما ليدثرانى بالسرير، وهما يتحدثان بلطف

بكلمات رقيقة ولكن هشة كانت تبدو على وشك أن تنكسر. لطف حضورهم من الألم ولم أبْكِ. لكن بعد أن غادرا ورأيت أبى من خلال النافذة وهو يختفى فى الغابة وراء ستيسى، انهمرت الدموع ثقيلة وسريعة على وجنتى.

عندما أستيقظ فى الظهيرة، أو غدا فى اليوم التالى، سنكون أنا والأولاد أحرارًا لنركض على الطريق الأحمر، لنتجول بالغابة القديمة ونسترخى على ضفاف البركة. وعندما يحين شهر أكتوبر، سنمشى متثاقلين إلى المدرسة كما هو الحال دومًا، حفاة الأقدام ومتذمرين، مقاومين الغبار والوحل وحافلة مدرسة جيفيرسون ديفيس. لكن لن يقوم تى جيه بهذا أبدًا بعد ذلك.

لم أكن أحب تى جيه يوما، لكنه كان موجودا دومًا، جزءا منى، جزءا من حياتى، تمامًا مثل الوحل والمطر، وتخيلت أنه دومًا سيكون كذلك. لكن فى النهاية سينتهى المطر والوحل والغبار ويمرون. عرفت وفهمت هذا. ما حدث لتى جيه فى الليل لم أفهمه أبدًا، لكننى كنت أعرف أنه سيمر أيضًا. وبكيت من أجل الأشياء التى حدثت فى الليل والتى لن تمر أبدًا.

بكيت من أجل تى جيه. من أجل تى جيه والأرض.



* * * * *

حاز كتاب ميلدرد دى تايلور الأول عن عائلة لوجان، أغنية الأشجار، على جائزة مجلس كتاب الأجناس المتداخلة وكان كتاب العام البارز لجريدة نيويورك تايمز. منحت الآنسة تايلور ميدالية نيوبيرى لعام ١٩٧٧ عن رواية، أيا دوى الرعد اسمع صراخى، وكلا التتمتين، لا تدع الدائرة لتنكسر، والطريق إلى ممفس، حازتا على جائزة كوريتا سكوت كينك وكانا ضمن كتب جمعية المكتبو الأمريكية المرموقين. ظهرت عائلة لوجان أيضًا فى ثلاثة كتب قصيرة، الصداقة، الحائزة على جائزة كتاب بوسطن جلوب - هورن؛ مسيسبى بريدج، وذا ويل تلقت الآنسة تايلور جائزة كريستوفر عن رواية ذا جولد كاديلاك. فى عام ١٩٨٨، تم تكريمها من قبل مجلس كتاب الطفل «عن مجموعة من الأعمال التى درست العديد من القضايا الاجتماعية وقدمتها فى كتب رائعة من أجل القراء للصغار». إن روايتها القديمة التى تم انتظارها طويلا بعنوان ذا لاند، تقع أحداثها فى عصر ما بعد الحرب الأهلية، وهى تتبع القصة الاستثنائية لجيل أسبق من عائلة لوجان.


Twitter: @alqareah

هذه الروايـة مفعمة بالحياة، وأحداثـها كتـبت بحرفـيـة بالـغـة، بـارعة، مقنعة، توضح ثراء الذات وما تنطوى عليه أنفس السود من كبرياء ومحبة وشعور بالاستقلالية.

بوكليست ستارد ريفيو

رواية قوية، تسرد القصة المتواصلة لعائلة لوجـان .

بابليشرز ويكلى

عَبَّرَتْ تايلور بمزيج رائع عن أسلوب التعايش بين السود وكذلك البيض، وكتبت بلا حقـد أو سخريـة أو امتهـان أو مهانة بل بشمم وكبرياء وتقدير للإنسانية.

نيويورك بوك ريفيو



